حماة الإسلام

تأليف

المرحوم مصطفى بك نجيب

(الجزء الاول)

(الطبعة الثانية على نفقة)



صاحب المكتبة الازهرية

بمصر بالسكة الجديدة

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

الى القراء الكرام

كتب سيدي الوالد المرحوم « مصطفى بك نجيب » هذا المؤلف الجليل فى تاريخ أبطال الأسلام وحماته وقام بنشره فقيد الوطن المرحوم المبرور « مصطفى كامل باشا ».

ولما نفدت نسخه من المكاتب وألح عليّ كثيرون باعادة طبعه رأيت برًّا بسيدى الوالد رحمه الله وبالقراء الافاضل وبأذن حضرة صاحب العزة (على بك فهمي كامل) ان يظهر كتاب ,, حماة الاسلام ،، ثانية في ثوبه القشيب مدبجا بمقدمة جديدة كتبها اليّ خصيصاً من برلين فقيد البلاد وخليفة مصطفى كامل باشا المرحوم محمد فريد بك

فالى القراء الكرام أقدم كتاب ,, حماة الاسلام ،، ولا أنسى أن اقدم واجب الشكر الى الاستاذ الشيخ محمد سعيد الرافعى الكتبي بمصر بما قام به في اعادة طبع الكتاب مرة ثانية ليد القراء والله الموفق الى أقوم طريق

١٤ ابريل سنة ١٩٢٣ سليمان نجيب



فقيد العلم والادب المرحوم مصطفى بك نجيب

— مؤلف كتاب حماة الاسلام وأحلام الاحلام —

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله وأصلي على نبيه الكريم سيد الانبياء والمرسلين . وبعد فقد رأيت أن المسلمين فى تأخرهم وانحطاطهم وانشقاقهم وافتراقهم محتاجون الى عظات التاريخ وعبر الحوادث السابقة اكثر من غيرهم مفتقرون الى معرفة أسباب تقدم آبائهم وسهل نجاح اسلافهم . غير محيطين بمفاخر عظماء رجالهم تلك المفاخر التي يجب على كل مسلم أن يعرفها ويحفظها ويبذل جهده للاتيان بمثلها . وعلمت من سياحاتي فى بلاد الغرب ورحلاتي اليه أن أهم الامور لدى أهله معرفة سير السالفين من عظماء الرجال الذين رفعوا للاوطان منارا عاليا وشيدوا من المجد صروحا لاتنالها يد الحدثان وأقاموا للعلم والفضيلة بنيانا وأى بنيان وان للقوم فى ممالك أوروبا حرصا شديدا على تلك السير فتراهم يباهون بها الامم ويحملونها لابنائهم وناشئيهم الدروس الاولى والقصص التي بها يتفكهون ومنها يتعلمون

فدفعتني محبة الاسلام ورغبتي الاكيدة فى خير بنيه ورفعة أهله الى دعوة كاتب من علية كتاب المسلمين ومؤرخ من كبار المؤرخين لوضع تراجم عظماء الرجال فى الاسلام تنبيها للغافلين . وارشادا للجاهلين . واحياء لتلك المآثر الباهرة والسير العاطرة فاجاب الدعوة حبا للخدمة العامة واشترط علينا كتمان اسمه ليكون العمل خالصا لوجه الله الكريم

وقد نشر الكثير من هذه التراجم فى اللواء تحت عنوان (حماة الاسلام) فكان لهامن الدوى والرنين مالم تنله ابدع رسائل المنشئين . وأجود منشآت الكاتبين . مما حبب الينا جمعها فى هذا الكتاب ونشرها بين الامة الاسلامية الكريمة عساها اذا ذكرت بالمجد القديم والشرف الغابر تحيا منها نفوس هى بحمد الله مستعدة للحياة

والله المسئول أن يجزى المؤلف خيرا ويحقق مانؤمل من عز وارتقاء للاسلام والمسلمين

مصر في ٤ ذى الحجة سنة ١٣١٨ — (مصطفى كامل)

عثرة الاسلام بعد نهضته

« جاء بجريدة الشعب الغراء بتاريخ يوم الثلاثاء ٢٨ شعبان سنة ١٣٣٢ — ٢١ يوليه سنة ١٩١٤ »

« تفضل صاحب العزة الاستاذ المحقق محمد بك فريد رئيس الحزب الوطنى فكتب مقدمة موجزة بليغة لكتاب حماة الاسلام « تأليف فقيد العلم والوطنية المصرية المؤرخ الكبير المرحوم مصطفى بك نجيب وكيل قسم الادارة سابقا بنظارة الداخلية وهو كتاب تاريخى جليل ذو شهرة واسعة فى العالم الاسلامى وكان قد طبعه صديق المؤلف فقيد مصر والشرق المغفور له مصطفى كامل — فنفد جميع ما طبع منه

والآن قرت عزيمة حضرة الاديب الالمعى الفاضل سليمان افندى نجيب على إعادة طبعه وطبع غيره من مؤلفات والده الشائقة بواسطة بعض المكاتب الشهيرة فى القاهرة فرأينا تتميما للفائدة وتنويها بفضل مؤلف هذا السفر المحكم ان ننشر هذه المقدمة قبل صدور الطبعة الثانية منه التى يرجى ظهورها قريبا

قال الاستاذ فريد بك حفظه الله

— كان افتتاح القرن الرابع عشر للهجرة النبوية مبدأ عصر محن ومصائب نزلت بالعالم الاسلامي فقصمت منه الظهر وفككت منه الاوصال وانقصت من أطراف الدولة الاسلامية البقية الباقية وكادت تقضى بتقلص ظل الاسلام السياسى من هذا العالم لولا ان أتاح الله له عصبة ذات قوة وبطش قامت فى وجه المهاجمين له من كل طرف . وبذلت المهج فى المحافظة على تلك البقية الباقية من أن يكون حظها حظ ما سلخ من الجامعة من الاقاليم والبلدان —

افتتح هذا القرن الهجرى ببسط فرنسا حمايتها على « بلاد تونس » بعد أن فتحت بلاد الجزائر من قبل وباحتلال انجلترا لوادى النيل بعد ان احتلت قبرص وسلمت البوسنه والهرسك للنمسا وأعقب ذلك ببضع سنوات معاهدة الجزيرة

على ان تأخذ فرنسا مملكة مراكش أجراً على عدم معارضتها لاحتلال انجلترا للكنانة وما تبعها .

ثم ختمت هاته المصائب بالحرب البلقانية التى بلغ فيها الاعداء ابواب « فروق » ولم تقفهم عن الدخول فيها الا أبطال العثمانيين الذين اسقطوا وزارة كامل المسببة لكل هذا الخراب ونصبوا مكانها وزارة البطل الشهير محمود شوكت باشا ولقد افضت هذه الكارثة الى ضياع بلاد ألبانيا التى جعلتها اوروبا أو بالاحرى دول التحالف الثلاثى إمارة مستقلة يحكمها أمير مسيحى توطئة لتجزئتها فيما بعد بين ايطاليا والنمسا والى تقسيم مقدونيا بين اليونان والصرب والبلغار حتى لم يبق للدولة العثمانية فى اوروبا الا لسان صغير من الارض تحده من الشمال مدينة ادرنه العاصمة القديمة لدولة آل عثمان التى لم يستردها العثمانيون من البلغاريين الا بعد ان ارتكب الاخيرون فيها مالا عين رأت ولا اذن سمعت من الفظائع والمنكرات والفضائح والموبقات

ولقد صدق من قال « رب ضارة نافعة » لانه اذا كانت نتيجة هذه الحرب سيئة من الوجهة المادية فانها أسفرت عن نتائج حسنة عظيمة من الوجهة الادبية إذ كانت سببا فى ظهور ما تكنه قلوب المسلمين فى جميع الاقطار من الميل الشديد لدولة الخلافة والتعلق الثابت بها والمحافظة على ولائها وان كان هناك فريق من الخوارج يعملون على التفريق بين عناصرها فهم لاشك خاسرون

انه فى مثل هذه الآونة التى يتحتم فيها تقوية روابط الاخاء والتحالف السياسى بين المسلمين يجب على الكتاب الصحفيين والمؤلفين ان يبينوا للعالم الاسلامى فضل الاتحاد وما سببه للاسلام فى مبدأ ظهوره من رفعة وقوة ومضار التفرقة وماجرته عليه من الخراب والدمار وان ينصحوا المسلمين جميعاً بالالتفاف حول خلافة آل عثمان ليكونوا عونا لها على دول الصليب المتألبة عليها قاصدة ان لا يبقى للاسلام دولة مستقلة يعتز بها

وممن كتبوا وأجادوا فى هذا الموضوع وأظهروا جلياً مضار الانقسام المرحوم مصطفى بك نجيب فقد أتى فى كتابه « حماة الاسلام » على فلسفة التاريخ الاسلامي مبيناً أسباب ارتقائه فى عهده الاول ودواعى انحطاطه بعد أن دب الشقاق بين

ملوكه وحكامه وطمع كل منهم فى الاستقلال بما ولى عليه من البلاد وقد سار المرحوم فى كتابه على الخطة المثلى التى انتهجها المؤلف الفرنسى (مونتسكيو) فى مؤلفه أسباب ارتقاء وانحطاط دولة الرومان وهى الطريقة المفيدة التى يجمل بالمؤلفين فى هذا الباب أن يسيروا عليها ان أرادوا النجاح فى تنبيه أفكار المسلمين الى ما يحيق بهم ويتهددهم فى كل وقت من الاخطار أو رغبوا فى إلفات أنظار الامراء المسلمين الى مايجلبونه على الاسلام من الضرر بسعيهم فى الانفصال عن الجامعة العثمانية التى تمثل فى هذا الحين الجامعة الاسلامية .

ولله در ولد المؤلف الذى عرف قدر مؤلفات والده النفيسة فشرع فى اعادة طبعها ولا غرابة فى ذلك فان هذا الشبل من ذاك الاسد (وقد يخرج الفرع شبه الاصل للناس)

وفق الله المسلمين الى ادراك حقائق أحوالهم ، وهدى أمراءهم سواء السبيل

محمد فريد

مقدمة المؤلف

ان الحكيم الذى ينصب نفسه لتربية الامة يجب عليه ان يدخل بها فى كثير من أبواب الرياضات ويريضها على صنوف من مكارم الاخلاق ليتحقق من استعدادها الفطرى ويظهر له الوجه الذى تصبو اليه والموطن الذى تألفه والمقصد الذى تتوجه اليه حتى اذا دعاها الى الولوج معه من ذلك الباب الذى رآه صالحا لها لبته لأنه أصبح هو وشوقها عليها

وقد رأينا ان الذين نصبوا أنفسهم لوعظ أمتنا هذه ونصيحتها قد قلبوها على أوجه كثيرة من التربية والتهذيب فأخذوها بالرفق والدعوة للخير ثم واجهوها بالزجر والاعنات . وضربوا لها الأمثال . وحذروها عواقب ما هي فيه ودعوها الى محاذاة الأمم ومجاراتها . وأهاجوا فيها نار الغيرة وقدحوا لها زند الشوق لكل فضيلة . ثم رأينا ورأوا أنهم على طول هذا الزمان لم يصلوا الى كل ما أرادوا بل قصرت بهم النتائج عن كثير من المبادىء الشريفة التي نهجوها وأرادوها

تحقق لهم أنهم كلما اجتهدوا فسدّوا عليها بابا من أبواب الشر فتح أهل الشر عليها أبوابا من المفاسد ولم يأمن فيها العثور . ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق . الا قليلاً منهم

ظهر لهم ان الأمة لم يكن لها نقطة وسط ترتكز عليها . بل هي فى مهب ريح الاغراض سائرة مع كل قائد وعلى الخصوص لو عزز الداعى لها دعوته بالبهتان الذى أصبح منطلياً على أكثرها فما أسرع ان تلبيه اذا دعاها وتضافره اذا سألها

ثبت لهم أن فى الأمة عدداً عظيما نسوا ملتهم ودينهم ووطنهم . بل نسوا الله فانساهم أنفسهم . فلابد لهم من مذكر يقرع أسماعهم بصوت آخر يكون له فى القلوب رنة وفى النفوس صدى يبعث فيها ميت الهمة

تبين لهم ان فى حواس الأمة خدراً جعلها لا تتأثر لمصابها . كصاحب العاهة الذى تعيره الصبيان بها فيتألم منهم فى أول أمره حتى يضرب قريبهم ويشتم بعيدهم ريثما يعرف أن الناس تسامعت بعاهته واشتهر بها فيسكن ويضحك على نفسه كما تضحك الناس منه

ولا عجب فى هذا لان فقدان الفضائل وارتكاب أضدادها . وسلوك الطرق المبتدعة. وانتقاص الاخلاق . ونسيان العوائد الجميلة . والافراط فى أسباب الحضارة من الرياش والترف . والتناهى في عدم القناعة . بدّل الخلق من أصله وحول العالم بأسره وكأنما خلق جديد . ونشأة مستأنفة. وعالم محدث

نعم يجب على الناصح أن ينادى فى الأمة بذلك الصوت من غير ان يدعوه حالها لليأس . أو يسد عليه باب الأمل . أو يقطع عنه طريق الخير . أو يمانعه فى وصول النفع . فان أبواب الصلاح لا تحصى ولا تستقصى يعرفها الناصح الامين . والواعظ المشفق يرجو بها تحقيق الخير والنفع ان شاء الله

وان من أبواب التربية التى لم تقرع . وطرقها الجسيمة التى لم تسلك . وشرعتها الغزيرة التى لم تقصد . دعوة الامة للنظر في ماضى أمرها وأوليه شأنها لتعلم من هى عساها تخجل من أن تكون خاتمة سوء لذلك المفتتح الشريف . عساها تأسف على حالها من كونها أصبحت بمنزلة السفيه ولى مالكا فلم يحسن سياسته ورزق سعة من المال فلم يدبر أمر تنميته

هذا الباب من أحسن الابواب التى تثقف أفكار الامة وأقرب ماتربى على

خيره طباعها فان تذكارها بمجدها القديم وتمثيل عزها السالف لها وتشخيص مجدها الشامخ أمام عيونها يدعوها بلا شك للتنافس بخلالها الحميدة السابقة

أحسن رادع للانسان عن شهواته ان يلتفت وراءه فيرى في أمته وملته العلماء والحكماء والعظماء والحكام والقواد عاشوا ولا شغل لهم الا مجداً أقاموه وعزاً شادوه. وشرفا حفظوه. وأكبر مسهل له لاحتماله الضيم والذل جهله بحالة نفسه ونسيانه مجد آبائه وأجداده حتى تسترت عنه كرامة أخلاقهم وتحجب عنه جميل طباعهم ولم يذكره مذكر بسابق أعمالهم الشريفة. انه لا يأنف أبداً من إتيان الدنيئة وعمل كل ما يخالف تلك الطباع الجميلة والاخلاق الطاهرة

لذلك ترى الدهاة من الفاتحين — خصوصاً رجال الممالك الغربية الآن الذين لا يغفلون عن تجربة ولا يغضون عن فرصة — اذا فتحوا بلدة اسلامية أو احتلوها تسلطوا على أهلها فانسوهم دينهم وعوائدهم ولغتهم وتاريخ حياتهم ومجدهم واستبدلوهم بذلك شيئا آخر. فتراهم اذا نسوا تاريخ حياتهم واشربوا في قلوبهم تاريخ حياة غيرهم ذهب كل فريق منهم بما اشتهى وشبت النفوس على ما سيقت اليه وبدت على الامة أخلاق منكرة مبتكرة بعوائد غريبة لا تنسب بالمرة لسوابق عوائدها وتقربوا من تلك الامم الطارئين بكل طريقة وابتعدوا عن ذلك الاصل الشريف الذي هم منه

ثم يتبع ذلك تقلص ظل الدولة الحاكمة وفلّ حدها ووهن سلطانها. وتتداعى للتلاشي والاضمحلال وينتقص من عمرانها ويندرس من سبلها ومعالمها بمقدار انحراف رعيتها عن عوائدها الشريفة

ثم تتناهى الامة في الفجور وتتفانى في البغي والضلال حتى تعود باللائمة

على أصل دينها وعوائدها واخلاقها . تقول وهى لاتستحى من الله ولا من الخلق ولا من نفسها إنها ما أخذت الا من جهة تقصير دينها وتقاليده عن مقتضيات الحياة المدنيـة ومستلزماتها وأفرادها يجهلون غاياته البعيدة في المآخذ والمتارك يودون من صميم أفئدتهم ان لو استبدلوا بطباعهم وعوائدهم شيئاً آخر ليخرجوا من ذلك الجنس كما هو واقع الآن من بعض أهالى هذه البلاد المصرية ووقع من قبلها فى كثير من بلاد الاسلام كالاندلس وغيرها

عذر أولئك انهم يغدون ويروحون بين رجلين إما عدوّ لهذه الملة يدعى عدم ملاءمة دينها للمدنية الجديدة (كبعض فلاسفة هذا الزمان) وإما جاهل تاريخ حياتها فلا يعرف منه شيأ لا خيراً ولا ضراً (كاغلب شبان هذا العصر)

لذلك هم يفرون من النسبة لهذا الدين ويتجنبون القرابة لامته وملته لانهم أقل الناس دراية به ومعرفة بفضائله لا يعلمون وهم أهله مكرمة له يعدها المنتسب منهم اليه مفخرة اذا نازعه منازع في الانتساب اليه

ينبغى لهم أن يتـألموا من أن يكونوا مسلمين لانهم لا يدركون للمسلمين فتحاً أبلوا فيه بلاء حسنا . ولا يعرفون لهم حربا ولا ضربا . ولا يتحققون في أى بقاع الارض نشأ المسلمون وفى أى جهة كانوا شرقا أم غربا . ولا يحصون لهم عددا ليعلموا انهم وهم على قلتهم فاجأوا حصون الممالك البعيدة ومعاقل العواصم النازحة فانزلوا حماتها من عروشهم وبثوا فيها معالم دينهم وصيروها حنيفية بعد ان كانت جاهلية

كيف لا يأنفون من المسلمين وهم يعتقدون أنهم قوم نشأوا وسط البداوة لا يعرفون غير جوب القفار وقطع الأودية . عاشوا فى جهالة وماتوا فى جهالة لا يعقلون ان جميع مكارم الاخلاق إنما هي منتزعة منهم مأخوذة عنهم

وان ما يدعيه المدعى من الخلال الحميدة كالدعة والرحمة والشفقة والعدل والانصاف والاحسان انما هو مجاز بالنسبة له حقيقة بالنسبة اليهم وان هذه الامة جاهلية كانت أو حنيفية لم تفارقها مكارم الاخلاق كحفظ الجار والجوار ومراعاة الشرف والذمة واحقاق الحق وقول الصدق ومحاسن الاعمال وجميل الخصال

من يعلمهم أن ملتهم هذه هى أول من تنافس أهلها في الخير وتحدّوا غيرهم بخلال الكرم كالعفو عن الزلات والاحتمال من غير القادر والقرى للضيوف وحمل الكل وكسب المعدم والصبر على المكاره والوفاء بالعهد وبذل الاموال فى صون الاعراض وتعظيم الشريعة واجلال العلماء الحاملين لها والوقوف عند ما يحددون لهم من فعل أو ترك وكرامة أهل الدين والحياء من الاكابر وتوقيرهم واجلالهم والانقياد الى الحق مع الداعى اليه وانصاف المستضعفين والتبذل في أموالهم والتواضع للمساكين واستماع شكوى المستغيثين والتجافى عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد

من لهم بان يتحققوا ان ملتهم هذه نشأت على هذه الفضائل التي هى أجمل واكمل خلق السياسة حتى استحقوا بها أن يكونوا ساسة الامم التى تحت أيديهم ولم يوجد ذلك فيهم سدى ولا عبثاً وان الله قد تأذن بوجوده فيهم لوجود علاماته فى قبيلهم

من يدلهم أن رجال الدين الاسلامى كانوا خير مجتمع لتأسيس قواعد الحرية والاخاء والمساواة وان أهله هم الذين جابوا القفار وقطعوا الاودية وركبوا ثبج البحر لفتح باب العلم والانتفاع به وانه لم يزهر فى دولة إزهاره فى دولتهم ولم يعتز كعزته في سلطانهم حتى تقوت حجته وانتصر لواؤه

وأذعن الناس لقوته واشرقت عقولهم بنور برهانه

لابد لهم من مذكر بذلك كله ليعلم المتوسدون سرير الملك والحاملون للواء الدولة والمباشرون للامر أنهم لم يتطاولوا لهذه المراتب عن تطفل ولم يرثوها عن كلالة وليتحققوا أنهم أهلها وان الفضائل التى أخذت فى الذهاب عنهم والملك الذى صارت الاعداء ترتقب زواله من بين أيديهم انما سببه جهلهم بتاريخ حياة قادتهم وسادتهم وعدم علمهم بفضيلة أصولهم وعشيرتهم ورضوخهم لمن لا يناهضهم فى الشرف والنسب وتجاذبهم حبل الفخر والمجد مع من لا يدانيهم وحبهم تقليد سواهم واستبدالهم عوائد أممهم واجيالهم بعوائد غيرهم

لهذا قد استخرنا الله سبحانه وتعالى فى ان ننسق من أخبار هذه الامة الشريفة المكرمة شيئاً نجعله مسطراً على صفحات (اللواء) المحمود مندمجاً في تاريخ عظمائها مبتدئين بسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين بعده ثم برجال الدوله الأموية ممن قاموا فى بدايتها ورفعوا لواءها ورايتها واظهروا فى الفتوح آيتها وأنموا بالوقوف على قدم الخير غايتها — ثم ما كان في الدولة العباسية من الخلفاء والقواد والعظماء الذين تولوا أمورها فى فتح وحرب وقتال وضرب وتدبير في تدوين الدواوين واعلاء كلمة السلاطين وما كان من نشر الحضارة واتساع الملك . ثم ما كان من أعاظم رجال دولة الموحدين والملثمين . ثم ما كان من مدنية الدولة الاموية بالاندلس وعجائب خلفائها فى الاراء والافكار . ثم ما كان من الدوله التركية صانها الله لنصرة الدين واحترامه وتعزيز أهله وخلوها من بدعة مبتدعة أو شبهة مصطنعة وما كان من استطالتها على جميع النواحي والامصار فى جميع الاقطار معقبين ذلك بما

نراه من الحوادث صحيح العلل والاسباب فاتحين للقاريء فى ساحة الاعتبار بابا ياله من باب كاشفين عن بصيرته غشاوة الحجاب بسر ما في هذا الجراب

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالرجال فلاح

ولا عار فى ذلك ولا شنار فان هذا الباب لا يستحى ان يأخذ منه الملوك

ونسأل الله سبحانه وتعالى ان نبلغ بهذا العمل ما نرجوه من الخير والنجاح وترزق الامة بسببه بصيرة تتراجع بها لأولية امرها فترى ما كان محتفاً بها من سياج العظمة وتتحقق ما كانت متصفة به من الفضائل والكمال فتتشوق نفوسها لتجديده والا فهى مستحقة لما هى فيه . فانه اذا كان للعقاب اوقات مناسبة ولقبول الاذي نفوس مستحقة فاحق امة بعقوبة الذل (امة ذات مجد قديم لا تستحي من إضاعة مجدها)

عساها لو نظرت فى ذلك تجتهد فى تهيئة نفسها لقبول العدالة التى تحتاجها هذه الرتب السامية وتستلزمها حاجتها فان من اهمل حق نفسه ولم يطلبه فغيره فى ايصاله اليه ابطأ واهمل

عساها تنظر فتجد فيها بقية من خميرة الملك والسلطان الذى لا يحتاج تأييدهما الا الى الاتفاق والوفاق والالتفاف حول علم الخلافة فتهب من رقدتها وتعمل فى ما فيه الخير والصلاح لنفسها

وقد اخذنا على انفسنا ان نكتب فى جريدة (اللواء) كل يوم جمعة من كل اسبوع سيرة عظيم من عظماء الامة الاسلامية فكاهة بين اخباره ونكتة بين اغراضه واسراره مبتدئين من يوم الجمعة خامس شهر محرم الحرام مفتتح سنة ١٣١٨

والله المعين على هذا العمل الذى لا نقصد به الا وجهه الكريم وإعادة

سلافة الذكر الجميل لافعال حماة دينه القويم ودعوة اخواننا الى النظر للمقام الكريم الذى كان لهم فى الزمان القديم وما صاروا اليه من الانقياد والتسليم فقد أشفى الحال على الخطر وأصبح ذئب المغرب متهيئاً للافتراس مستديم النظر حديد البصر ونحن الى التعاضد والتناصر فى حفظ هذا الملك مفتقرون فان أكله الذئب ونحن عصبة انا إذاً لخاسرون

مصطفى نجيب



﴿ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ﴾

جعل الله سبحانه وتعالى النبوة فى بيت واحد لا يشترك في فضيلتها مع أنبيائه أحد . قال تعالى (ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم) فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو المختار من ذرية سيدنا اسماعيل ابن سيدنا ابراهيم عليهما السلام من أكرم بيت من مضر خلق الله الخلق فجعله فى خير خلقه . وجعلهم فرقا فصيره فى أحسن فرقة وبيوتا فأحله في أرفع بيت واسماه وأشرفه (ابن عبد الله) المعروف مكانه من بنى عبد المطلب . من أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعاً : (آمنة) بنت وهب بن عبد مناف سيد بنى زهرة نسبا وشرفا تزوج بها عبد الله ونوره يتلألأ بين عينيه كالغرة البيضاء

ما لبث عبد الله أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مات وأمه حامل به حتي كانت الليلة التى تمخض بها الزمان . وتكهنت بها اليهود ورصدتها الرهبان الليلة التى أراد الله أن يخرج الانسان فيها الى نور الفلاح من ظلمات الجهالة الليلة التى ابتهجت فيها الحظائر القدسية وازينت فيها السماء فوق زينتها بأشراق الغزالة استل فيها سيف الله من قرابه . وانتشل فيها سهمه من إهابه . وظهر ليثه من غابه . وهطل غيثه من سحابه . فتنادت الرهبان بظهور أكرم مولود فى هذا الوجود

ولد صلى الله عليه وسلم في الليلة الثانية عشرة من ربيع الاول ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام فى زمن كسرى أنوشروان أشهر ملوك الفرس في ايامه ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم

حاكياً عن نفسه : » ولدت في زمن الملك العادل «

ولد صلى الله عليه وسلم يتيما ولم يرث الا خمس جمال وبعض لقاح وجارية فتجافت المرضعات عنه الا حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية فأثره لما أراد الله من تشريفها فدّر ابنها وقد جف . ولبن شارفها على حين لا يجد انسان قطرة فى ضرع . وأخصب الله بلاد بني سعد ولا يعلم أحد من خلق الله أجدب منها وهذا من إرهاصات نبوته صلى الله عليه وسلم

شب رسول الله صلى الله عليه وسلم والله يكلؤه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد من كرامته ورسالته ، وان يكون أفضل قومه مروءة ، واحسنهم خلقا ، واكرمهم حسبا . واعطفهم جوارا ، وأوجههم خلقا ، وارجحهم حلما . واصدقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة وأبعدهم من الفحش . والاخلاق التى تؤنس الرجال تنزها وتكرما حتى عرف بين أهل مكة وهو فى ريعان شبابه بالأمين لانه استوفى من مكارم الاخلاق كل مكرمة لم ير كمالها فى بشر

وكيف لا يسمونه بالامين وما رأوا صبرا كصبره ولا حلما كحلمه ولا كوفائه ولا كزهده ولا كجوده ولا كنجدته ولا كصدق لهجته وكرم عشيرته ولا كتواضعه ولا كعلمه ولا كحفظه ولا كصمته اذا صمت ولا كقوله اذا قال ولا كعجيب نشأته ولا كحلة لونه ولا كعفوه ولا كحداد طريقته وقلة امتنانه

توفيت والدته فاحتضنه جده عبد المطلب فكان يجلسه معه فى ظل الكعبة بين أعمامه ثم مات فكفله عمه أبو طالب وكان كريما غير انه كان فقيرا بحيث لا تملك كفاف أهله . وكان حاله صلى الله عليه وسلم كحال أحد

بنى عمه ، وصبية قومه ، ويزيد عليهم اليتم بفقد الابوين

عاش بين قومه على هذا الحال بغير مؤدب ظاهر يعنى بتثقيفه ، أو مرب بادٍ يقوم بتهذيبه سوى طهارة العقيدة وشعار النفس الشريفة المشتملة على معانى الادب التى يجد بسببها فى وجدانه الكريم شعورا بالفضيلة وتلبية لندائها وعشراؤه أهل الوثنية وعبادها وخلطاؤه أولياء الاصنام وخدامها . وهو متحل بالادب الالهى الذى يبعد عن أن تتزين به نفوس الايتام والفقراء خصوصاً مع بعده عن معتقد القوام عليه . كل هذا يتجلى للناس مظهر معنى قوله للناس : « أدبني ربى فأحسن تأديبي »

خرج عمه الى الشام فى ركب الاتجار فاخذه معه فلما نزل الركب بُصرى وفيها بحيرا الراهب علم أهل النصرانية وامامهم في علمهم الذى يتوارثونه كابراً عن كابر صنع لهم طعاماً ونزل من صومعته ولم تكن تلك عادته فلما أكلوا سأل بحيرا النبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء في حاله ونومه وهيئته ونظر العلامات في بدنه الشريف ثم أوصى عمه أبا طالب ان يسرع فيقدم به مكة وحذره من اليهود

اشتهر بين الناس بكرم أخلاقه وحسن خلقه وعظيم أمانته وصدق حديثه فعرضت عليه خديجة بنت خويلد ان يخرج فى تجارة لها الى الشام ومعه ميسرة غلام لها فرأى ظلال الغمام تظله من الشمس وهو يسير . ثم شاهد من أمانته ما شاهد [illegible] فلما [illegible] أخبر سيدته بما رآه [illegible] [illegible] [illegible] وما ظهر له من البركة وكثرة الارباح وسهولة الامور . وكانت خديجة امرأة حازمة [illegible] فيه بسبب ذلك [illegible] وسطته فى قومه وذكرت ذلك [illegible] له عمه وهى ام ولده كلهم الا (ابراهيم فانه من مارية)

كان فى هـذه الاستزادة فى الرزق مقنع لطالب دنيا تروق فى عينه . ويغر بزخارفها . رفه فى العيش . وعون على بلوغ الامل . ولـكن الحال غير هذا وكلما تقدمت به السن نما فى قلبه حب الخلوة والانفراد الى أن تجلى عليه النور الالهى وانـكشف له العالم بأجمعه

ظهر الهدى الالهى في عمله صلى الله عليه وسلم فأزال الفتنة من بين قريش وقد كاد تنازعهم يفضى الى تخاصم عظيم فى اختصاص قبيلة منهم فى وضع الحجر عند بناء الـكعبة وتحكيمه عليهم ليقضى بينهم فيه فاستدعي ثوبا وأخذ الحجر فوضعه فيـه وقال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا حتى بلغوا به موضعه فوضعه بيده وبنى عليه

بلغ سنه أربعين سنة الا ستة أشهر فبدأت الرؤيا الصالحة لا يرى رؤيا في نومه الا جاءت كفلق الصبح وحبب الله اليه الخلوة فكان يجاور فى حراء يتعبد فيه الليالى ذوات العدد ثم يرجع الى أهله فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وجاءت الليلة التى اكرمه الله فيها برسالته ورحم الله العباد بكشف ما غاب عنه من مصالح البشر فنزل عليه جبريل فى غار حراء بقوله تعالى « اقرأ باسم ربك الذى خلق » كما وردت به الاخبار الصحيحة وعاد وأخبر خديجة الخبر وقال لقد خشيت على نفسى فقالت خديجة « كلا . والله لا يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم وتحمل الـكلّ وتـكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » ثم انطلقت به الى ورقة بن نوفل بن عمها فقالت له خديجة: يا ابن عم . اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى : فأخبره رسول الله صلى الله عليـه وسلم خبر ما رأى . فقال له ورقة هذا الناموس الذى نزل الله على موسى . ياليتنى فيها جذع ياليتنى أكون حياً

اذ يخرجك قومك . قال : « أومخرجىّ هم ؟ » قال نعم . لم يأت رجل بمثل ما جئت به الا عودى وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزرا

ثم فتر الوحى فشقه عليه حتى عاوده بقوله تعالى . « يايها المدثر قم فانذر » فقام يدعو الناس الى الايمان بالله تعالى فأول من آمن به من النساء خديجة ومن الرجال أبو بكر . ومن الصبيان على . ومن الموالى زيد . ثم تتابع الوحي وتتابع دخول الناس فى الاسلام . وكان أبو بكر محببا سهلا وكانت رجالات قريش تألفه فاسلم على يديه من وثق به

دخل الناس فى الاسلام أرسالا من الرجال والنساء وفشا الاسلام وهم يتنحلون به ويذهبون الى الشعاب فيصلون وأمره الله ان يصدع بما يؤمر فنادى فى الناس بأمره ودعا اليه (وكان بين ما أخفى أمره واستتر به الى ان أمره الله تعالى باظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه)

قام بدعوته وحده على فقره وضعفه وقارع أعداءه بالحجة وناضلهم بالدليل وأبدى لهم نصحه وزجره وذكر آلهتهم بالسب وعابها وكل من حوله ممن اسلم مستخف وأعداؤه يردون دعوته وهم بادون ظاهرون ويرفضون رسالته وهم باغون معتدون سواء العامة منهم والخاصة يقولون . « لولا أنزل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » وكيف يسلم أولئك المغرورون بالعزة والسلطان فى قبيلهم لدعوة فقير أمى لا ينبغى أن يتطاول الى هذه المقامات بالممكن من الكلام فكيف باللوم والتعنيف وسب الآلهة وتضليل المتعبدين بها

أجمعوا على خلافه وعداوته وقام عمه أبو طالب دونه محامياً يحدب عليه ويمنع وهو ماض على امر الله لا يرده عنه شئ فلما رأت قريش ذلك مشى

رجال من أشرافها الى ابى طالب يقولون له ان ابن اخيك سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه احلامنا وضلل آباءنا فاما تكفه عنا واما ان تخلى بيننا وبينه فانك على مثل مانحن عليه من خلافه فنكفيكه . فقال لهم ابو طالب قولا رقيقا وردهم ردا جميلا فانصرفوا ورسول الله على ماهو عليه مظهر لدين الله داع اليه ثم الحم الامر حتى تباعد الرجال وتضاغنوا وحض بعضهم بعضاً ومشوا الى ابى طالب مرة أخرى يقولون الذى قالوه اولا ويخبرونه بانهم قد استنهوه بن اخيه فلم ينهه وانهم لايصبرون على هذا الامر العظيم فاما كفه عنهم او نازلوه .

اصبح ابو طالب فى حيرة بين مفارقة قومه وعداوتهم وبين خذلان ابن اخيه فتلطف معه ليستبقيه عليه وعلى نفسه ولا يحمله من الامر مالا يطيق ولكن القوة الالهية أيدته فايأسهم من نفسه وقال لابي طالب ياعماه لا أترك هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فيه وشمل الاشراق النبوى عمه أيضاً فقال له يا ابن أخى قل ما احببت فوالله لا اسلمك لشىء ابداً . فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يضربونهم ويفتنونهم في دينهم وافترق امر قريش فتعاهد بنو هاشم وبنو عبد المطلب مع ابى طالب على القيام دون النبي واشتد العذاب على المسلمين فامرهم بالهجرة الى ارض الحبشة فهاجروا وتتابع المسلمون حتى بلغوا ثلاثة وثمانين رجلا

صار النبي غريباً في شعبه وقومه بعيداً عنهما يحول بينه وبين عشيرته ماهو اعظم من كل عظيم وهو مجد على تقويم عوجهم وهدايتهم وهم أبعد من ان يفقهوا دعوته او يعقلوا رسالته وطفقوا يرمونه عند الناس ومن يفد على مكة بالسحر والكهانة والجنون والشعر . يرومون بذلك صدهم عن الدخول

في دين الله وجلسوا للناس في المواسم لايمر بهم احد الا حذروه منه وذكروا له امره فاذاعوا الدعوة للدين من حيث ارادوا كتمانها واعلنوا خبرها بين العرب وهم يبعدونهم عنها (والله مخرج ما كنتم تكتمون)

ثم اشتد الامر واغرت قريش سفهاءها برسول الله وانتدب جماعة منهم لمجاهرته بالعداوة والأيذاء وتعاقدوا على قتله فى اللات والعزى ولم يبق رجل الا وقد عرف نصيبه من دمه الشريف ورسول الله ظاهر بمظهر الحكيم فى تربية قومه بحال يدهش المشاعر إذ يجدون منه سلطانا قاهرا فى حكمه عادلا في امره شديد الحرص على مصالحهم رؤوفاً بهم في شدتهم رحيما فى سلطنتهم . وكيف لا تتحير الحواس وهم يرون قوة من ضعف وسلطانا من عجز و لما من امية ورشاداً من منبت جاهلية

حارت قريش فى امرها . تعجب من صبرها على تسفيه احلامها وشتم آبائها وسب آلهتها وإهانة دينها فاجتمعت اشرافها في الحجر يتشاكون الصبر على هذا الامر فطلع عليهم رسول الله فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر طائفاً بالبيت وكلما طاف غمزوه ببعض القول فوقف ثم قال اتسمعون يامعشر قريش (اما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح) فاخذت القوم حالة حتى مامنهم الا كانما على رأسه طائر واقع واشدهم فيه وطاة صار يرفؤه باحسن ما يجد من القول (يقول انصرف ياأبا القاسم ما كنت جهولا) ثم يعودون على انفسهم بالملامة ويذكرون ما بلغ منهم وما بلغه فيهم وتركهم إياه فبينماهم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا له وثبة رجل واحد واحاطوا به يقولون له انت الذى تقول كذا وكذا من عيب آلهتهم وهو يقول نعم فاخذ رجل منهم بمجمع ردائه فاذا ابو بكر دونه وهو يقول

(اتقتلون رجلا أن يقول ربى الله) ووقف ابو جهل لرسول الله وشتمه وبلغ حمزة فضربه حتى شج رأسه

أرادت قريش أن تخاصمه بعد ذلك بالحجة وتكلمه بالدليل فبعثت اليه عتبة بن ربيعة وكان سيداً في قومه فقال انك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جمعهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع منى أموراً لعلك تقبل منها بعضها . فقال له رسول الله . قل يا أبا الوليد . قال ان أردت بالذى فعلت (مالا) جمعناه لك . أو (شرفا) سودناك علينا فلا نقطع أمراً دونك . وان كان يأتيك رؤيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه . قال أفرغت يا أبا الوليد . قال نعم فاسمعه آيات من سورة السجدة وسجد . فقام عتبة الى أصحابه بغير الوجه الذي ذهب به فقالوا له ما وراءك يا أبا الوليد قال ورأبى انى سمعت قولا ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة أطيعونى يا معشر قريش وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ قالوا (سحرك يا أبا الوليد) فقال لنجمع أشراف كل قبيلة عند ظهر الكعبة ونبعث اليه ففعلوا فجاءهم حتى جلس اليهم فقالوا انا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه الذى أدخلت الى آخر ماقال له عتبة فقال مابى ما تقولون . ماجئت بما جئت لأطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن بعثنى الله اليكم رسولا وانزل علىّ كتابا وأمرنى ان اكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فان تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وان تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم . فألجمهم بهذا الخطاب وأفحمهم بهذا الكلام

فعلت قريش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا ما فعله كفار كل زمان مع أنبيائهم فتطلعت لما هو اكبر كما هى العادة في شره العقول وأخذت تفكر وتقترح وتطالب أشياء قضت الحكمة الالهية بأن تكون مستحيلة فى ذاتها تطلب منه تسيير الجبال عن بلادها لتنبسط ثراها. وتسيير الأنهار فيها لتخصب أرضها. وتكلفه بان يأتي بملك معه من السماء فيصادقه على ما يقول. وتتهكم عليه بان يسقط عليهم كسفا من السماء أو يأتيهم بالملائكة قبيلا. أو تكون له جنات. وقصور. وكنوز من ذهب أو فضة تغنيه عما يبتغيه. فانصرف رسول الله الى قومه آسفا لما فاته مما كان يطمع فيه من طاعة قومه

ان الناظر في هذا الهذيان يحكم بان الذى منع العرب من الاقرار هو الهوى والحمية دون الجهل والحيرة لانهم يرون فى كل وقت ويسمعون فى كل حال من أحواله عجباً لم تجر به العادة أبداً وفيهم العقلاء وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل ومن يمكنه اصابة وجه الحق فى معرفة ذلك

تواتر الخبر بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي صلى الله عليه وسلم والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لابطال دعواه وتكذيبه فى الاخبار عن الله سبحانه وتعالى. فجاءهم رسول الله من الطريق الذى يشمخون فيه بأنوفهم ويتنافسون فيه بثمار عقلهم ونتائج فطنتهم وذكائهم ويدعون ان جميع الناس لهم في كل أبوابه تبع. الا وهو طريق البلاغة والفصاحة. جاءهم بالقرآن وفيهم الشاعر المفلق والخطيب المصقع وهم أحكم خلق الله لغة وأشدهم عدة والكلام سيد عملهم فدعا القريب والبعيد منهم لتوحيد الله وتصديق رسالته يحتج عليهم وعلى غيرهم بسورة من ذلك الكتاب

الذي لاريب فيه . ينذرهم بقتل عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبنى اعمامهم ويدعوهم صباح مساء أن يعارضوه إن كان كاذبا بسورة واحدة أو بآيات يسيرة منه

كيف يمكن لأحد سوى الله العليم الخبير أن يشترط فى التحدى الشرط الذى اشترط (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) ولو كان من عند غير الله لكان من غاية الظن عند من له شيء من العقل أن لا تخلو الارض من صاحب قوة مثله

عجزوا وكيف يصابون بالعجز ويرمون بالجبن مع كثرة كلامهم واستفحال لغتهم وسهولة ذلك عليهم ووفرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم ويرضون بالقتل المستمر فى أنفسهم وذوى قرابتهم وتسفيه أحلامهم ونفسيق معتقداتهم وكسر أصنامهم أما كان الأولى بهم أن يأتوه بسورة واحدة فينقضون قوله ويفسدون عليه أمره . ويسرعون في تفريق أتباعه عنه صونا للنفوس الشريفة المبذولة والخروج عن الاوطان العزيزة المحبوبة وانفاق الاموال الجزيلة . إن هذا لبعض ما يعرفه عامة الخلق فكيف بقريش التي لها من جليل التدبير وصدق الرأي والعقل ما ضربت به الامثال

ما هذا العجز الظاهر وقد احتاجوا لما عندهم من الكلام . والحاجة تبعث الحيلة فى الامر الغامض المفقود . فكيف بالظاهر الموجود محال أن يطيقوه ثلاثا وعشرين عاما على الغلط فى الامر الجايل . ومحال ان يتركوه وهم يعرفون ويجدون السبيل اليه وهم يبذلون أكثر منه

أى دايل على دعوي النبوة بعد هذا وأى برهان على صدقه صلى الله

عليه وسلم أشد من أن يروا يتيما فقيراً أمياً لا عون له ولا جاه وقد تربى بينهم وهو من أول نشأته وعقله متأثر بسماع ما يسمعه ممن يخالطهم منهم من حديث الوثنية فاذا به مبغض لها من مبـدأ عمره من قبـل أن يبلغ مبلغ الرجال . من قبل أن يكون لفكره ونظره فيها مجال من قبل ان يرجعـه عنها الدليل ويصرفه عن ضلالها البرهان ولا كتاب يرشـده ولا أستاذ ينبهه ثم يكون منه الذي كان

يرون رجلا منصرفا بطبيعة الحال عن مناصب الملك والسلطان متأبيا عنهما وقد عرضا عليه « ومقابلة القائل بذلك بالاعراض والاعتراض » خاليامن الجند والمال والجاه والعون ثم ينهض وحيداً فريداً داعياً للتوحيد والاعتقاد بالله وهو يعلم منهم قدر تعظيمهم لاوثانهم ومقدار تنطسهم في زندقتهم ومناوأتهم بمعبوداتهم أليس من فكر يفكر في هذه القوة التى سمت بنفسه الى أعلى عليين فجعلته داعيا مرشداً ولو كره الـكافرون

يرون داعيا أوذى بضروب الايذاء وأقيم فى وجهه مالا يذلل من الصعاب وعناية الله محيطة به ويرون المستجيبين له اخرجوا من ديارهم تسفك منهم الدماء ويفتنون وهم لا يفتنون

يرون عارفا بالله كما يجب ان يعرف مدركا من امر الدار الآخرة ماينبغي أن يدرك مع كمال في العقل ونور فى البصيرة فصل بهما اللذائذ والآلام في هذه الدنيا وطرق الاجر والعقاب عليهما وجعل للانسان شعوراً بيوم بعد يومه هذا وكل هذا الضرب من الـكلام بعيد عن التخيل والفكر ولا بد له من هدى الهي وفتوق في البصر والبصيرة يؤديان الى مشاهدة قدرة الله وآياته فى هذه الامور الغامضة عن العقول الساذجة

يرون حكيما جاء لكل طائفة مزيلا للرجس القائم بها مخلصا لها من معارض الشرك المشتمل عليها يأمر الوثنيين بترك الاصنام والأوثان والمشبهة بالانصراف عن الاجسام والثانوية بالتوحيد والطبيعيين بالنظر الى ما وراء حجاب الطبيعة وأهل السيطرة بترك العقوق ليعلمهم أنهم لايتفاوتون عن كل نفس الا بما فضل الله من علم وفضيلة (ان اكرمكم عند الله اتقاكم)

يرون ناصحاً يأمرهم بصدق الحديث واداء الامانة والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم واحترام الدماء البشرية والاعراض والرحمة بالضعفاء وينهاهم عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة . ثم يرون انفسهم عباداً للاصنام (وهو يعبد الله) يأكلون الميتة (وهو بعيد عنها ويأتون الفواحش (وهو برىء منها) ويقطعون الارحام (ويصلها) ويسيؤن الجوار (ويحسنه) ويسبون النساء ويسلبون الاموال (وهو يأمر بالكف عنهما) فكأنهم كانوا من عماء الجهالة بحال لا يكادون يفرقون بها بين هاتين المنزلتين (الحق والباطل والحسن والقبيح) وهو بهذا الظهور عما هم عليه من صدق الاحلام (انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء)

ثم رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلوا بلدا (الحبشة) أصابوا به مأمنا وقراراً وان النجاشى أكرم من لجأ اليه منهم وان عمر ابن الخطاب أسلم واعز الله الاسلام باسلامه وهو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والاسلام أخذ يفشو في القبائل فاجتمعوا وائتمروا وتعاقدوا على بنى هاشم وبنى عبد المطلب

ان لاينا كحوهم. ولا يبايعوهم. ولا يكلموهم . ولا يجالسوهم وكتبوا الصحيفة ووضعوها فى الكعبة توكيدا لانفسهم وانحاز بنو هاشم وبنو عبد المطلب الى أبي طالب بن عبد المطلب فدخلوا معه في شعبه (الا أبالهب) وأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا حتى جهدوا لا يصل اليهم شيء الا سراً مستخفيا به من أراد صلتهم ورسول الله يدعو قومه ليلا ونهارا سرا وجهارا مناديا بأمر الله لا يتقى فيه أحداً من الناس وحال رجال الله بينه وبين ماأرادت قريش من البطش به وان همزوه أو استهزؤا به أو خاصموه نزل القرآن بأحداثهم وفيمن نصب لعدواته منهم

ثم كشف الله لنبيه عن أمر الصحيفة وان الله سلط الارضة عليها فلم تدع فيها اسما هو لله الا أثبتته ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان فقال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لابي طالب فقال : أربك اخبرك بهذا ؟ قال نعم . فخرج الى قريش فقال يامعشر قريش ان ابن أخي أخبرني بكذا وكذا (وذكر ماقاله له رسول الله صلى الله عليه وسلم) فهلموا الى صحيفتكم فان كانت كما قال ابن أخى فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عما فيها وان كان كاذبا دفعت اليكم ابن أخى فقال القوم رضينا وتعاقدوا على ذلك ثم نظروا فاذا هي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فزادهم ذلك شرا وصنع الرهط من قريش فى نقض الصحيفة ماصنعوا

ثم أسرى برسول الله ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى (وهو بيت المقدس ايلياء) فلما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بها عجبوا وقالوا له وما آية ذلك يامحمد فدلهم على أشياء فى الطريق وأمارات ظاهرة سألوا عنها فوجدوها كما قال ولكن أبى الله أن يصدقوه وهو صادق

أو يعلموا انه على الحق وانهم كاذبون

ثم أقام رسول الله على أمر الله محتسبا مؤديا الى قومه النصيحة على مايلقى منهم من التكذيب والايذاء والاستهزاء وقريش تتنقل معه فى طريق الاذي من باب الى باب وتتقلب من فكر الي فكر فمن المجاهرة بالعداوة والمكاشفة بالبغضاء الى النفاق والرياء ونيل منى النفس بالكيد والمداهنة باقية على مافيها من الظلم والعسف والقسوة والجور وضروب الشرور والاسواء شق عليها أن ترى مثل أبي بكر يقرأ القرآن ويبكي فما زالت به حتى ضيقت عليه مكة وأجلته عنها مهاجراً خوف الفتنة وقطعاً لذريعة انتشار الاسلام بين العرب

ثم ماتت خديجة وابو طالب فى عام واحد فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بموتهما ونالت قريش فيه من الاذي مالم تكن تطمع به فى حياة ابى طالب فخرج رسول الله وحده الى الطائف يلتمس النصرة من « ثقيف » فاما عمد الى سادتهم استهزؤ به وكذبوه فعاد الي مكة وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه وأصحابه مستضعفون وهو يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب يدعوهم الى الله ويخبرهم انه نبى مرسل فأتي « كندة » فى منازلهم فلم يقبلوه . و« بنى حنيفة » فدعاهم فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه رداً منهم . وأتى « بنى عامر » فاستهزؤا به

ثم كان الموسم الذي لقى فيه النفر من الانصار وعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم فبينما هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج وعرض عليهم الاسلام فآمنوا به وصدقوه لانهم وجدوه

موافقا لما أخبرهم به أهل الـكتاب والعلم من قومهـم وقدموا المدينة وذكروا القومهم مارأوه ودعوهم الى الاسلام وفشا فيهم ولم يبق دار من دور الانصار الا وفيه ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان العام المقبل فوافى الموسم من الانصار اثناعشر رجلا وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث معهم مصعب بن عمير يعلمهم الاسلام ويتلو عليهم القرآن

ثم تواعدوا مع رسول الله فلما كانت الليلة المعروفة وقد مضى ثلث الليـل خرجوا من رحالهم لميعاده يتسللون تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعوا في الشعب عنـد العقبة وهم ثلاثة وسبعون رجلا وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه العباس فبعد أن تكلم وتـكلموا فى ان يحموه حمايتهم لنسائهم وابنائهم وما هم بخاذليه ولا مسلميه ابدا اخرجوا منهم اثنى عشر رجلا سماهم رسول الله نقباء وقال لهم انتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وانا كفيل على قومى (يعنى المسلمين) قالوا نعم

ثم عرفت جلة قريش بالامر وتنطست ووجـدت الخبر كما ظنت فخرجت فى طلب القوم فأدركت سعد بن عبادة والمنذر بن عمر وكلاهما كان نقيبا فأما المنذر فأعجز القوم وأما سعد فأخذوه الى أن دخلوا به مكة يضربونه حتى استجار برجلين فأجاراه فانطلق ولحق القوم فلما قدموا المدينة أظهروا الاسلام وفى قومهم بقايا من سادات بنى سلمة وشريف من اشرافهم وكان اتخذ فى داره صنما من خشب فما زالوا به حتى كسره واسلم

علمت قريش بشيعة رسول الله وانصاره وادركت انه مجمع على اللحاق

بهم وتحققت ان أصحابه من المهاجرين سبقوه فاجتمعت فى دار الندوة تتشاور فى ما تصنع فقالت نحبسه ولا نخرجه ثم اتفقت على ان يقوم من كل قبيلة فتي شاب جلد فيقتلونه جميعا ليتفرق دمه فى القبائل ولا يقدر بنو عبد مناف على حرب جميعهم

أوحى الله الى النبى صلى الله عليه وسلم بكيدهم هذا فأمر على بن أبى طالب أن ينام على فراشه ويتوشح ببرده ثم خرج وأرصدهم على باب منزله فطمس الله على أبصارهم فوضع على رؤوسهم ترابا وأقاموا طول ليلهم فلما أصبحوا خرج عليهم « على » وعلموا ان النبى صلى الله عليه وسلم نجا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج مهاجراً من خوخة فى دار أبي بكر

تعددت معجزاته في هذه الهجرة فمنها انه هو وأبو بكر دخلا الغار الذى فى جبل ثور بأسفل مكة فلما فقدته قريش اتبعته ومعها القائف فوقف عند الغار وقال هنا انقطع الاثر واذ بنسيج من العنكبوت على فم الغار فاطمأنوا لذلك ورجعوا ومنها ان سراقة اتبعهما ليردهما فلما رأياه دعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فساخت قوائم فرسه فى الارض فنادى بالامان وقال يا محمد ادع الله ان يخلصني ولك علىّ عهد ان أرد عنك الطلب فدعا له فخلص (فعل ذلك معه مرتين أو ثلاثا) فلما أراد ان يعود قال له رسول الله كيف بك ياسراقة اذا سورت بسوارى كسرى قال كسرى ابن هرمز قال نعم[1]

---

(١) قال في أسد الغابة فى ترجمة سراقة فلما أتى عمر بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة وألبسه اياها وقال له ارفع يديك وقل الله اكبر الحمد لله الذي سلبها كسرى وألبسها سراقة

ومنها أنه لما وصل المدينة مرَّ بدور لبنى سالم وبنى بياضة وبني ساعدة وبنى حارثة . وكلما مر بدار لاحد من هؤلاء تلقاه رجال منها يرغبون أن يقيم عندهم وتبادروا خطام الناقة اغتناماً لبركته فما زالوا يتبادرون والنبى صلى الله عليه وسلم يقول لهم خلوا سبيلها فانها مأمورة حتى أتت دار بنى مالك بن النجار فبركت حيث مسجد الرسول اليوم . ثم بقى على ظهرها ولم ينزل فقامت ومشت غير بعيد ولم يثنها ثم التفتت الى مكانها الاول فبركت واستقرت ونزل رسول الله وحمل أبو أيوب رحله الى داره فاشترى المربد من بنى النجار بعد أن وهبوه اياه فأبى قبوله وبنى المسجد باللبن وعضادتيه الحجارة وسواريه جذوع النخل وسقفه الجريد وبنى فيه المسلمون بغير أجر لوجه الله

ثم وادع اليهود بكتاب صلح شرط لهم فيه مالهم وعليهم . وآخى بين المهاجرين والانصار . بين جعفر بن أبى طالب وهو بالحبشة ومعاذ بن جبل وبين أبى بكر الصديق وخارجة . وبين عمر بن الخطاب وعثمان بن مالك حتى آخى بين خمسة عشر من المهاجرين ومثلهم من الانصار

ثم فرضت الزكاة فاستلت ضغائن أهل الفاقة بما فرض لهم في أموال الاغنياء وتخلصت الصدور من الاحقاد وأشعرت بالمحبة وأصبحت تساق بعامل الرحمة لرحمة أولئك البائسين وأصبح الغنى مدافعاً عن نفس الفقير والقوى آخذاً بيد الضعيف

ابتدأت الغزوات في شهر صفر بعد مقدم النبى صلى الله عليه وسلم خرج الى غزوة (الابواء) في مائتين من أصحابه يريد قريشاً و (بواط) لما بلغه أن عيراً لقريش ذاهبة الى مكة ثم غزوة (العشيرة) غازيا لقريش

و (بدر الاولى) وفى كل ذلك لم يلق حربا . وبعث فيما بينها بعوثا فمنها (بعث حمزة) و (بعث عبيدة بن الحرث) متقاربين حتى اختلف في أيهما كان الاول الا أنها أول راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولم يكن بينها وبين المشركين قتال) و (بعث سعد بن أبي وقاص) و (بعث عبد الله ابن جحش) وكتب له كتابا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين (١) فلما قرأ الكتاب وجد فيه أن ينزل نخله بين مكة والطائف ولا يستكره أحداً فمضوا كلهم وضل لسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعير فتخلفا فى طلبه فمرت بهم عير لقريش تحمل تجارة وذلك آخر يوم من رجب فتحرج بعض المسلمين الشهر الحرام ثم اتفقوا . وقتل عمرو بن الحضرمى وأسر عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان وقدموا بالعير والاسيرين فأنكر النبي صلى الله عليه وسلم فعلهم ذلك فى الشهر الحرام وما سرى عنهم حتى أنزل الله (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به) فقبض النبى صلى الله عليه وسلم الخمس وقسم الغنيمة وقبل الفداء في الاسيرين وأسلم الحكم بن كيسان ورجع سعد وعتبة سالمين الى المدينة وهذه أول غنيمة غنمت فى الاسلام وأول غنيمة خمست

ثم صرفت القبلة عن بيت المقدس على رأس سبعة عشر شهراً من مقدمه المدينة وخطب بذلك على المنبر وسمعه بعض الانصار ونزلت آية (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب) . كان من قوة دهاء العقل وأصالة الحكم أن تسر

---

(١) كتمان الاوامر وفتحها بعد حركة الجند من مراكزها أو الاساطيل من الثغور مما يعد من محاسن السياسة الاوروباوية الغامضة

جماعة المشركين ذلك في نفسها فلا تتقدم له بالسؤال عن صرف القبلة ولا تسمع منه ذلك الجواب الذى لقنه به بارئه لان فى سكوتها تكذيبه و بطلان حجته وهم بذلك مغرمون اليه مضطرون وفى السؤال عنه تصديق لخبره فى اظهار سر القهر الالهى المحيط بهم الملجيء لهم على السؤال ولو كان في ذلك تسجيل لوصف السفاهة عليهم ولكنهم فعلوه لان الخبر السماوىّ والوعد النبوى لا يتخلفان قطعا

هاج مقتل عمرو نفوس قريش وشعر كل طرف بيوم بعد يومه فأقام رسول الله بالمدينة الى رمضان من السنة الثانية ثم بلغه أن عيراً لقريش فيها أموال مقبلة من الشام الي مكة معها ثلاثون او اربعون رجلا (عميدهم ابو سفيان) فندب عليه السلام المسلمين الى هذه العير وامر بخروج كل من له ظهر حاضر ولم يحتفل فى الحشد لانه لم يظن قتالا

اتصل خروجه بأبي سفيان فاستنفر اهل مكة لعيرهم فنفروا وبعث رسول الله من يتحسس اخبار ابي سفيان وعلم ان القوم صاروا بين التسعمائة والالف فاستشار الاصحاب من المهاجرين والانصار فقالوا وأحسنوا. قالوا (لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك)

عرف اهل قريش بمقدم المسلمين ايضا ولكنهم مع كثرتهم هذه اصبحوا لا يشتدون على مقاومتهم كانما اصاب مكان الوجدان من قلوبهم شيء ولم يكف ابو سفيان انه تنكب بالعير الى طريق الساحل ونجا بل جد فى حمل الناس على مذهبه فقال (ما بالنا لا نرجع وقد نجونا بالعير) ورجع الاخنس بن شريق بجميع بنى زهرة وكان مطاعا فيهم وقال (انا خرجنا لنمنع اموالنا وقد نجت فارجعوا) فرجعوا ولم يشهد بدراً من قريش عدوى ولا زهرى

ربما كان للقوم بنجاة العير مقنع ولكن شدد أبو جهل وصار يستصرخ العرب ويهيج عواطف إحساساتهم يقول (لا نرجع حتى نرد ماء بدر ونقيم به ثلاثاً وتهابنا العرب)

سبقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ماء بدر وثبطهم عنه مطر نزل وبله مما يليهم وأصاب مما يلي المسلمين دهس الوادي وأعانهم على السير ثم نزل حيث اشار الحباب بن المنذر وبنوا حوضا فملؤه ثم بنوا له عريشا يكون فيه رسول الله ومشى يريهم مصارع القوم واحداً واحداً وكان اصحاب رسول الله ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا فيهم فارسان الزبير والمقداد

توافقت الفئتان وعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف ورجع الى العريش وأقبلت قريش بخيلائها وفخرها فلما رآها قال (اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني اللهم احنهم الغداة)

ما زال الكلام يستوثق الناس على الشر (وان الحرب اولها الكلام) حتى قام عامر وصرخ واعمراه واعمراه فحميت الحرب ونادت الرجال على الرجال والنبي يدعو ويلح ويقول في دعائه (اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد في الارض اللهم انجز لي ما وعدتني ثم أخفق (١) ثم انتبه فقال (ابشر يا أبا بكر قد أتى نصر الله) ثم خرج يحرض الناس ورمى في وجوه القوم بحفنة من حصى وهو يقول (شاهت الوجوه) ثم تزاحفوا وجال القوم جولة هزم المشركون فيها وقتل منهم يومئذ سبعون رجلا فيهم نحو العشرين من مشاهيرهم وأسر نحواً من عشرين رجلا من كبرائهم كما هو مذكور تفصيله

(١) أخفق فلان حرك رأسه من نعاس

فى كتب السير واستشهد من المسلمين ثمانية خمس من المهاجرين وواحد من الانصار وواحد من الأوس وواحد من الخزرج . وانجلت الحرب وقسمت الغنائم كما أمر الله . ورجع رسول الله الى المدينة ودخلها لثمان بقين من رمضان

حملهم على حظهم بالسيف فنصب لهم الحرب ونصبوا له بعدان دعاهم بالحجة وقطع العذر وأزال الشبه وصار الذى يمنعهم من الاقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة كما قدمنا فأخذ السيف منهم ما أخذ

ثم افتدت قريش أكثر أسارى بدر . وأمر بقتل كعب بن الاشرف من أكابر اليهود وكان من المحرضين على رسول الله فقتله الاوس ثم وقعت غزوات لم يلق فيها رسول الله حربا وهى (غزوة الكدر) و (السويق) و (ذي أمر) و (بحران)

تظاهر اليهود بالحسد لما فتح الله على رسوله وعلى المسلمين وبغوا ونقضوا العهد وجاهروا بالكفر وقالوا واساؤا الرد ونبذوا العهد فانزل الله (واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء) فكانت (غزوة بنى قينقاع) سار اليهم رسول الله وكانوا في طرف المدينة في سبعمائة مقاتل منهم ثلاثمائة دارع فحصرهم عليه السلام خمس عشرة ليلة لا يكلم أحداً منهم حتى نزلوا على حكمه فأمر بهم ان يقتلوا فشفع فيهم عبدالله بن أبيّ بن سلول فحقن رسول الله دماءهم ثم أجلاهم وأخذ ما كان لهم من سلاح وضياع ولحقوا بخيبر وأخذ صلى الله عليه وسلم الخمس من الغنائم ثم انصرف الى المدينة وحضر الأضحى فصلي بالناس فى الصحراء وذبح بيده شاتين ويقال انهما أول أضحيته صلى الله عليه وسلم

وغنمت سرية زيد بن حارثة وظفرت بالعير والمال وأتت بفرات بن

حيان العجلي أسيراً فتعوذ بالاسلام وأسلم وكان خمس هذه الغنيمة عشرين ألفا

ثم استأذن الخزرج فى قتل (ابن أبى الحقيق) وكان نظير ابن الاشرف الذى قتله الاوس في الكفر والعداوة فأذن لهم فقتلوه في داره بخيبر وما زال الاوس والخزرج يتصاولان تصاول الفحلين فى طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والذب عنه والنيل من أعدائه لا يفعل أحد القبيلتين شيئا من ذلك الا فعل الآخرون مثله

ثم كانت غزوة «أحد» وكان الذى أهاجها وقعة «بدر» فقد مشى كثير ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم واخوانهم بها فكلموا أبا سفيان ومن كان له فى تلك العير تجارة وسألوهم ان يعينوهم على حرب رسول الله ليدركوا الثار

اجتمعت قريش بأحابيشها (١) ومن أطاعها من قبائل كنانة وتهامة . وكان أبو سفيان قائد الناس والنساء بالدفوف يبكين قتلى بدر ويحرضن بذلك المشركين فلما علم بذلك رسول الله أشار على اصحابه بان يتحصنوا بالمدينة ولا يخرجوا وان جاؤا قاتلوهم على أفواه الازقة وألح قوم من فضلاء المسلمين فلبس لامته وخرج وقال آخرون يارسول الله ان شئت فاقعد . فقال ماينبغى لنبي اذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل وخرج في الف من اصحابه فلما كانوا بين المدينة و «أحد» عاد عبدالله بن أبيّ بثلث الناس وكان من تبعة أهل النفاق وبقى رسول الله فى سبعمائة فيهم خمسون راميا فساروا حتى نزل الشعب من «أحد» وجعل ظهره وعسكره اليه والمشركون ثلاثة آلاف منهم سبعمائة دارع وفي المسلمين مائة وفرسان فرس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفرس لابى بردة . وقاتل

---

(١) أحابيش قريش جماعة تحالفوا بالله انهم ليد على غيرهم وهم من جبل بأسفل مكة اسمه حبشى بالضم

المسلمون واشتد القتال وانهزمت قريش أولا ثم خلت الرماة عن مراكزهم وكر المشركون كرة وقد فقدوا متابعة الرماة فانكشفوا واستشهد منهم من أكرمه الله ووصل العدو الى رسول الله وقاتل دونه مصعب بن عمير حامل الراية فقتل . وجرح رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى بحجر وشقت شفته وكلم في وجنته ووجهه في أصول شعره وعلاه ابن قمئة بالسيف وهشمت البيضة في رأسه وأكبت الحجارة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سقط في بعض حفر هناك فأخذ «علي» بيده واحتضنه طلحة حتى قام ومص الدم من جرحه مالك بن سنان الخدرى ونشبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه صلى الله عليه وسلم فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح فبذرت ثنيتاه وكر دون رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من المسلمين فقتلوا كلهم آخرهم عمار بن يزيد ثم قاتل طلحة حتى أجهض المشركين وأبو دجانة يلي النبي بظهره وتقع به النبلة فلا يتحرك . وانتهى النضر بن أنس الى جماعة وقد دهشوا وقالوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال فما تصنعون في الحياة بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه ثم استقبل الناس وقاتل حتى قتل وبه سبعون ضربة وجرح وقتل حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم

وهن المسلمون وظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل واذا كعب بن مالك الشاعر من بني سلمة يبشر الناس فاجتمع عليه المسلمون ونهضوا معه نحو الشعب ثم جاء بماء فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه ونهض فاستوى على صخرة من الجبل وكانت حانت الصلاة فصلى بهم قعودا وغفر الله للمنهزمين ونزلت آية (ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان) ثم صعد أبو سفيان الجبل وأطل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه

ونادى الحرب سجال يوم أحد ببدر وانصرف وهو يقول موعدكم العام القابل فقال عليه السلام قولوا له هو بيننا وبينكم ثم سار رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة والمشركون الى مكة

مثل المشركون فى هذه الواقعة بسيدنا حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم وكانت هند وصاحباتها قد جدعنه وبقرن عن كبده ولاكتها ولم تسغها فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم ذلك فى حمزة وأقبلت أخته صفية بنت عبد المطلب أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنها الزبير أن يردها لكيلا ترى ما بأخيها فلقيها وأعلمها فقالت (بلغنى انه مثل بأخى وذلك فى الله قليل فما أرضانا بما كان من ذلك لاحتسبن ولاصبرن) ثم أتته وصلت عليه واسترجعت وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم به فدفن

ان بعض هذا الصبر لما تضعف العزائم البشرية عن احتماله وتضيق الذرائع عن الوقوف عند حدوده ولكن الهدى هدى الله

ثم أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صبيحة يوم «أحد» بالخروج لطلب العدو وأنه لايخرج الا من حضر معه بالامس فخرج وخرجوا على مابهم من الجهد والنصب وصار عليه السلام متجلدا مرهبا للعدو حتى انتهى الى حمراء الاسد وأقام بها ثلاثا وبلغ أبا سفيان وكفار قريش ذلك وكانوا يرومون الرجوع الى المدينة ليستأصلوا المسلمين بزعمهم ففت ذلك فى اعضائهم وعادوا الى مكه

ما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال وأدركهم قصم الظهر وانبهار النفس بعد أن كانوا من الزعم بأنفسهم فى شأن أزيد مما يليق بالنفوس البشرية فقد مال المشركون بعد هذه الحروب الى الكذبة . والفرية . واعمال الخونة

فقدم على رسول الله صلى لله عليه وسلم في صفر تمام الثلاثة من الهجرة نفر وذكروا أن فيهم إسلاما ورغبوا أن يبعث فيهم من يفقههم فى الدين فبعث معهم ستة رجال من اصحابه حتى اذا كانوا قريبا من عسفان غدروا بهم ومنهم من قتل هناك ومنهم من حمل الى مكة وقتل صبرا وكذلك قتلوا بعث المنذر بن عمر من بنى ساعدة وهم اربعون من المسلمين وقيل سبعون طلب ملاعب الاسنة أبو براء عامر بن مالك أن يبعثهم النبى صلى الله عليه وسلم الى نجد فبعد أن تردد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو براء أنا لهم جار فسار وبعثوا حرام بن ملحان بكتاب النبى صلى الله عليه وسلم الى عامر بن الطفيل فقتله ولم ينظر فى كتابه واستعدى عليهم وقتلوهم عن آخرهم

ثم نهض رسول الله الى (غزوة بنى النضير) وأرادوا يؤذون رسول الله ويصعدون الى ظهر البيت رجلا ليلقى على النبى صخرة فأوحي الله اليه بما أراد به اليهود وتهيأ لحربهم فتحصنوا بالحصون فحاصرهم ست ليال وانتهت بالكف عن دمهم واجلائهم لخيبر بما حملت الأبل من الاموال الا السلاح ثم كانت (غزوة ذات الرقاع) و (عزوة بدر الموعد) التى خرج فيها رسول الله لميعاده واعتذر أبو سفيان بجدب العام و (غزوة دومة الجندل) ولم يلق المسلمون فى كلها حربا ووادع رسول الله صلى الله عليه وسلم عيينة بن حفص أن يرعى باراضى المدينة لان بلاده أجدبت وهذه أخصبت

ثم كانت عزوة الخندق وسببها خروج جماعة من اليهود الى مكة يحزبون الاحزاب ويحرضون على حرب رسول الله ويرغبون من اشرأب الى ذلك بالمال فاجابهم أهل مكة وخرجت قريش وقائدها أبو سفيان ابن حرب في ١٠٠٠٠ آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من كنانة وغيرهم.

فلما سمع رسول الله أمر بحفر الخندق وعمل فيه بيده والمسلمون معه وأقبلت الاحزاب ونزلوا بظاهر المدينة بجانب «احد» وخرج عليه السلام بالمسلمين والخندق بينه وبين القوم ونقضت بنو قريظة العهد وكانوا موادعين فعظم الامر واحيط بالمسلمين من كل جهة ودام الحصار شهراً ولم تكن حرب ثم بعد ان اشتد الحال اتى رجل اسمه نعيم بن مسعود بن عمار وقال يارسول الله انا اسلمت ولم يعلم بى قومى فمرنى بما تشاء فقال انما انت رجل واحد فخذل عنا ان استطعت فان الحرب خدعة فخرج يدبر فى امره فاتى بنى قريظة وكان صديقهم فنقم لهم فى قريش وغطفان وقال لهم (انهم ان لم يظفروا لحقوا ببلادهم وتركوكم ولا تقدرون على التحول عن بلدكم ولا طاقة لكم بمحمد واصحابه فاستوثقوا منهم برهن ابنائهم حتى يصابروا معكم) ثم اتى ابا سفيان فى قريش وقال (ان اليهود ندموا وراسلوا محمدا فى المواعدة على أن يسترهنوا ابناءكم ويدفعوهم اليه) ثم أتي غطفان وقال لهم مثل ما قال لقريش

دخل بين القوم من باب الاختلاف والمشاقة فيما اتفقوا عليه فارسل أبو سفيان وغطفان الى بني قريظة فى ليلة سبت يقول (انا لسنا بدار مقام فاعدوا للقتال) فاعتذر اليهود بالسبت وقالوا (ومع ذلك لا نقاتل حتى تعطونا ابناءكم فصدق القوم خبر «نعيم» وردوا اليهم (بالاباية من الرهن والحث على الخروج) فصدق أيضا بنو قريظة خبر «نعيم» وأبو القتال فكان هذا الكلام عند هبوب ريح التخالف من أعظم واكبر الاسباب التى تراجعت بها القلوب الى نقض العهود ولم يقف الحال عند ذلك بل أرسل الله على قريش وغطفان ريحاً عظيمة اكفأت قدورهم وآنيتهم وقلعت أبنيتهم وخيامهم فأصبح المسلمون

وقد ذهب الاحزاب . ثم نهض رسول الله الى (بنى قريظة) بعد صلاة الظهر من ذلك اليوم فأمر المسلمين ان لا يصلى احد العصر الا فى بنى قريظة وأعطى الراية على بن أبى طالب وبعد أن حاصرهم خمسا وعشرين ليلة ضربت اعناقهم وقسمت اموالهم وكانت خيل المسلمين يومئذ ستة وثلاثين فارساً

ثم كانت غزوة الغابة وذى قرد وكان سببها انه بعد قفول المسلمين الى المدينة بليال اغار عيينة بن حصن الفزاري في بنى عبد الله من غطفان على لقاح النبى صلى الله عليه وسلم بالغابة وكان فيها رجل من بنى غفار وامرأته فقتلوه وحملوا المراة ووقعت الصيحة بالمدينة وركب رسول الله فى أثرهم حتي ادركهم فكانت بينهم جولة قتل فيها من قتل ثم ولى المشركون منهزمين وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ماء يقال له (ذو قرد) فأقام عليه ليلة ويومها ونحر ناقة من لقاحه المسترجعة ثم قفل الى المدينة

أقام رسول الله الى شعبان من السنة السادسة وغزا (بنى المصطلق) من خزاعة لما بلغه من انهم مجتمعون له وقائدهم الحارث بن ضرار أبو جويرية أم المؤمنين فخرج اليهم ولقيهم بالمريسيع من مياههم فتزاحفوا وهزمهم الله .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السادسة وفى ذى القعدة منها معتمراً (عمرة الحديبية) واستفز الاعراب وساق الهدى وأحرم من المدينة ليعلم الناس انه لا يريد حربا وبلغ ذلك قريشا فاجمعوا على صده من البيت وقتاله دونه فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة بركت ناقته وقال الناس (خلأت) فقال ما خلأت وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل .

ثم جرت السفراء بين رسول الله وبين كفار قريش وقاضى رسول الله على امور . ينصرف عامه ذلك ويأتى من قابل معتمراً ويدخل مكة والسيوف فى القرب فيقيم بها ثلاثا ولا يزيد . يتصل الصلح عشرة أعوام يتداخل فيه الناس ويأمن بعضهم بعضاً . من هاجر من الكفار الى المسلمين من رجل أو امرأة يرد الى قومه . ومن ارتد من المسلمين لا يرد .

انبهم هذا الامر على المسلمين وكبر عليهم وتكلم فيه بعضهم شأننا فى عالم الشهادة وعدم اهتداء الافكار الى كشف الغائب من الامور الا بهدى واشراق مخصوص

اهتدي النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الصلح وعلم انه سبب لا من الناس وظهور الاسلام وان الله سيجعل فيه فرجا قريباً للمسلمين وهو أعلم بما علمه ربه

كتبت الصحيفة كما قالوا (ولم يذكر فيها رسول الله) ثم أتى أبو جندل ابن سهيل يرسف فى قيوده فرده رسول الله الى أبيه وأخبره ان الله سيجعل له فرجا وبينما هم يكتبون الكتاب عنه جاء ـ أيضاً سرية ما بين الثلاثين والاربعين يريدون الايقاع بالمسلمين فأعتقهم رسول الله واليهم ينسب العتيقيون

عظم هذا الامر على المسلمين من كل وجه حتى أنهم أغضبوا النبى صلى الله عليه وسلم في عدم متابعته أولا عند ما أمر بالحلق والنحر ثم نحر فتابعوه ورجع رسول الله الى المدينة معهم

مافتح الله بفتح قبل هذا أعظم منه أبداً . كان القتال سداً فى وجوه القوم فلا تلتقى الناس دونه ثم كانت هذه الهدنة والناس على شوق من ان يأخذوا لانفسهم بالأحوط فما بشروا باطلاق هذه الهدنة وأمن الناس

بعضهم بعضاً حتي التقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالاسلام أحداً أو يرشده اليه الآ دخل فيه فلقد دخل فى تينك السنتين في الاسلام مثلما كان قبل ذلك واكثر

واعجب منه رد (من يهاجر من الكفار الى قومه) (ومن ارتد من المسلمين لا يرد) خفي عليهم أيضاً أمره ولم يدركوا ان رد المسلم المهاجر الى العرب داع لانتشار الدين بينهم لأنه مسلم لا يزايل قلبه الاسلام أبداً . ومانع للنظر فى مكنون أسرار المرتد من المسلمين ليعلم ماهو عليه وهو بعيد عن محابس الخشية . خالص من قيود الاوامر والنواهى فيعلم الناس المنافقين ويعلم النبي من ينصره بالغيب

ثم بعث النبي صلى الله عليه وسلم رجالا من أصحابه الى ملوك العرب وسلاطين العجم فبعث سليط بن عمر الى صاحب اليمامة . والعلاء بن الحضرمى الى صاحب البحرين . وعمرو بن العاصى الى صاحب عمان . وحاطب بن أبي بلتعة . الى صاحب الاسكندرية . وشجاع بن وهب الى صاحب دمشق . وعمر بن أمية الضمري الى النجاشى

وكتب الى كسرى فلما قرأ الكتاب مزقه استكباراً فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم فقال اللهم مزق ملكه كل ممزق (وكان ذلك) ففد جزأ الله أصله وقطع دابره لان كل ملك أخرج من معظم ملكه يقيم على بقية منه ولكن الاسلام لم يترك لهذا الملك ملكا تناله الحوافر والاقدام الا أزاله عنه . ثم كتب كسرى الى « باذان » عامله على اليمن يأمره بأن يبعث الى النبى رجلين جلدين من عنده يأتيان به فبعث اليه بقهرمانه وآخر معه فلما قدما على النبي صلى الله عليه وسلم جاءه الوحي بأن الله سلط على كسري ابنه شيرويه فقتله

ليلة كذا من شهر كذا فأخبرهما وقال لهما (ان ديني وسلطاني يبلغ ما بلغ ملك كسرى) فانصرفا وأخبرا «باذان» الخبر ولم ينشب «باذان» ان جاءه كتاب شيرويه بقتل كسرى وهكذا دعواته المستجابة حين ما لقى من شدة أذى العرب وتكذيبهم اياه واستعانتهم عليه بالاموال والرجال دعا الله عز وجل أن يجدب بلادهم وأن يدخل الفقر بيوتهم فقال صلى الله عليه وسلم اللهم سنين كسنى يوسف اللهم اشدد وطأتك على مضر . فامسك الله عز وجل المطر عنهم حتى مات الشجر وذهب الثمر وقلت المزارع . حتي اذا بلغت الحجة مبلغها وانتهت الموعظة منتهاها عاد بفضله فسأل ربه الخصب وادرار الغيث فأتاهم منه ماهدم بيوتهم ومنعهم حوائجهم فكلموه فى ذلك فقال اللهم حوالينا ولا علينا فأمطر الله عز وجل ماحولهم وامسك عنهم

ثم خرج النبى صلى الله عليه وسلم غازيا الى خيبر وحال الله بين غطفان وبين يهود خيبر برعب قذفه في قلوبهم فاقعدهم فى مكانهم بعد ان كانوا أرادوا مددهم وافتتح رسول الله حصون خيبر حصنا حصنا وبعض خيبر عنوة وبعضها وهو الاكثر صلحا على الجلاء فقسمها رسول الله وأقر اليهود أن يعملوها بأموالهم وأنفسهم ولهم النصف فى كل ماتخرج

وفى هذه الغزوة أهدت اليهودية زينب بنت الحرث امرأة سلام الي النبى صلى الله عليه وسلم شاة مصلية وجعلت السم فى الذراع منها وكان أحب اللحم اليه فتناوله ولاك منه مضغة ثم لفظها وقال ان هذا العظم يخبرنى انه مسموم وأكل معه بشر بن البراء بن معرور وازدرد لقمة فمات منها ثم اعترفت اليهودية ودفعت لأولياء دم بشر فقتلوها

ثم قدمت مهاجرة الحبشة الى مكة وهاجروا منها الى المدينة وفيهم

جعفر بن أبي طالب وكان يوم فتح خيبر فقبل ما بين عينيه والتزمه وقال ماأدرى بأيهما انا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر

اتصل شأن أهل خيبر بأهل فدك فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الامان على ان يتركوا الاموال فأجابهم الى ذلك فكانت خالصة لرسول الله مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فلم يقسمها ووضعها حيث أمره الله ثم افتتح وادى القرى عنوة وقسمها ورحل الي المدينة

أقام رسول الله صلى الله وسلم بعد خيبر الى انقضاء شوال من السنة السابعة ثم خرج في ذى القعدة لقضاء العمرة التى عاهدته عليها قريش يوم الحديبية وعقد لها الصلح وخرج ملأ من قريش عن مكة عداوة لله ورسوله وكرها في لقائه فقضى عمرته وتمت الثلاث التى عاهدته قريش على المقام بها وأوصوا اليه بالخروج وأعجلوه

أمضى عهده صلى الله عليه وسلم وخرج وأقام بعد منصرفه من هذه العمرة الى جمادى الاولى من السنة الثامنة ثم بعث الامراء الي الشام وأمر على الجيش وكان نحوا من ثلاثة آلاف مولاه (زيد بن حارثة) وقال وان أصابه قدر فالامير (جعفر بن أبي طالب) فان أصابه قدر فالامير (عبدالله ابن رواحة) فان أصيب فليرتض المسلمون برجل من بينهم يجعلونه أميراً عليهم وشيعهم صلى الله عليه وسلم

هذه الغزوة هى الى مثلت المساواة بين أفراد الصحابة في الشجاعة وكادت أن ترفع من بينهم الامتياز (الا بما فضل الله) فقد ظهر الكل فى معرض الشجاعة متجردين عن حب الحياة الدنيا غير غافلين عن شأن الله بهم فأقاموا الدين وما تفرقوا فيه شيئا

انتهى هذا الجيش الى معان من أرض الشام فأتاهم الخبر بان هرقل ملك الروم قد نزل بارض البلقاء في ١٠٠٠٠٠ فارس من الروم و ١٠٠٠٠٠ فارس من نصارى العرب من لخم وجذام وغيرهم فأقام المسلمون في معان ليلتين يتشاورون في الكتب الى رسول الله صلي الله عليه وسلم وانتظار أمره ومدده . ثم قال لهم عبد بن رواحة : أنتم انما خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة الا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به . فانطلقوا الى جموع هرقل ورتبوا الميمنة والميسرة واقتتلوا فقتل (زيد بن حارثة) ملاقيا بصدره الرماح والراية في يده فأخذها (جعفر بن أبي طالب فعقر فرسه ثم قاتل حتى قطعت يمينه فأخذها بيساره فقطعت كذلك وكان ابن ثلاث وثلاثين سنة فاخذها (عبد الله بن رواحة) وتردد عن النزول بعض الشيء ثم صمم الى العدو فقاتل حتى قتل فاخذ الراية ثابت بن أقرم من بني العجلان وناولها (لخالد بن الوليد) فانحاز بالمسلمين وقد استشهد منهم مايزيد على العشرة أكرمهم الله بالشهادة

أنظر لهذه الحجج والقوارع العظمى ونداء العناية العليا من الجبروت الاعلى واعجب لهذه الشجاعة التي وسعت كل شيء من القوى ولتلك المعجزات الباهرة انذر النبي صلى الله عليه وسلم بأصابة وقتل هؤلاء الامراء قبل يومهم هذا بما فيه مقنع لمن وهبه الله صحة العقل

كان اشتغال العرب بهذه الحروب شغلا شاغلا لهم نسوا به دماء بينهم فلما وقع صلح الحديبية أمن الناس بعضهم بعضا وفرغوا من مشاغل الحروب وحلوا الاغلال التى كانت أخذت بأيديهم ومالوا الادراك الثار

وكان من الدماء المسفوكة التي لم يتم فيها التنازع والتجالد دم بين بني بكر

وخزاعة مضت عليه الازمنة والأعصار حتى جاء الاسلام ودخلت خزاعة فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ودخلت بكر في عهد قريش فى صلح الحديبية

أراد الله أن يلوح من خلال هذا الظلم القديم نور فتح جديد مبين فقام رجل من بكر ينشد هجاء النبى صلى الله عليه وسلم فسمعه رجل من خزاعة فشجه فهاج الشر بينهم وانتقض العهد الذى بين قريش وبين النبي صلى الله عليه وسلم فقدم وفد من قومهم مستغيثين برسول الله صلي الله عليه وسلم مما أصابهم فأجاب صريخهم وأخبرهم ان أبا سفيان سيأتى يشد العقد و يزيد فى المدة ولكنه يرجع بغير حاجة وان الذى فعلته قريش ستندم عليه وسيكون ذلك سببا للفتح وكان ذلك جميعه

صدق الله رسوله وخرج أبو سفيان الى المدينة ليؤكد العقد ويزيد فى المدة فرجع بغير حاجة ثم أعلم رسول الله انه سائر الى مكة وأمر الناس بأن يتجهزوا ودعا الله ان يطمس الاخبار عن قريش وكتب اليهم حاطب بن بلتعة بالخبر مع ظعينة قاصدة الى مكة فأوحى الله اليه وبعث عليا والزبير والمقداد الى الظعينة فأدركوها فأخرجته من بين قرون رأسها

خرج رسول الله لعشر خلون من رمضان من السنة الثامنة فى ١٠٠٠٠ نفس من قبائل من سليم . وغفار ومزين وطوائف من قريش وأسد . وتميم . وغيرهم من سائر القبائل وقال اللهم خذ العيون والاخبار عن قريش حتي نبغتها فى بلادها فطوى الله أخباره عن قريش الا انهم يتوجسون الخيفة . قال العباس والله ان بغتها فى بلادها فدخل عنوة انه لهلاك قريش آخر الدهر وخشى تلاف قريش ان فاجاءهم الجيش قبل أن يستأمنوا

فركب العباس بغلة النبي صلى الله عليه وسلم وذهب يتحسس وكان أبو سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام يتحسسون الخبر أيضا فسمع العباس صوت أبو سفيان وبديل وقد أبصرا نيران العسكر فيقول بديل نيران بنى خزاعة فيقول أبو سفيان خزاعة أذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها فقال العباس هذا رسول الله فى المسلمين أتاكم في ١٠٠٠٠ نفس قال ما تأمرنى به قال تركب معى فاستأمن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فوالله ان ظفر بك ليضربن عنقك فردفه خلفه ونهض به الى المعسكر ومر بعمر رضى الله عنه فخرج يشتد الى رسول الله يقول الحمدلله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد (١) فسبقه العباس على البغلة ودخل هو على أثره فقال يارسول الله هذا عدو الله أبو سفيان أمكن الله منه بلا عهد فدعنى أضرب عنقه فقال العباس (قدأجرته) فزأر عمر فقال العباس لو كان من بنى عدى(٢ ولكنه من عبد مناف (٣) فقال عمر والله لاسلامك كان أحب الىّ من اسلام الخطاب لانى أعرف أنه عندرسول الله كذلك فأمر رسول الله العباس أن يحمله الى رحله ويأتين به صباحاً فلما أتى به قال له صلى الله عليه وسلم (ألم يأن لك أن تعلم أن لا اله الا الله) فقال (بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد علمت لو كان معه إله غيره أغنى عنا) قال (ويحك ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله) قال (بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه ففى النفس منها شىء) فقال له العباس ويحك أسلم قبل أن يضرب عنقك فأسلم. فقال العباس يا رسول الله (ان أباسفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً) قال نعم (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. ومن

---

(١) يريد انتقاض عهد الحديبية (٢) جد سيدنا عمر بن الخطاب (٣) يعنى جد نفسه

أغلق عليه بابه فهو آمن . ومن دخل المسجد فهو آمن) ثم أمر العباس أن يوقف أباسفيان بخطم الوادى ليرى جنود الله ففعل ذلك ومرت به القبائل قبيلة قبيلة الى أن جاء مركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المهاجرين والانصار عليهم الدروع البيض فقال من هؤلاء (فقال العباس) هذا رسول فى المهاجرين والانصار (فقال لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما) فقال يا أبا سفيان انها النبوة (فقال هى اذن . أوقال نعم اذن) ثم قال له التجئ الى قومك فأتى مكة وأخبرهم بما أحاط بهم وبقول النبى صلى الله عليه وسلم (من أتي المسجد فهو آمن . الخ)

ثم رتب النبى صلى الله عليه وسلم الجيش وكان على الميمنة خالدبن الوليد وعلى الميسرة الزبير وعلى المقدمة أبو عبيدة بن الجراح وسرب رسول الله صلى الله عليه وسلم الجيوش « من ذى طوى » وأمرهم بالدخول الى مكة « الزبير » من أعلاها « وخالد » من أسفلها وان يقاتلوا من تعرض لهم ولم يكن الا جولة وانهزم المشركون وكان الفتح لعشر بقين من رمضان وأهدر دم جماعة من المشركين يومئذ أتت على أسمائهم كتب السير

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد وطاف بالكعبة وأخذ المفتاح من عثمان بن طلحة بعد أن مانعت دونه أم عثمان ثم أسلمته فدخل الكعبة ومعه أسامة بن زيدو بلال وعثمان بن طلحة وأبقى له حجابة البيت [1] وأمر بكسر الصور داخل الكعبة وخارجها وبكسر الاصنام حواليها وأمر بلالا فأذن على ظهر الكعبة

ثم وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بباب الكعبة ثاني يوم الفتح

---

(١) وهى فى ولد شيبة الى اليوم

وخطب خطبته المعروفة ووضع مآثر الجاهلية الا سدانة البيت وسقاية الحاج وأخبر أن مكة لم تحل لاحد قبله ولا بعده وانما أحلت له ساعة من نهار ثم عادت لحرمتها بالامس ثم قال . لااله الاالله وحده لاشريك له صدق وعده وصدق عبده وهزم الاحزاب وحده ألا أن كل مأثورة أو دم أومال يدعى فى الجاهلية فهو تحت قدمى هاتين الا سدانة الكعبة وسقاية الحاج . ألا وان قتل الخطأ مثل العمد بالسوط والعصا فيهما الدية مغلظة منها أربعون في بطونها أولادها

يامعشر قريش . ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء الناس من آدم وآدم من تراب (يا أيها الناس انا خلقنا كم من ذكر وأنثى وجعلنا كم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير)

يا معشر قريش ويا أهل مكة ماترون انى فاعل فيكم قالوا خير أخ كريم ثم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء واعتقهم على الاسلام وجلس لهم فيما قيل على الصفا فبايعوه على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا وبايع النساء سيدنا عمر بن الخطاب

مثّل رسول الله صلى الله عليه وسلم بفعله هذا (الكمال) فى أبلغ صوره ومنتهى درجاته بمقابلته كفران أهل مكة باحسانه وانعامه . على ان الذى لاقاه عليه الصلاة والسلام منهم من أول دعوته لحد هذا الفتح مما لا يسعه حلم ولا يحيط به كرم ولكن رسول الله أشفق الناس على أمته . نام فى فؤاده الشريف حب انقاذ الهالكين وارشاد الضالين منهم ولو انهم كانوا من العناد بالمقدار الذى يبنوه أصحاب السير . قابلهم وهو فى أشد مظاهر القوة والعظمة بحلمه . وكرمه ولطفه واحسانه وعفا عنهم وكذا شيمته عليه الصلاة

والسلام وكنى بنعت الله له فى كتابه الكريم بقوله (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم)

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا خمسة عشر ليلة وهو يقصر الصلاة فبلغه ان هوازن وثقيف جمعوا له وهم عامدون الى مكة وقد نزلوا (حنينا) فبعث النبي يستعلم خبر القوم فجاءه الرسول وأطلعه على جلية الخبر وانهم قاصدون اليه فجهز رسول الله الجيش ومر به حتى أتى وادى حنين من أودية تهامة أول يوم من شوال من السنة الثامنة وهو وادى حزن فتوسطوه فى غبش الصبح وقد كمنت هوازن فى جانبيه فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد فولى المسلمون لا يلوى أحد على أحد وناداهم صلى الله عليه وسلم فلم يرجعوا وثبت معه أبو بكر وعمر وعلى والنبي على بغلته البيضاء والعباس آخذ بشكائمها فأمره رسول الله أن ينادى بالانصار وأصحاب الشجرة وبالمهاجرين وكان جهير الصوت فنادى فاقتحمت الناس الرواحل راجعين وقد اجتمع منهم حواليه نحو المائة فاستقبلوا «هوازن» والناس متلاحقون واشتدت الحرب وحمى الوطيس وقذف الله في قلوب «هوازن» الرعب حين وصلوا الى رسول الله فلم يملكوا أنفسهم فولوا منهزمين ولحق آخر الناس وأسرى هوازن مغلولة بين يديه وغنم المسلمون عيالهم وأموالهم واستحر القتل في بنى مالك وثقيف

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسبايا والاموال فحبست وسار من فوره الى الطائف فحاصر بها ثقيف خمس عشرة ليلة ورماهم بالمنجنيق.
ثم انصرف رسول الله بعد مادخل الطائف وجاءه وفد «هوازن» بالجعرانة وخيرهم بين العيال والابناء والاموال فاختاروا العيال والابناء ثم رد عليهم

نساءهم وابناءهم بأجمعهم وقسم الاموال بين المسلمين وأعطي قوما يستألفهم على الاسلام يسمون المؤلفة مذكورون فى كتب السير يقاربون الاربعين وجد الانصار فى أنفسهم من ذلك فتكلم شبابهم مع ما كانوا يظنون انه اذا فتح الله عليه بلده مكة يرجع الى قومه ويتركهم . فجمعهم ووعظهم وذكرهم وقال انما أعطى قوما حديثى عهد الاسلام أتألفهم عليه أما ترضون ان ينصرف الناس بالشاء والبعير وتنصرفون برسول الله الى رحالكم لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار . ولو سلك الانصار شعبا وسلك الناس شعبا لسلكت شعب الأنصار ففرحوا

اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجعرانة الى مكة ورجع الى المدينة واستعمل على مكة عتاب بن أسيد شابا ينيف على العشرين غلبه الورع والزهد وهو أول أمير أقام حج الاسلام وحج المشركون على مشاعرهم

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم الى شهر رجب من السنة التاسعة وأمر الناس أن يتهيأوا لغزو الروم وكان في غزواته كثيرا ما يورى بغير الجهة التى يقصدها على طريقة الحرب الا ما كان فى هذه الغزاة لعسرها بشدة الحرب وبعد البلاد وقلة الظلال وكثرة العدو الذين يصدون وتجهز الناس على ما فى انفسهم من استثقال ذلك والمنافقون لا يفتأون يثبطون الناس عن الغزو وتقدم كثير من المسلمين بالانفاق كسيدنا عثمان بن عفان فانه أنفق فيها ١٠٠٠٠ دينار وحمل على تسعمائة بعير ومائة فرس وجهز ركابا وجاء بعض المسلمين يستحملون النبى صلى الله عليه وسلم فلم يجد ما يحملهم عليه فنزلوا باكين لذلك . وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى الى تبوك فأتاه (صاحب آيله) و(أهل جرباء واذرعات) . فصالحوا على الجزية وكتب لكل كتابا وبعث

خالد بن الوليد فصالح صاحب (دومة الجندل) على الجزية أيضا . ثم أسلم عروة بن مسعود وجاء وفد ثقيف بعد ما ضيق عليهم مالك بن عوف واستباح رحمهم وقطع سابلهم فاسلموا وأمر عليهم عثمان بن أبي العاصي اصغرهم سناً لحرصه على الفقه وتعلم القرآن

ثم هدمت اللات والعزي : هدمها المغيرة بن شعبة وقام قومه من بنى شعيب دونه خوفا من أن يرمى بسهم وخرج نساء ثقيف حسرا يبكين عليها وجاء أبو سفيان فأخذ حليها ومالها وقضى منه دين عروة والأسود بن مسعود كما أمر رسول الله

كانت العرب تتربص بالاسلام أمر هذا الحى من قريش وأمر النبي صلى الله عليه وسلم ولان قريشا كانوا أمام الناس وهاديهم وأهل البيت والحرم وصريح ولد اسمعيل وقادتهم لا ينكرون لهم وكانت قريش هى التى نصبت لحربه وخلافه ولما استفتحت مكة ودانت قريش ودخلها الاسلام عرفت العرب انهم لا طاقة لهم بحربه و .داوته فدخلوا دينه أفواجا يضربون اليه من كل وجه مصداقا للخبر الالهى الذى لا يتخلف (اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله افواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا)

ضربت اليه وفود العرب حتى سميت هذه السنة (سنة الوفود) وجاءته الكتب والرسل تترى من الملوك (لحمير) و (ابن ذي يزن) وغيرهما باسلامهم ومفارقة الشرك وأهله . وكلما جاء وفد أكرمهم النبي صلى الله عليه وسلم وأرشدهم وعرفهم أمر دينهم وبشرهم بالخير وأمرهم به وشدد عليهم فى الظلم ونهاهم عنه وفهمهم وأخبرهم بالذى لهم وعليهم وكتب صلى الله عليه وسلم العهود والكتب

ثم خرج رسول الله الى حجة الوداع لموافقة الحج فيها عاشر الحجة [١] ومعه أشراف الناس وخطب بعرفة خطبته المشهورة التى بين للناس فيها ما بين قال عليه الصلاة والسلام

« أيها الناس اسمعوا لى فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هـذا بهذا الموقف أبداً

أيها الناس ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت فمن كان عنده أمانة فليؤدها الى من أئتمن عليها وان كان ربا فهو موضوع ولكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله ان لا ربا وان ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله وان كل دم فى الجاهلية موضوع كله . وان أول دم يوضع دم ربيعة بن الحرث بن

---

(١) كانت العرب تستعمل شهور الاهلة وكان حجهم وقت عاشر الحجة كما رسمه سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام فأدى الاختلاف بين شهور السنة الهلالية وبين فصول السنة الشمسية الى وقوع الحج فى وقت يصعب عليهم فيه السفر لعدم اعتدال الزمن وموافقته للادراك فاجتمعوا ونسؤا السنة شهراً فوقع فى السنة محرمان الاول رأس السنة والآخر فى النسىء فلما انتهت النوبة فى آخر أيام النبى صلى الله عليه وسلم الى وقوعه فى ذى الحجة وتم دور النسىء على جميع الشهو حج صلى الله عليه وسلم فى تلك السنة حجة الوداع لوقوعها فى عاشر ذى الحجة كما كانت وخطب وأمر الناس بما شاء الله أن يأمر ومن جملة ذلك قوله الا أن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والارض يعنى رجوع الحج الى الموضع الأول كما كان فى زمن سيدنا ابراهيم ثم تلا قوله تعالى (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله)

عبد المطلب[1] فهو أول ما ابدأ من دم الجاهلية

أيها الناس ان الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه رضى ان يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم

انما النسىء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله

ألا وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الفرد الذي بين جمادى وشعبان

أيها الناس فان لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقا لكم عليهن ان لا يواطئن فرشكم أحدا وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فان فعلن فان الله قد أذن لكم ان تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيرا انهن لا يملكن لانفسهن شيئا وانكم انما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولى فانى قد بلغت قولي وتركت فيكم ما ان استعصمتم به فلن تضلوا أبداً . كتاب الله وسنة نبيه

أيها الناس اسمعوا قولى واعلموا ان كل مسلم أخو المسلم وان المسلمين أخوة فلا يحل لامرئ من مال أخيه الا ما أعطاه إياه عن طيب نفس فلا تظلموا انفسكم

ألا هل بلغت اللهم اشهد »

---

(١) وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتله بنو هذيل

اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما قضى حجة الوداع فطارت الاخبار بذلك فوثب الاسود باليمن ووثب مسيلمة باليمامة وطلحة بن خويلد في بنى أسد يدعى كلهم بالنبوة وحاربهم رسول الله بالرسل والكتب الى عماله ومن ثبت على اسلامه من قومهم ان يجدوا فى جهادهم فأصيب الاسود قبل وفاته بيوم ولم يشغله ما كان فيه من الوجع عن أمر الله والذب عن دينه فبعث الى المسلمين من العرب فى كل ناحية من نواحى هؤلاء الكاذبين يأمرهم بجهادهم

ثم بدأ به المرض صلى الله عليه وسلم واول ذلك ان الله نعى نفسه الشريفة اليه بقوله (اذا جاء نصر الله والفتح) ثم بداه الوجع لليلتين بقيتا من صفر وتمادي به وجعه وهو على يدى نسائه حتى استقر به فى بيت ميمونة فاستأذن نساءه ان يمرض فى بيت عائشة فاذن له وخرج على الناس نخطبهم وتحلل منهم وصلى على شهداء أحد واستغفر لهم ثم قال (ان عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده) فهمها ابو بكر فبكى وقال بل نفديك بانفسنا وأبنائنا فقال على رسلك يا أبا بكر

جمع رسول الله أصحابه ودعا لهم كثيرا وأوصاهم بتقوى الله واوصى الله بهم واستخلفه عليهم وأودعهم اليه ثم سألوه عن مغسله • وكفنه . والصلاة عليه . وعمن يدخله القبر فقال لهم فى كل ذلك ثم أوصى بالانصار خيرا . وأمر بسد الأبواب التي فى المسجد الا باب أبي بكر وقال انى لا أعلم امرأ أفضل يداً عندى فى الصحبة من أبى بكر ولو كنت متخذا خليلا لتخذت أبا بكر خليلا ولكن صحبة اخاء وايمان حتى يجمعنا الله عنده

ثم ثقل به الوجع وجاء وقت الصلاة فقال مروا أبا بكر فليصل بالناس

فصلى ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم خفة فخرج فلما أحس أبو بكر تأخر فجذبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقامه مكانه وقرأ من حيث انتهى أبو بكر ثم كان أبو بكر يصلى بصلاته والناس بصلاة أبي بكر (صلوا كذلك عشر صلوات على المشهور) فلما كان يوم الاثنين وهو يوم وفاته خرج عليه السلام الى صلاة الصبح عاصبا رأسه وأبو بكر يصلى فنكص عن صلاته ورده عليه السلام بيده وصلى قاعدا على يمينه ثم أقبل على الناس بعد الصلاة يعظهم ويذكرهم ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاضطجع في حجرة عائشة وخرج أبو بكر الى السنح[1] قالت عائشة فثقل فى حجري فنظرت وجهه فاذا بصره قد شخص الى السماء وهو يقول الرفيق الاعلى فعلمت انه خير فاختار وذلك نصف النهار من يوم الاثنين لليلتين من شهر ربيع الاول

طار النعى فى الناس بموته فقامت رجال تزعم انه لم يمت وأدرك الخبر أبا بكر فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشف عن وجهه وقبله وقال (بابى أنت وأمى قد ذقت الموتة التى كتب الله عليك ولن يصيبك بعدها موتة أبداً) وخرج الى سيدنا عمر بن الخطاب وهو يتكلم فقال له أنصت فأبى فأقبل هو على الناس وتكلم فجاؤا اليه فقال (أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت) ثم تلا (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفأن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين) قال عمر فما هو الا أن سمعت أبا بكر يتلوها فوقعت على الارض ما تحملنى رجلاى وعرفت انه قد مات

---

(١) موضع قرب المدينة كان به مسكن أبى بكر

قام علي . وعباس وابناه الفضل . وقثم . واسامة بن زيد . يتولون تجهيز رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أوصى فغسله علي وعليه ثيابه مسنده الى ظهره والعباس وابناه يقلبونه معه واسامة وشقران يصبان الماء ثم كفنوه فى ثوبين صحاريين وبردجده أدرج فيهن ادراجا ودفن حيث قبض فرفع فراشه الذى قبض عليه وحفر له تحته ولحده أبو طلحة زيد بن سهل وكان يحفر لاهل المدينة ثم دخلت الناس فصلت عليه الرجال . ثم النساء . ثم الصبيان . ثم العبيد لا يؤمّ أحدهم أحد ثم دفن فى وسط الليل ليلة الاربعاء وقيل ليلة الثلاثاء وكانت ليلة ليلاء أظلمت بفقد الرسول وانقطاع الوحي واشترك النـاس كلهم فى العزاء فطاشت العقول وخرست الالسن وعمره ثلاث وستون أو خمس وستون صلوات الله عليه

﴿ شمائله صلى الله عليه وسلم ﴾

كان حسن الخلق . وسيما . قسيما . أبيض اللون مشربا بحمرة وكان وجهه أغر ظاهر الوضاءة يتلألأ . فيه تدوير ولم يكن بالطويل . ولا بالمطهم ولا بالمكلثم . واسع الجبين أزج الحواجب سوابغ في غير قرن . بينهما عرق يدره الغضب . أبلج الحاجبين كأن ما بينهما الفضة المخلصة . حاد البصر عظيم العينين أنجلهما . أدعجهما . أكحلهما . أسود الحدقة ممزوجة بحمرتها . أحمر المآقى . أهدب الاشفار حتى تكاد تلتبس من كثرتها . شارع الانف حسن الارنبة أقنى العرنين سهل الخدين . أسيلهما صلبهما . تام الاذنين ضليع الفم حسنه . أشنب الاسنان مفلج الثنايا براقها . اذا ضحك يتلألأ واذا تكلم رؤى كالنور يخرج من بين ثناياه . وكان أحسن الناس شفتين

وألطفهم ختم فم . حسن الصوت فى صوته صهل يبلغ حيث لا يبلغه صوت غيره واذا خطب اشتد غضبه وعلا صوته كانه منذر جيش. يقول صبحكم ومساكم . أحسن عباد الله عنقاً لا بالطويل ولا بالقصير كانه جيد دمية . أجمل الناس وأبهاهم من بعيد وأحسنهم من قريب . أجرد أزهر اللون أنور المتجرد . أحسن وجها . وألين الناس كفاً . وانور الناس لونا . يرى رضاؤه وغضبه فى وجهه لصفاء بشرته فكأن وجهه مرآة . لم يصفه واصف الا شبه وجهه بالقمر ليلة البدر . من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة احبه . يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله فخما مفخما حسن الجسم معتدل الخلق بادنا احسن الناس قواما لا يعدو لحم بعض بدنه بعضا . كالمرآة فى استوائها . وكالقمر في بياضه . اطول من المربوع واقصر من المشذب . عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين سواء البطن والصدر قوى الجسم . شديد البطش . عظيم الهامة . ضخم الكراديس . شثن الاصابع . شثن الكفين والقدمين . جليل المشاش والكتد . عبل الذراعين . عبل العضدين ضخم الزندين . طويلهما ضخم الفخذين والساقين . رحب الراحتين . سائل الاطراف منهوس الكعبين . مسيح القدمين . خمصان الاخمصين . احسن البشر قدما اذا التفت التفت جميعا . واذا مشى كانما يتقلع عن صخر وكانما ينحط من صبب يخطو تكفيا ويمشى هونا بغير تبختر . ما مشى مع احد الا طاله ذريع المشية يجهد اصحابه انفسهم وهو غير مكترث يمشى مجتمعا مشيا يعرف فيه انه ليس بعاجز ولا كسلان . ولا يلتفت وراءه ولا يعيا يقبل جميعا ويدبر جميعا اذا جاء مع القوم غمرهم يسوق اصحابه ويبدر من لقيه بالسلام كث اللحية حسن السبلة حسن الشعر رجله شديد سواده اذا

انفرقت عقيقته فرقها . جميل الوفرة . حسن اللمة . عظيم الجمة ولم يكن بالجعد القطط ولا بالسبط . كان جعداً رجلا . يترجل غبا . واذا مشط شعره يأتى كانه حبك رمل وربما جمله غدائر اربعا تخرج كل اذن من بين غديرتين وربما جعله على اذنيه فتبلغ سوالفه . اشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر فكان طويل المسربة دقيقها موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط لم يكن على بطنه ولا على ظهره شعر غيره

احسن الناس خلقا وأجود الناس صدراً واصدق الناس لهجة والين الناس عريكة واكرم الناس عشرة واطهر الناس طبعا واشجع الناس قلبا واسخى الناس كفا . واطيب الناس نفسا . اعرف الناس بالله واخشاهم لله واكثرهم صياما وقياما لا سيما في شهر رمضان حتى تورمت قدماه . اجود الناس بالخير لا يرد من سأله حاجة الا بها او بميسور من القول ولا يؤيس منه راجيه ولا يخيب فيه ولا يأتيه احد الا وعده وانجزله وان كان عنده اعطاه ولا يدخر شيئا لغد وما سئل شيئا قط فقال لا . لم يكن بالجافى ولا المهين وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء وكان يعظم النعمة وان دقت . لا يذم منها شيئاً . لا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها فاذا تعدّى[1] الحق لم يقم لغضبه شىء حتى ينتصر له يغضب لربه عز وجل ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها واذا غضب أعرض وأشاح واذا فرح غض طرفه واذا رأى شيئاً يكرهه عرف فى وجهه وكان أشد حياء من العذراء في خدرها . كان من أفكه الناس لا يحدث حديثا الا تبسما قليل الضحك جل ضحكه التبسم . اذا افتر ضاحكا يفتر عن مثل سنا البرق اذا تلألأ . وعن مثل

(١) تعدى بضم التاء مبنى للمجهول

حب الغمام . كان بكاؤه من جنس ضحكه لم يكن بتشهيق ورفع صوت كما لم يكن ضحكه بقهقهة ولكن تدمع عيناه حتى تنهملان فيسمع لصدره أزيز يبكى رحمة لميت أو خوفا على أمته وشفقة ومن خشية الله وعند سماع القرآن وأحيانا فى صلاة الليل واذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه وخفض بها صوته وما تثائب قط وكان يكرهه من غيره . دائم البشر . سهل الخلق. لين الجانب دائم الفكرة . متواصل الاحزان. طويل السكوت لا يتكلم فى غير حاجة. ويعرض عمن تكلم بغير جميل . ويكني عن الامور المستقبحة في العرف اذا اضطره الكلام الى ذكرها . ويخزن لسانه الا في ما يعنيه . ان صمت فعليه الوقار وان تكلم سماه وعلاه البهاء يذكر الله بين كل خطوتين ولا يقوم ولا يجلس الا على ذكر الله تعالى يفتتح الكلام ويختتمه باسم الله تعالى. حلو المنطق . فى كلامه ترتيل . يتكلم بجوامع الكلم . كلامه فصل لا نزر ولا هذر . بين يحفظه من جلس ويفهمه كل من سمعه . كانما هو خرزات نظمن لا فضول فيه ولا تقصير لو عده العاد لاحصاه. لا يذم أحدا ولا يعيبه. ولا يطلب عورته ولا يتكلم الا فيما رجى ثوابه مجلسه مجلس حلم وحياء وامانة وصبر لا ترفع فيه الاصوات ولا تأبن فيه الحرم . اذا تكلم أطرق جلساؤه كانما على رؤسهم الطير . فاذا سكت تكلموا لا يتنازعون عنده. حديثهم عنده حديث أولهم ان قال أنصتوا لقوله وان أمر تبادروا لامره يضحك مما يضحكون . ويتعجب مما يتعجبون . يعطى كل جلسائه نصيبه ولا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه وكان يصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسئلته من جالسه أو فاوضه فى حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه . لا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام . خافض الطرف جل نظره الملاحظة .

نظره الى الارض أطول من نظره الى السماء . تنام عيناه ولا ينام قلبه . يؤثر أهل الفضل باذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين ويؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كل كريم قوم ويوليه عليهم . وكان يحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن احد منهم بشره وخلقه يتغافل عما لا يشتهى ولا يكاد يواجه أحدا بشيء يكرهه وما ضرب بيده شيئا قط الا انه يجاهد فى سبيل الله ولا ضرب امرأة ولا خادما . يتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس ويحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويوهيه . افضل الناس عنده اعمهم نصيحة . واعظم الناس عنده منزلة احسنهم مواساة وموازرة يرفد صاحب الحاجة. لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه . لا يقبل الثناء إلا من مكافىء

يزور ضعفاء المسلمين و يعود مرضاهم ويشهد جنائزهم . ما أكل على خوان ولا فى سكرجة ولا خبز له مرقق . وكان يجيب دعوة المملوك على خبز الشعير . يمر بالصبيان فيسلم عليهم . ولا يدفع عنه الناس ولا يضربون عنه ولم يكن شخص احب اليهم منه . وكانوا اذا راوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك واذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس

﴿ كلمات من حكم رسول الله ﴾

انى تستقصى الأنفاس الشريفة وتحصى الحكم المنيفة ورسول الله صلى الله عليه وسلم من اذعنت لبلاغة حكمه العرب والعجم وقصرت عن مقاومته جميع الامم واقر بالعجز عن منازعته من تأخر وتقدم وانما هى كلمات على سبيل البركة والاعتبار والله يهدى لنوره من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا

قال عليه السلام

رحم الله عبدا قال فغنم. اوسكت فسلم. السعيد من وعظ بغيره. والشقي من وعظ بنفسه. صنائع المعروف تقي مصارع السوء. الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف. جبلت النفوس على حب من أحسن اليها. التدبير نصف المعيشة. المسلم من سلم الناس من يده ولسانه. الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. المرء كثير بأخوانه الدال على الخير كفاعله. المؤمن مرآة أخيه. الناس معادن. حبك الشيء يعمي ويصم من اصبح معافي في بدنه آمنا في سربه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها. الرزق اشد طلبا للعبد من اجله. نية المؤمن خير من عمله. اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله. اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك. قل الحق وان كان مرا. استعينوا على حوائجكم بالكتمان. ماخاب من استخار ولا ندم من استشار. ماعال من اقتصد لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. إياك ومايعتذر منه عش ماشئت فانك ميت واحبب من شئت فانك مفارق واعمل ماشئت فانك مجزى به. افشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الارحام وصلوا بالليل والناس نيام. حفت الجنة بالمكاره. مطل الغنى ظلم. البر حسن الخلق. القناعة مال لا ينفد من تواضع لله رفعه الله من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه. طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس. طوبى لمن انفق من مال اكتسبه من غير معصية. لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار. اصنع المعروف الى من هو اهله والى من ليس اهله لا إيمان لمن لا أمانة له. إياكم والدين فأنه هم بالليل ومذلة بالنهار. الوحدة

خير من الجليس السوء . لا يمنعن من أحدكم مهابة الناس أن يقوم بالحق اذا علمه · لا تظهر الشماتة بأخيك . لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وترجع بطانا . رب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا . ان الله عند لسان كل قائل . ان المعونة تأتى العبد من الله على قدر المؤنة والصبر على قدر المصيبة . ان الله ينهاكم عن قيل وقال واضاعة المال وكثرة السؤال. مامثلكم ومثل الدنيا الا كراكب قال تحت الشجرة ثم راح وتركها. ليس من مالك الا ما أكلت فافنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فابقيت . ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى . خير دينكم أيسره وخير العبادة أخفها . . ان الله يحب الرفق فى الامر كله . أحب الاعمال الى الله أدومها وان قل • كفى بالمرء سعادة ان يوثق به فى أمر دنياه ودينه • لا تزال هذه الامة بخير ما اذا قالت صدقت واذا حكمت عدلت واذا استرحمت رحمت . الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه · المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله . شر الامور محدثاتها . اليد العليا خير من اليد السفلى • ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . من أعظم الخطايا اللسان الكذوب . خير الغنى غنى النفس رأس الحكمة مخافة الله . خير ماالقى في القلب اليقين. الخمر جماع الأثم . شر الكسب كسب الربا . شر المآكل مال اليتيم . سباب المؤمن فسق من يكظم الغيظ يأجره الله ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ومن يقرض الله يضاعف له الله . شر العمى عمى القلب وشر الندامة ندامة القيامة . خير العمل ما نفع ، الضحك هلاك البدن • نعمتان مغبون فيهما الناس الصحة والفراغ . أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة .

السلطان ظل الله في أرضه يأوى اليه كل مظلوم . السعادة طول العمر فى طاعة الله خصلتان لا تكونان فى منافق حسن سمت وفقه في الدين . فضيحة الدنيا أهون من فضيحة الآخرة . الرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن . الفراغ يقسى القلب . الرجل في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس . العلماء أمناء الله على خلقه . المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا لكل شيء عماد وعماد الدين الفقه . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه الويل كل الويل لمن ترك عياله بخير وقدم على ربه بشر من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن دع ما يريبك الى ما لا يريبك . التمسوا الرزق فى خبايا الارض . إطلبوا الفضل عند الرحماء من أمتى تعيشوا فى اكنافهم اتقوا دعوة المظلوم . لا يبلغ العبد حقيقة الايمان حتى يعلم ان ما أصابه لم يكن ليخطئه أبدا وما أخطأه لم يكن ليصيبه أبدا . لا يعجبنكم اسلام رجل حتي تعلموا كنه عقله . ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله . الخلق كلهم عيال الله فأحبهم اليه أنصفهم لعياله . رب مبلغ أوعى من سامع . من أودع معروفا فليفشه فان نشره فقد شكره وان كتمه فقد كفره . من صمت نجا من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت اخوته . أول ما تفقدون من دينكم الامانة وآخر ما تفقدون الصلاة .

﴿ تأثير دعوته صلى الله عليه وسلم ﴾

لا يكذب القائل اذا قال ان الفوضى فى العقول والشرائع والعوائد بكل شيء تستقيم به التكاليف قبل بعثته صلى الله عليه وسلم كانت عامة

وقد صل الغالون من كل ملة في أنواع الظلم الى حد قليل أن يسمي بالشقاء والفساد. واستولى الاضطراب على المدارك . وسارت الشبهات على العقائد فقلبت وضعها وعكست طبعها . فالعرب كانت مفرطة فى عبادة الاوثان والحجارة والمنافسة فى الموؤدة والسائبة والتفاخر فى إراقة الدماء وتقطيع الارحام ودولة الفرس والرومان كانت متظاهرة بكل مافيه نهك القوي وهلاك الاموال وظلم الامم المجاورة فضلا عن الترف والسرف الذى بلغ مبلغه ووصل أقصى درجات الافراط فهما نظرت رأيت بغياً وحسدا وقطعا للارحام وتنافسا فى الردى وإعراضاً عن ذكر الله وسلطان القوى منحصر فى سلب ما بيـد الضعفاء حتى ضاعت عقيدة الامن على الارواح والاموال والاعراض وأصبحت الكرة الارضية كأنها دار حرب والنفوس كلها مشرأبة الى الاذى والضرر فلا تستأنس رشدا ولا خيرا من أحد أبدا (نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون)

أى علاج لرفع هذه الغمم عن الامم أنجع وانفع من بعثة رسول الله صلى الله عليـه وسلم الذى لم تمض عليه عشرون سنة بين دعوته وهجرته . ومناظراته وغزواته حتى ظهرت الفائدة فى العمل وقام العدل وانتظم شمل الجماعة بالامر بالمعروف (وصرف الله القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء) وخلقوا خلقا جديداً نسوا فيه العداوة والعدوان ثم لم تمض عشرون سـنة أخرى حتى أصبحت الامة العربية بديعة النظام شديدة البنيان نامية فيها أفنان العزة مستحكمة فيها أصول القدرة مستعلية آدابها سائدة أخلاقها مستحسنة عاداتها صاف منهلها مستقيم منهجها لذيذ موردها غزير منبعها معروفة شرعتها مهندم بناؤها متمم منظومها متحد هواؤها وأهواؤها وقد

اتجهت لكل شيء يحفظ وجودها ويجمع كلمتها وينهض همم آحادها . حتى تنبهت وتقوت وسادت وامتنعت وأشرفت على رؤوس الامم وتجلت عليهم . بماذا تم لها ذلك ؟

تم لها بالدين القويم الاصول . المحكم القواعد . الشامل لانواع الحكم الباعث على الالفة . الداعي للمحبة . المزكى للنفوس . المطهر للقلوب الهادي للعقول بنور الحق الكافل لكل ما يحتاج اليه الانسان المشيد لمباني العمران الحافظ لوجود المعتنق له من آفات البهتان المزيل للوحشة . الجامع للصيانة الحافظ للاستقلال . المهذب للاخلاق . المحرك بمواعظه غيرة القلوب . الآمر ببيع الارواح في حفظ شرف الامة والملة

أتى على الامة العربية فوحدها وقواها وهذبها وهداها وأنار عقولها وذكاها وقوم أخلاقها وسدد أحكامها فسادت العالم أجمع وساست دوله بسياسة العدل والانصاف وليس ذلك ببعيد على دين أعدته الحكمة الالهية خاتمة الاديان لنوع الانسان ينتهى به الى غاية المدنية ويصل الى أقصى مراقى الاداب

جاء هذا الدين بصور من العبادات وضروب من الاحتفالات تفقه الالباب وتنير العقول وتكسو الانسان حلة الانسانية مع ظهور الحجة واستقامة المحجة على انها من عماد السعادة ومصلحة البشر

طالب هذا الدين كل قادر بالعمل وانه لا يليق بنفس بشرية أن تظهر في الوجود وقد عميت عن طرق الاهتداء وطمست عن أعينها معالم الهداية فهى كَلٌّ لا تعمل الخير ولا تبقين عليه

قال تعالى (وان ليس للانسان إلا ما سعى . وان سعيه سوف يرى .

ثم يجزاه الجزاء الأوفى) فأصبح للانسان بالدين قوة تدعوه للدأب على العمل حتي يبلغ الغاية من عمله فرفع الدين بهذا عن النفوس الجبن والخمول والكسل والعالة وبين ما فيها من العار والشنار والضعف الذى لا يليق بالانسانية أبداً

نزلت فى الكتاب الكريم خمس آيات تأمر الانسان بالسير والحركة وتدعوه للنظر فى آثار من تقدمه وقد نصبها الله منصب العظة والاعتبار وأقامها مقام الدليل على عمل اصحابها من خير أو شر مجدد فى النفوس قوة للتنافس بالاعمال واتباع أحسن الطرق فى اقتناء الفضيلة بالجد والاجتهاد لا يقعدها عنها المسالك الحزنة ولا المعابر الوعرة

قال تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فدل هذا على أن لافضل لاحد على أحد إلا بتقوى الله وان الانسان كلما استغرق فى بحار العبودية لخالقه وعرف ان إلهه إله كل شيء القادر على كل شيء المحيط بما فى نفسه وقام بما خلق لاجله من أعمال الهداية التي نصبها الله سبيلا للنجاة فلا سلطان لاحد عليه الا بحق لانه بهذا التوحيد أصبح عبداً لله خاصة حراً من العبودية لكل ما سواه له ما للحر على الحر

عرف الانسان من هذا بالبرهان القطعي ان مشيئة الرؤساء التى كانت تستعبد الامم فى مرضاتها والروح الخبيثة التى كانت تلامسهم فيدعون الشرائع الالهية ناحية . ويطمحون الى الشهوات ويدخلون فى كل أمر لهم فيه رغبة بلا روية ولا استبصار لا ينبغى الرضوخ لها ولا التسامح فيها وانه يجب على الانسان انه فضلا عن أن يصون نفسه عن الانقياد لها كذلك يتقدم لبنى جلدته بالنصيحة حتى تتأبى عنها فقد قال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون

الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)

كشف الاسلام عن العقول غمة الوهم ورفع الامتياز بين أفراده الا بعلم أو عمل قال تعالى (لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقال تعالى (لا يستوى القاعدون والمجاهدون) وقرر لكل طبقة من طبقات العلوم شرفا مخصوصا ودعى لها جميعا حتى دعى الناس للنظر فى النجوم بعد البحث فى هذه الرسوم وذم الجهل والقصور عن ادراك ما جاءت به الشرائع من الحكم وضرب له الامثال فقال تعالى حكاية عن المتلبس به (كمثل الحمار يحمل أسفارا) ففتح بذلك باب السعادة للانسان بطهارة العقل من دنس الوهم وخلاص العمل من وساوس الطغام

جمع القلوب على الألفة والمحبة بفريضة الزكاة التي افترضها . تؤخذ من أغنيائهم لفقرائهم فاستلت الضغائن والاحقاد التى فى القلوب واصبحت الامة الاسلامية اخوانا لا نهليست ولا سوسيالست ولا كومون ولا أنارشيست (لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت)

أدب النفوس بالصوم وأذاق الامير البؤس ليعلم ويحس بحال أخيه الفقير الجائع فلا ينساه من الموهبة التي وهبها الله له ولا يخليه من إحسان حتى يكون الغنى المحسن الشاكر كما ان ذاك هو الفقير الصابر

هذه قطرة من بحر الشريعة الغراء تكفينا لتقرير الكلام عليها فى هذه العجالة فنقول الى أى مرتبة يصل الانسان المتصف بهذه الاخلاق . حر فى نفسه . معان من اخوانه . عالم بان الله واحد لا إله الا هو متحقق أن لا وصول للسعادة الا بالعمل . وان لا عمل الا ما كان فيه رضاء الله . أتراه يصبح ويمسى جاهلا بعد هذا «التعليم» وتصيبه الغواية «مع هذا الارشاد»

ويتلبس بالمنكر بعد هـذا الامر بالمعروف أم تراه يرقى بشرف هذا الاستعداد حتى يبلغ درجات الكمال التى أعدها الله وسجلها لكل من اتبع نور هذا القبس واستضاء به

ظهر الدين الأسلامى وبقية الملل قدمزقتها المشارب وفرقتها المذاهب فكان سببا لهداية الخلق أجمع وأصبحت النـاس كلهم امامه بين رجلين (إما داخل فيه طوعا واما مقلد له استكباراً) وكذلك معنى قوله تعالى (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) فالنهضة العلمية فى بغداد في عهد المأمون رضى الله عنه لاتختلف عن النهضة العلمية فى باريس فى أيام لويز الرابع عشر . فان مفتاح العلوم فى كليهما الدين الاسلامي الذى دعى للنظر والبصر فى كل شىء . ولم يدع نفسا غافلة لاهية الا عابهـا . فالدين الاسلامى منشأ كل علم وباب كل سعادة ومفتاح كل استقلال للرأي والفكر والارادة وبه تكمل الانسانية وتستعد لان تبلغ ماهيأه لها الله من حسنات الآخرة

اتفقت أهل الدنيـا على أن دين الاسلام رفع كل الأثقال عن بنى الانسان وأحسن اليهم المعاملة حتى ترامت عليـه أهل الملل الآخرى يبتغون فضلا من أهله فوجدوا فيه العدل والانصاف والمساواة والاخاء حتى فى التقاضى مع المسلمين بين يدى قضاة المسلمين فاستكثروا بالدخول فيه « حتى أثر دخولهم فى واردات الجزية من كثرته » واستخدم الخلفاء من بنى أميـة وغيرهم من وجدوا فيه المهارة من غير المسلمين كالكتبة والعمال وصعدوا بهم الى أعلى المنـاصب وأسماها والاسلام يظلهم بظلاله وهم يبذلون فى خدمته أنفسهم

انتقل الى أوروبا من طريق الاندلس (باسبانيا) فاهتزت وربت

وأنت من كل زوج بهيج . وأتت على آخره حملة الغرب على الشرق وتداخلهم فيه وفي أحواله أكثر من مائتى سنة وانتهت تلك الحروب الجارفة بعودتهم لبلادهم بخفى حنين استغفر الله بل عادوا خاسرين فى حربهم مستفيدين في علمهم حافظين لكل التقاليد الدينية وقد عرفوا من أين غلبوا وأدركوا من أين أخذوا

كانت أهالى أوروبا غافلة عن قائدها لاهية عن مرشدها فجاءها ما أرادت عن قرب فنهضت لقطع سلاسل الذل التى ألبستها من أيدى ملوكها المغرورين ونقضت العزائم التى قيدتها بها زعماء الدين . ورأوا ان اختصاصهم بهذه الفضائل وعدم مشاركتهم فيها أفضل فدأبوا على العمل بها ووجهوا هممتهم لسلخلها عن أهلها فما زالت تلك الامهات تنمو عندهم حتى مزقت حجب الجهل وما زالت عوائدهم تنتقل الينا ونستعيض بها عما عندنا حتي أبادت ذلك العلم وانتهى الامر بأن أضاء الغرب ذلك القبس وأصبح أهله فى ظلمات لا يبصرون

لم يكتف المسلم بأن يستعين بالغربى فى معرفة سير النجوم والكواكب ومعرفة الفصول والمواسم المأمور هو بالنظر اليها من قبل ذلك بعدة أجيال بل أصبح عالة عليه يستعين به فى أقل القليل من أموره المعاشية

فقد المسلمون لطائف شرف الاستقلال ودينهم مانحها وشدوا على أيديهم الأغلال ودينهم قاطعها . واسترقوا وهم السبب فى تحرير الرقاب . وخانوا وهم الذين حفظوا العهد والوفاء فى كل باب . فاض بينهم الغدر والزور ودينهم يحرم الخديعة ويخرج الغاش من أهله . ما بالهم لا يتناصحون ولا يعتصمون وقد عادوا لما كانت عليه الأمم الاولى . الأغنياء يسلبون

أهل البأساء والابناء يقتلون الآباء والبنات يعققن الامهات

كادهم أهل الغرب كيدا بلغ سكينه العظم . أخرجوهم عن مواطنهم وأبعدوهم عن مشارعهم وأزاحوهم عن مواقفهم وأصبحوا على حال من السذاجة لا يفرقون بين مايضر وينفع . يقولون وهم لا يستحون ان دين الاسلام من العوادى عليهم والسبب الاول فى تقهقرهم وقد كذبوا وافتروا وهم من العماء بمكان لا يفرقون به بين عزهم أمس وذلهم اليوم ولا يدركون أين كانوا والى أين صاروا

سيئنون غدا حيث لا ينفع الانين ويبكون ولا يجدى البكاء لان البلاء الذى نزل جرته الذنوب والله كما يثيب على طاعته يعاقب على عصيانه ولن تجد لسنة الله تبديلا

اللهم انا نسألك طهارة في العقول وخلوصا فى العمل من العوج والرياء وهداية بالعلم والاعلام ورجوعا لآداب الدين التى فارقناها انك على كل شىء قدير

﴿ سيرة سيدنا أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴾

هو سيدنا عبد الله بن أبى قحافه عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم (بن مره بن كعب) بن لؤى بن غالب ين فهر التيمى القرشى يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مره بن كعب . وأمه أم الخير سامى بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مره

ولد رضى الله عنه لسنتين وأشهر من ميلاد رسول الله صلى الله عليه

وسلم وشب على الاخلاق الفاضلة والسيرة الكريمة وكان أعف الناس فى جاهلية ومقدما في قريش وهو من أهل مشاورتهم ومحببا فيهم وأعلم لمعاملهم وكان أعلم أهل زمانه بالانساب حتى كانت العرب تدعوه (عالم قريش) وتهابه لحرمته وكرمه وفضله فقد كان ذا مال جزيل فى قومه ومروءة تامة واحسان وتفضل فيهم يصل الرحم . ويصدق الحديث . ويكسب المعدوم ويعين على نوائب الدهر . ويقرى الضيف . وكانت له صحبة برسول الله صلى الله عليه وسلم فلما شرفه الله بالنبوة كان أبو بكر أول رجل أجاب دعوة الاسلام من غير كبوة فأجمعت الامة على تسميته بالصديق لانه بادر لتصديق الرسول ولازم الصدق فلم تقع منه هناة ما . ولا وقفة في حال من الاحوال ثم قام بدعوة اخوانه ولانه كان محببا سهلا كانت رجالات قريش تألفه فاسلم باسلامه كثير وأجاب دعوته مثل سيدنا (عثمان) بن عفان والزبير بن العوام (وطلحة بن عبيدالله وغيرهم من صناديد الاسلام واشترى من أسلم من العبيد وأعتقهم فى سبيل الله فكانت يده الطولى مبسوطة بالفضل على السادات والموالى

حاز شرف الصحبة بنص القرآن الكريم (اذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا) ومن حين أسلم الى حين توفى لم يفارقه سفراً ولا حضراً الا فيما أذن له صلى الله عليه وسلم فى الخروج فيه وشهد المشاهد كلها وحمل الراية العظمى في آخر غزواته وحج المسلمين وصلى بالناس فى مرضه عليه السلام وكل باب في المسجد سد الا باب أبى بكر

قد امتحنه الله بأشد ما يمكن به الامتحان فله فى الاسلام المواقف الرفيعة العالية : ثباته فى قصة الاسراء وجوابه للكفار وكونه موضع سر

رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هجرته وصاحبه فى الغار عند تحجبه ومسايره في الطريق عند سيره . وقد نصب نفسه للخاصة والعامة والموالى والمعادى وترك عياله وأطفاله بين يدى الاعداء . وكلامه يوم بدر . ويوم الحديبية حين اشتبه على غيره الامر فى دخول مكة . وما كان منه من الثبات عند المصيبة العظمي التى خرست عندها فصحاء فحول الرجال يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم واهتمامه فى بعث جيش أسامة وقيامه فى قتال أهل الردة وقد طمع أهل الشرك في الاسلام كما سيأتيك تفصيله وما زال يحج الصحابة بالدلائل حتى شرح الله صدورهم كما شرح صدره ورزقه تمام النعمة وصلاح الدين والدنيا فالفضل وان كان مقسوما بينه وبين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولكنه اكثرهم أسبابا فى اقتنائه وأشدهم صوابا فى معرفة طرق نواله

ولى الخلافة لما لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الاعلى فى ١٣ ربيع الاول من سنة احد عشر . وأول من بايعه عمر بن الخطاب وتبعه الرأى الغالب من أجلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه أفضل هذه الامة وأولاها بالامامة لفضيلته وخاصة منزلتـه وشدة استحقاقه من إسلامـه على الوجه الذى لم يسلم عليه أحد من عالمـه وفى عصره على حسب صحة الاحاديث والاسانيد فى تقديم أبى بكر لان رجالها أعم وخبرهم أكثر واسنادهم أصح . وقد صنع أبو بكر ماصنع فى ماله وكان المال أربعين ألفا من الدنانير فانفقه على نوائب الاسلام وحقوقه ولم يكن ماله ميراثا لم يكد فيـه أو هو غرير لم يشعر بعسر اجتماعه وامتناع رجوعه بل هو ثمرة كد وكسب جولان وتعرض لحكم الليالى والايام ثم هو

ثقيل الظهر بالنسل ذا بنين وبنات وزوجة وخدم وحشم يعول أبويه وما ولدا ولم يكن فتى حدثا فتهزه أريحية الشباب وغرارة الحداثة . والاعجب انه لم يكن باذاء هذا الانفاق وحذاء هذا العطاء رغبة تدعو أوطمع يحدو لان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بلغ من رهطه ولا من قومه قوة تصد عنه اذى المشركين من قريش فيطمع في جاهه بل هم على ماعلمت من السطوة والقدرة ثم لم يكن له على أبي بكر يد قبل ذلك مشهورة فيخاف العار فى ترك مواساته عليها

قضى الامر ببيعته فصعد المنبر وقال (أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فاعينونى وان صدقت فقومونى . الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ـ ان شاء الله ـ لايدع أحد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فاذاعصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله)

قام سيدنا أبو بكر رضى الله عنه بوظيفة الامامة من حراسة الدين وكفاية . الامة وصيانة الشرع الشريف فلم ينحرف عن شيء عنه ولا يسرة وسار وكتاب الله يقوده وسنة رسوله تحوطه



﴿ أعماله رضى الله عنه ﴾

بدأ بتسيير جيش أسامة بن زيد الذى كان جهزه النبي صلى الله عليه وسلم ولم يثنه عن ذلك ماحصل من الاضطرابات في بلاد العرب على أثر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشيع الجيش ماشيا وأسامة راكب فقال أسامة لتركبن أو لانزلن فقال والله لا نزلت ولا ركبت وما على ان أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله (ثم أوصاه وأصحابه فقال . لاتخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تفرقوا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا للاكل واذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له واذا لقيتم قوما فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاضربوا بالسيف ما فحصوا عنه فاذا قرب عليكم الطعام فاذكروا اسم الله : ياأسامة اصنع ماأمرك نبي الله ببلاد قضاعة ثم انت آفل ولا تقصر من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم) ثم ودعه فذهب أسامة وغاب أربعين يوما ثم رجع المدينة ظافرا غانما كما سيأتى ونفع الله جماعة المسلمين بهذا الجيش نفعا عظيما لانه فت فى عضد المنافقين وعلمت العرب ان المسلمين لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يبيتوا على فعله من الاذى

نعم رد البلايا الكثيرة عن جماعة المسلمين فقدمنى الاسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمصيبة العظمي مصيبة الردة التى لو لم تتداركها حكمة أبي بكر رضى الله عنه لتشتت شمل المسلمين وأصبحوا شذر مذر

مالبثت العرب بعد علمها بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى

ارتدت الاقريشا بمكة وثقيفا بالطائف وأصبحت الناس على قسمين تارك للدين كاتباع مسيلمة وأهل اليمن وهم الذين اتبعوا الاسود العنسى. ومعطل لبعض أركانه كالزكاة وهم أتباع مالك بن نويرة

شمر رضى الله عنه عن ساعده غير مبال بهذه الاهوال الجسام ولا هياب لها مع قلة الجيش وكثرة العدد بل مع قلة المسلمين وكونهم كالغنم فى الليلة المطرة بقلتهم وكثرة عدوهم واظلام الجو عليهم بفقد نبيهم وهكذا الواثق بوعده سبحانه وتعالى (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وقام معتمدا على ربه مستسهلا المصاعب فكلل الله سبحانه وتعالى أعماله بالنجاح

عاجلته عبس وذبيان مع جماعة من بني أسد وكنانة وجاؤا مانعى الزكاة وأطمعوا الناس فى المدينة لقلة من فيها فأعان الله المسلمين فلم تطلع الشمس عليهم حتى ولت الاعداء الادبار ثم جاء أسامة فاستخلفه على المدينة وقاتل المرتدين وهزمهم وقد كان استراح جيش أسامة وثاب من حوالى المدينة فعقد احد عشر لواء لاحد عشر قائدا وسير الجيوش لقتال أهل الردة فجبر الاسلام بعدما كسر وفض حدتهم وفرق كلمتهم وكسر شوكتهم والحمد لله

خص كل قائد بناحية لقتال من فيها من أهل الردة فـ(١) سيف الله خالد بن الوليد لطلحة بن خويلد الاسدى ومالك بن نويره و(٢) عكرمة ابن أبي جهل الى مسيلمة باليمامة و (٣) شرحبيل بن حسنه لاهل اليمامة و(٤) أبي أميه الى جنود العنسى وهم قوم من الفرس سكنوا اليمن و(٥) حذيفة بن محصن الى أهل دبا و(٦) عرفجة بن هرثمة الى أهل مهره و (٧)

سويد بن مقرن الى تهامة اليمن و(٨) العلاء بن الحضرمى الى البحرين و(٩) طريفة بن حاجز الى بنى سليم وهوازن و(١٠) عمرو بن العاص الى قضاعة و(١١) خالد بن سعيد الى مشارف الشام وزود كل قائد بما شاء الله أن يزوده من الارشاد أحد عشر باب من أبواب الفتنـة فتحت في آن واحد وجرح رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يندمل بعد والامر فى سره وجهره محتاج الى المجـاهدة الحقة والقائم لابد له أن يدأب بالاستعانة بالمعروف مع من أجاب الدعوة واستمر على الاقرار ويقاتل من رفضها ولازم الانكار واصحاب العجلة والفساد من العرب حشو الاسلام والمسلمين وقد ارتفعت الامانة فالـكل عيون على الـكل من قبل الاعداء

هذا الموقف من أشد المواقف الحرجة التي ليس لها الا عزم سيدنا أبى بكر رضى الله عنه يذكى سراج هدى نبيه صلى الله عليه وسلم بنور الحق الساطع ويدعو الناس اليه بعد ما ألفتهم داعى الشيطان وأدبروا عن الهوى وأصبحوا بعد إيمانهم كفارا

اجتمع المشركون واجتمع المسلمون ونازل كل قائد خصمه ومازالوا بهم حتى هزم الله اعداءه على يد اوليائه كما بينته أصحـاب السير فى كلام طويل ولم يهمه احد منهم مع كثرة المقاتلة ولم يغلبوا على قلتهم ولم يخذلوا على ضعفهم لانهم بعيدون عن الهوى غير حائدين عن الصراط السوى

لينظر الانسان نظرة غير ذى هوى فيري ابا بكر رضى الله عنـه ومن معه من المسلمين كالشعرة البيضاء في الثور الادهم والعرب كلهم اعداء له ولمن معه ثم ليتأمل فعله من إعزاز دين الله وقتال من كفر بالله ولا سلاح معه اشد من الوثوق بوعد الله (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت

اقدامكم) فجازاه الله بتحقيق قوله هذا ومنحه النصر المبين والفتح العظيم ودانت له امم العرب واجتمعت كلمتها بعد تفرقها والف اله القلوب بعد تشتتها وتوجهت همة الجميع لتحقيق قوله تعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله)

﴿ فتوحاته رضى الله تعالى عنه ﴾

كانت بلاد العرب مجاورة لاكبر ممالك الدنيا إذ ذاك مملكة الفرس فى الشرق ومملكة الروم في الشمال . ولا حاجة لتكرار الكلام فى شرح ما كان يعتقده ملوك هاتين المملكتين فى نفوسهم من العظمة بعد ما قرأ القارىء فى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أن كسرى أبرويز مزق كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم استكباراً واستعظاماً من قراءته فما بعد هذا دليل على مقدار الجبروت والكبرياء اللذين كان من فضل تعميم عدل الاسلام ومساواته بين الامم الاخرى هدمهما بالمرة . وقد كانت الحال من جهة الفرس الى أن توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جيوش العرب فتحت اليمن وضمت اليه البحرين وعمان والكل مما هو تحت حماية الفرس إذ ذاك. وكانت من جهة مملكة الروم قاصرة على كتابة كتاب الى هرقل ملك الروم وتجهيز جيش فى السنة الثانية من الهجرة ورضاء بعض عمال هرقل بالجزية

انتدب أبو بكر رضى الله عنه سيف الله خالد بن الوليد ليضع أساس لدين القويم بالبلاد الفارسية وذلك فى بدء المحرم من السنة الثانية عشرة بن الهجرة وأمره أن يبدأ (بالايلة)[1] وانتدب عياض بن غنم وأمره أن

(١) الايلة ثغر من ثغور الفرس على الخليج الفارسى عند مصب دجلة

يبدأ (بالمضيح[١]) وأمدهما بما شاء الله أن يمدهما به وأوصاهما أن لا يستعينا بأحد ممن ارتد على غزو أبداً

سار خالد بن الوليد ورتب جيشه ثلاث فرق وقصد ثغر (الحفير)[٢] وكان صاحبه من عظماء الفرس اسمه « هرمز » تبغضه العرب وتنقم عليه لكثرة غزواته فيهم فسبق المسلمين على الماء ونزل خالد على غير ماء . ثم تلاقيا وسط الصف فاحتضنه خالد وقتله وحمل جيش المسلمين وانهزم المشركون واقتسمت الغنائم وأرسلت البشائر وخمس الغنيمة الى أبي بكر

اتصل خبر هذه الهزيمة بملك الفرس أزدشير ومقامه (بالمدائن)[٣] فأرسل الى المسلمين جيشاً آخر يقوده عظيم من عظمائهم لجمع المنهزمين من الفرس وسار بهم وبجيشه حتى وصل نهر (الثنى) فالتقى الجيشان هناك فقتل قائد الفرس وحمل جمع المسلمين على جمع المشركين فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وغرق الكثير منهم في النهر وأخذت الجزية من الفلاحين وساروا زمة وأرسلت بشرى الفتح وخمس الغنائم الى أبي بكر

اتصل خبر هذه الهزيمة أيضاً بملك الفرس فأخذ من عزمه ومن صبره ما أخذ وأحال ذلك الجبروت والاستكبار الى حال آخر صيره ينظر فى أمره وألفته الى تلك الطامة المقبلة عليه فسير جيشاً يقوده عظيم وفى أثره آخر يقوده أعظم منه ولكن كل هذا لم يغن شيئاً ولم تلتق عساكر خالد بن الوليد بعسكر الجيش الاول حتى مات القائد فى هزيمته وأصاب

(١) المضيح قرية على الفرات شمال العراق (٢) الحفير موضع قريب من الايلة
(٣) المدائن للاكاسرة على نهر الدجلة جنوبى بغداد شرقية وغربية وكان فى الشرقية ايوان كسرى

خالد أبناء من (بكر بن وائل) وقتلهم فكتب نصارى بكر لملك الفرس بما كتبوا فأمر الجيش الثاني أن يلحق جماعة المسلمين ويدرك بقية الجيش المنهزم ولكن القائد سير أمامه ذلك الجيش برئاسة غيره وسار هو الى أزدشير فوجد أخبار الهزيمة وصلته فأعلته وأصبح في مرض عضال

ثم حصلت واقعة (الليس)[1] وثبتت فيها الاعاجم لتوقعهم المدد وثبت المسلمون لتيقنهم النصر من الله

وبعيد ما بين طالب رفه   من زمان ومن يحاول زخرا

فجعل الله كلمته هي العليا ولم تمض ضحوة النهار حتى ولى الفرس الادبار بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة وسار خالد بن الوليد قاصداً الحيرة[2] في سفن في بحر الفرات فخرج اليه (مرزبان) الحيرة وأرسل ماء الفرات في الجداول والترع المتفرعة منه حتى انخفض منسوب النهر ووقفت سفن المسلمين على اليبس فسار خالد بالخيل وحاصر القصور وشدد حتى خرجت القسس من ديورها تصيح بأهل القصور وتطلب منهم الصلح فصالحهم على الجزية فدفعوها وأهدوه هدايا على عادتهم مع ملوك الفرس فأرسل خالد بالفتح والهدايا الى أبي بكر فقبلها وعدها من الجزية وأمر خالداً أن يعدها منها

فلما رأى حكام ما بعد «الحيرة» فعل خالد صالحوه على الجزية وأخذ في مكاتبة ملوك الفرس وسار الى مدينة الانبار[3] فطلب صاحبها شيرازاد فصالحه

---

(١) الليس موضع على الفرات من قرى الانبار (٢) هي عاصمة ملوك العرب من قبل الفرس وهي غربي الفرات على قرب الكوفة (٣) مدينة على شاطئ الفرت شمال الكوفة

ثم سار سيدنا خالد وافتتح عين النمر عنوة [١] ثم سار عنها قاصداً دومة الجندل وافتتحها عنوة أيضا

أثار هذا من حمية العرب الذين تحت حكم الا كاسرة بهذه الجهات من عهد عظيم بسبب من قتل من العرب إخوانهم بعين النمر ودومة الجندل فطلبوا من الفرس جيشا يكون لهم عونا . فأخرجت لهم فارس فارسين عظيمين فى عسكر كبير فكان حظهما فى مناصبة القتال مع جيوش الاسلام حظ من فات ثم وقعت واقعة «الفراض» وقاتل المشركون فيها قتالا شديداً ثم انهزموا وأمر سيدنا خالد بن الوليد بالرجوع الى «الحيرة»

كان من حكم الحال فى ذلك الوقت أن ينصرف سيدنا خالد عن حرب العراق ويسير الى الشام مدداً لجيوش المسلمين هناك فصرفه أبو بكر واستخلف على جيشه في العراق «المثنى بن حارثة الشيبانى» فقام من الحيرة حتى أتي بابل [٢] وأقام بها حتى لاقاه «هرمز» فى جيش الفرس فقاتله جيش المسلمين قتالا شديداً أفضى الى هزيمته

كثرت الاختلافات الداخلية فى مملكة الفرس فشغلتهم عن أمرهم مع المسلمين واطمأن الحال فى كل ما فتحته جيوش المسلمين من البلاد فرأى «المثنى» أن يستخلف على جيشه ويقصد المدينة ليفاوض سيدنا أبا بكر فى أشياء فوجده مريضا فاستحضر أبو بكر عمر بن الخطاب وقال اذا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع «المثنى» ولا تشغلنكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم فقد رأيتني وقت وفاة رسول الله وما صنعته وما أصيب الخلق بمثله واذا فتح الله على اهل الشام فاردد أهل العراق الى عراقهم فانهم

---

(١) بلد فى برية العراق بالبعد عن الانبار بثلاث مراحل (٢) بلدة قديمة شرقى الفرات

أهله وولاة أمره واهل الجرأة عليه

هذا ما انتهى اليه امر فارس فى ذلك العهد واذا استحضر القارئ فى ذهنه صورة بلاد العرب يري انها كانت محدودة بدولة الروم شمالا ومملكة فارس شرقا وان الدعوة للدين بواسطة الجيوش الاسلامية قد انتقلت منها فى عهد الصديق الى هذه الممالك وان سيدنا خالد بن الوليد اتجه جهة الشرق وأزال ملك فارس عن كل الاراضى الخصبة التى فى غربى الفرات وهو مايعبر عنه بريف العراق وأصبح حد مملكة فارس نهر الفرات . وأما من جهة الشمال فالذى وقع بعد الذى علمت من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كتبه الى هرقل والكتاب الذى كتبه لملك غسان بالبلقاء والجيش الذى بعثه رسول الله تحت أمرة زيد بن حارثة فى السنة الثامنة من الهجرة وقبول صاحب جرباء وايلة بالجزية

وجه سيدنا أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص الى مشارف الشام وأمره ان يكون ردءاً بتيماء لايفارقها فجهز اليه ملك الروم جيشا فسار اليهم خالد فافترقوا فكتب لأبى بكر بالخبر فكتب اليه بالاقدام فتقدم ولقيه بطريق رومى اسمه ماهان فهزمه خالد وكتب الى أبى بكر يستمده فاهتم بأمر الشام فاستقدم عمرو بن العاص وكان والياً على صدقات سعد هذيم من قضاعه كان أبو بكر مسيره اليها يوم عقد الالوية في ذى القصة وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعده ولايتها فكتب اليه أبو بكر (انى كنت رددتك الى العمل الذى ولاك رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة ووعدك به أخرى انجازاً لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وليته وقد أحببت ان أفرغك لما هو خيرلك فى الدنيا والآخرة الاان

يكون الذى أنت فيه أحب اليك)

فكتب اليه عمرو (انى سهم من سهام الاسلام وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به)

جهز أبو بكر أربعة جيوش جعل على أحدها عمرو بن العاص ووجهته فلسطين [١] . وعلى الثانى شرحبيل بن حسنة ووجهته الأردن [٢] وعلى الثالث يزيد بن أبى سفيان . ووجهته البلقاء [٣] . وعلى الرابع أمين الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح . ووجهته حمص . [٤] وساروا جميعاً على بركة الله . وقد ودعهم أبو بكر ماشياً وأوصاهم بما فيه صلاح دنياهم وأخراهم فظلت الجيوش سائرة حتي نزلت الشام

بلغ « هرقل » أمر هذه الجيوش فقال لقومه أرى ان تصالحوا المسلمين فوالله لان تصالحوهم على نصف مايحصل من الشام ويبقى لكم نصفه من بلاد الروم أحب اليكم من ان يغلبوكم على بلاد الشام ونصف بلاد الروم فرفضوا رأيه فسار حتى نزل « حمص » وأمر بجمع الجيوش فاجتمع من الروم عدد عظيم فوجه لكل أمير جيشاً يفوق عدة من معه فأشار عمرو بن العاص على الامراء بالاجتماع فاجتمعوا باليرموك [٥] وكل واحد أمير على جيشه والروم أمامهم وبين الفريقين خندق فكان الروم

(١) كورة فى جنوب الشام

(٢) كورة بالشام تبتدئ من بحيرة طبرية وتنتهى بالبحيرة الميته

(٣) بلد بالشام

(٤) مدينة شامية فى الشرق من نهر العاصى

(٥) واد فى الجنوب الشرقى من الشام

يقاتلون باختيارهم وان شاؤا احتجزوا بخنادقهم وأقام الفريقان على ذلك صفر والربيعين من السنة الثالثة عشرة من الهجرة فأرسل الامراء الى أبي بكر يستمدونه فكتب الى سيدنا خالد بن الوليد أمير جند العراق يأمره ان يستخلف على جنده بعد ان يأخذ معه نصفه ويتوجه الى الشام مدداً لامرائه (كما قلنا ذلك عن قرب بعد ذكر واقعة دومة الجندل)

سار سيدنا خالد ينسف الارض نسفاً حتى وصل الى المسلمين في ربيع الآخر وصادف وصوله وصول « ماهان » بجيش مددا للروم فولى خالد قتاله وقاتل كل أمير من بأزائه متساندين فرأي خالد ان هذا القتال لايجدى نفعاً مادامت كل فرقة من الجيش لها أمير فجمع الامراء وخطبهم

قال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

ان هذا يوم من أيام الله لاينبغي فيه البغى ولا الفخر . أخلصوا جهادكم وأرضوا الله بعملكم فأن هذا يوم له مابعده ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبية وأنتم متساندون فأن هذا لايحل ولا ينبغى . ان من ورائكم من لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا بما لم تؤمروا فيه بماترون انه رأى من واليكم ومحبته)

قالوا هات فما الرأى فقال

(يؤمر على الجيش كله أمير واحد ويتعاوروا الامارة حتى يؤمروا كلهم وان يؤمر هو فى اليوم الاول) . فقبلوا مشورته

خرج سيدنا خالد فى تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك . جعل القلب (فرقا) وأقام فيه أباعبيدة . وجعل الميمنة (فرقا) وأقام فيها عمرا وشرحبيل . وجعل الميسرة (فرقا) وأقام فيها يزيد . وجعل على كل فرقة رجلا

من الشجعان[1] وكان عدد الفرق ستة وثلاثين فرقة وكل فرقة ألف رجل.

انتشب القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان وأظهر خالد عجائب الشجاعة والحمية الاسلامية . ثم ان الروم حملوا حملة أزالوا بها المسلمين عن مواقعهم وأزاحوهم عن مواقفهم فنهد سيدنا خالد بالقلب حتى حال بين خيل المشركين ورجلهم فانهزم الفرسان وتركوا الرجالة فاخرج لهم المسلمون واشتدوا على الرجالة فهزموهم وقتلوا خلقا كثيراً وقاتل نساء المسلمين فى ذلك اليوم قتالا شديداً وأبلين بلاء حسنا

انتهت هذه الموقعة بهزيمة الروم شر هزيمة وفى أثنائها جاء بريد المدينة بموت سيدنا الصديق وخلافة سيدنا عمر بن الخطاب وتولية أبى عبيدة رئاسة الجيوش فلم يبلغ هذا الخبر الجيش الا بعد الفتح

ربما يقول قائل الشأن فى الحروب ان تكون سجالا فلماذا تفاوتت فى هذه الوقائع مواهب القوى والهمة والعزم مع ماهو معروف في دولة الروم من تمام التطاول الى اجتناء ثمار الاعمال ولهذا فنحن قبل ذكر خبر وفاة سيدنا الصديق ذاكرون حديثا عن واقعة (اليرموك) هذه احدى وقائع العرب مع الروم . ترد نزعات الفكر ونزغات الاهواء ان جمحت وتعرف الانسان ان هداية الدين وصحة الاعتقاد وكمال العقيدة اذا تمت لانسان ترق منه الوجدان وتلطف منه الاذهان وتنفذ منه البصيرة وترفع منه الفكر لاجتلاء النتائج ويصبح صاحبها وله من القدرة الباهرة ما لا يهتدم بناؤه أبدا

قال الامام أبو الحسن سلام الباهلى الاشبيلى فى كتابه الذى وضعه

---

(١) فى منزلة البكباشي الآن

فى آداب النفوس ومكارم الاخلاق عند الكلام على مراتب الجود ودرجات السخاء (حديث حذيفة العدوي) قال انطلقت يوم (اليرموك) اطلب ابن عم لى ومعى شيء من ماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته منه ومسحت به وجهه فلما وجدته أشرت اليه أن أسقيه فقال لى ابن عمى نعم . فاذا برجل يقول آه فأشار الى ابن عمى أن انطلق اليه فجئته فاذا هو هشام بن العاصى فلما أشرت اليه سمع آخر يقول آه فأشار الى هشام أن انطلق اليه فجئته فاذا هو قد مات فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات فانصرفت الى ابن عمى فاذا هو قد مات

أى شيء أعظم من هذا الايثار وأى صبر أجل من هذا الاصطبار . لقد تقصر الالسن عن تعديله وتكل الافهام عن تحديده ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

﴿ وفاة سيدنا الصديق ﴾

لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة . حم أبو بكر فلما اشتد عليه المرض جمع كبار الصحابة فاستشارهم فى العهد لعمر بن الخطاب فكلهم قال خيرا فدعا عثمان بن عفان وأملى هذا العهد

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة في الحال التى يؤمن فيها الكافر . ويوقن فيها الفاجر . اني استعملت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً فأن صبر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه وان جار وبدل فلا علم لى بالغيب والخير

أردت ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون

ثم أمر بالعهد فقرىء على المسلمين وقد أطل عليهم فقالوا سمعنا وأطعنا ثم نادي عمر فقال له (انى قد استخلفتك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعمر ان لله حقاً بالليل لايقبله بالنهار وحقا فى النهار لايقبله في الليل وانه لايقبل نافلة حتى تؤدي فريضة ألم تر ياعمر انما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه غدا الا حق ان يكون ثقيلا : ألم تر يا عمر انما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه غداً الا باطل ان يكون خفيفاً . ألم تر ياعمر انما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة وآية الشدة مع آية الرخاء ليكون المؤمن راغباً راهباً لا يرغب رغبة يتمني فيها على الله ماليس له ولا يرهب رهبة يلقى فيها بيديه . ألم تر يا عمر انما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم فاذا ذكرتهم قلت انى لارجو ان لااكون منهم وانما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لانه تجاوز لهم عما كان من شيء فاذا ذكرتهم قلت أين عملى من أعمالهم فان حفظت وصيتى فلا يكون غائب أحب اليك من حاضر من الموت ولست بمعجزه)

توفى الصديق رضى لله عنه وغسلته زوجه اسماء وابنه عبد الرحمن وكفن فى ثوبيه كما أوصى ودفن ليلا فى حجرة عائشة وجعل رأسه عند كتفى رسول الله ودخل قبره ابنه عبد الرحمن وعمر وعثمان وعبد الرحمن ابن عوف وطلحة بن عبيد الله فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال وعمره ثلاث وستون سنة

تتوجت هـذه الايام بأعماله فـكانت فى سلسلة الايام من أفضل العوامل فى احراز الفضائل لمشمت المسلمين بعد فرقتهم بردة الـكثير من العرب . جرد الجيوش على الدولتين العظيمتين المجاورتين لبلاد الاسلام (الروم . والفرس دعاهما لدعوة الدين أو الدخول تحت حكمه حتى يكون عدله ومساواته عامين لجميع الامم . لتخلص هاتين الامتين من ملوكهما الذين يعدون رعيتهم عبيداً ونفوسهم آلهة وشهواتهم مهما عادضررها على الرعية سنة وفرضا ففازت جيوشه بالنصر في جميع مواقعها

كانت حالة الخلافة الاسلامية الى عهده (انه الخليفة) وسيدنا (عمر ابن الخطاب قاضيه وسيدنا (أبو عبيدة أمينه) (وكتابه عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وزيد بن ثابت رضى الله عنهم)

كانت ولايات الاسلام فى عهده عشرة لـكل واحدة وال

١ (مكة) وعليها عتاب بن أسيد الذى ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم

٢ (الطائف) وعليها عثمان بن العاصى الثقفى

٣ (صنعاء) وعليها المهاجر بن أبي أمية

٤ (حضرموت) وعليها زياد بن لبيد

٥ (خولان) وهى قبيلة عظيمة تسكن اليمن وعليها يعلى بن مُنْية

٦ (زبيد) وعليها أبو موسى الاشعرى

٧ (نجران) وهو موضع شمالى اليمن يقيم به قبائل من بنى الحرث وعليه جرير بن عبد الله

٨ (البحرين) من شواطىء بلاد العرب المطل على الخليج الفارسى وعليها العلاء بن الحضرمى

٩ (جرش) وهو مخلاف باليمن وعليه عبد الله بن ثور

١٠ (دومة الجندل) وعليها عياض بن غنم وقاعدة أعماله الجدة

وامير جند الشام خالد بن الوليد القرشي المخزومي

وامير جند العراق المثنى بن حارثة الشيباني

﴿ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ﴾

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى (بن كعب بن لؤى) بن غالب بن فهر العدوى القرشي يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في كعب بن لؤى . وكنيته أبو حفص . ولقبه الفاروق .

ولد رضي الله عنه بعد الفيل بثلاث عشرة سنة وهو من أشراف قريش واليه كانت السفارة في الجاهلية . فاذا وقعت قريش في حرب بينها أو بين غيرها أو نافرهم أو فاخرهم أحد كان هو السفير في أمرهم والنافر والمفاخر عنهم

تربى على الشهامة والنجدة والحمية الجاهلية وكان من أكبر المعارضين للاسلام عند ظهوره ثم منّ عليه بالاسلام فكان من أكبر أسباب معزته ببركة دعوته صلى الله عليه وسلم (اللهم أعز الاسلام بعمر) فكان اسلامه فتحا . وهجرته نصراً وامامته رحمة

أسلم في السنة السادسة من النبوة وله سبع وعشرون سنة بعد أربعين رجلا واحدى عشرة امرأة فما دان بالاسلام حتى أشار على النبي صلى الله عليه وسلم بترك الاختفاء والتستر وإظهار الدين فخرج النبي صلى الله عليه وسلم ومعه المسلمون صفين يقدم أحدهما عمر بن الخطاب (كأنه

عة القدرة العظمى) ويقدم الآخر حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى
عليه وسلم فلم يكن منظراً أنكى فى عيون المشركين من هذا المظهر
ق مرائرهم ويحرج صدورهم يودون لهم من الاذى مايودون وماهم ببالغيه
كان رضى الله عنه نصيراً للدين بما آتاه الله من قوة البطش غير مستخف
بمله ولا هياب لاحد كأنَّ الله قد اختار لسانه للنطق بالحق واختصه
لك ليقرع الآذان ويشق الحجب حتى انه عند ما أذن الله له بالهجرة
المدينة لم يتسلل لها خفية بل جاء الى الكعبة وأشراف قريش بفنائها
طاف سبعا ثم صلى ركعتين ثم أتى حلقهم واحدة واحدة وصاح بعظمائها
اهت الوجوه . وأخبرهم بهجرته وقال لهم . من أراد ان تثكله أمه وييتم
ده وتترمل امرأته فليلقني وراء هذا الوادى فلم يجسر أحد منهم على اتباعه
حضر المشاهد كلها مع رسول الله من بدر الى تبوك (وهو ممن ثبت
رسول الله صلى الله عليه وسلم) وكان عجيبا فى فعله وعمله حتى قال النبي
لى الله عليه وسلم (لقد كان فيما قبلكم محدثون (ملهمون) فان يكن
أمتي أحد فأنه عمر)
كأن الله قد جعل الحق على لسانه وقلبه يقول به وما نزل بالناس أمر
الوا فيه وقال الا نزل القرآن على نحو ما يقول عمر فوقعت موافقات
كثيرة أوصلها بعضهم الى عشرين وأشهرها مسئلة قتل أسري بدر . ومسئلة
لحجاب ومسئلة الخمر . ومسئلة الاستغفار . ومسئلة الصلاة على أبيّ .
هو أول من سمي أمير المؤمنين : وأول من كتب التاريخ الهجرى .
ول من اتخذ بيت المال وكان ايراده من زكاة المسلمين . وجزية أهل
مة . وخمس الغنائم . ومواريث من ليس لهم وارث من موتى المسلمين

فكان مطهراً من المظالم نقيا عما كانت الملوك تأخذه من أممها ظلما واول من دون الدواوين لحصر أسماء الغزاة . وأول من سن قيام رمضان وأنار المساجد فى لياليه وأول من عس الليل . وأول من عاقب على الهجاء وأول من جلد في الخمر ثمانين وأول من حرم المتعة ونهى عن بيع أمهات الاولاد وجمع الناس فى صلاة الجنائز على أربع تكبيرات . وأول من اتخذ الديوان . وأول من مسح السواد . وأول من حمل الميرة من مصر الى المدينة . وأول من أخذ زكاة الخيل . واول من اتخذ الدرة . واول من استقضى في الامصار واول من مصرها . اختط الكوفة ومصرها . والبصرة . والجزيرة والشام . ومصر . والموصل . واول من اتخذ دار المؤن ليعين منها المنقطع . فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب ووضع فيما بين مكة والمدينة بالطريق ما يصلح من ذلك

وله من الكرامات الغريبة ومن اشهرها ايضاً واعجبها صيحته وهو على المنبر (يا سارية الجبل) وكتابه لنيل مصر وابطاله تلك العادة السيئة وقطعها عن اهل مصر . ودعاؤه على اهل العراق وقد حصبوا اميرهم : اللهم قد لبسوا عليّ فألبس عليهم وعجل بالغلام الثقفى يحكم فيهم حكم الجاهلية لا يقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم. والحجاج يومئذ ما وُلد

واكبرها دلالة على فضله واشدها علامة على نبله رضى الله عنه ما ذكره بعض المؤرخين [1] ان عمرو بن العاص خطر بباله حفر برزخ السويس لاتصال البحر الاحمر بالبحر الابيض فاستأذن عمر بن الخطاب فمنعه لئلا تعبر منه الافرنج (البحر) فيكثرون بالمشرق وبلاد المغرب

---

(١) راجع الجزء الاول من كتاب علم الدين صحيفة ٣٣٩

﴿ أعماله فى خلافته ﴾

لم يغب عن القارىء انا تركنا جيش المسلمين (ببابل) تحت قيادة بشير بن الخصاصية الذى استخلفه المثنى حينما قصد المدينة لملاقات الصديق (كما ذكرنا فى ترجمته) وقلنا ان نهر الفرات أصبح حداً لمملكة فارس وتركنا جيش المسلمين كذلك فى حرب الروم باليرموك بعد هزيمة الروم عنها . وسنأخذ الآن فى سرد ما افتتحت جيوش المسلمين فى بلاد هاتين المملكتين فى مدة هذا الخليفة رضى الله عنه وأرضاه

﴿ أمر فارس ﴾

ندب الناس مع المثنى وأمر عليهم أسبقهم انتدابا وكان أبا عبيد بن مسعود وقال له وأوصاه وصية رجل دخل بين الامم وطبائعها فقال له : ستقدم على أرض المكر والخديعة تقدم على قوم تجرأوا على الشر فعاموه وتناسوا الخير فجهلوه فانظر كيف تكون . احفظ لسانك ولا تفشين سرك حتى لا تكون بضيعة

ثم أمر المثنى ان يتقدم الى ان يلحق الجيش وأمره أن يستنفر من حسنت توبته من المرتدين فسار مسرعاً حتي وصل الحيرة فى عشر وكان الفرس قد شغلوا عن المسلمين ببعض اختلافات داخلية على من يلى ملكهم ثم اتفقوا أخيرا على ولاية «بوران بنت كسرى» وأن يقوم بأمرها «رستم» حتى يجدوا رجلا من بيت كسرى يصلح للملك فاستعد رستم لقتال المسلمين وجهز الجيوش فارسل جيشا الى الفرات وجيشا الى كسكر(١)

(١) كسكر بلد على الشاطىء الغربى لدجلة بين بغداد والبصرة وعلى آثارها واسط

وآخر لملاقات المثنى . وأغرى الفلاحين ان ينتقضوا على المسلمين فخرج المثنى من الحيرة الى خفان [1] وانتظر أباعبيد حتي وصل بعد شهر فسار منها الى الفرس فهزمهم ولحقوا بكسكر فقصدها أبو عبيدة وقد كانت جيوش الفرس تلاحقت فالتقى بهم أبو عبيدة وهزمهم شر هزيمة وبث سراياه وجمع ماحواليه من الأنهار واعتصم بمعاقله حتى جهز الفرس جيشاً آخر تحت قيادة (بهمن) المعروف بذى الحاجب ومعه الراية العظمى لفارس واسمها (درفش كاويان) [2] طولها اثنا عشر ذراعا فى عرض ثمانية أذرع مفصلة من جلود فحدثت بين المسلمين والفرس وقائع على الفرات انتهت بهزيمة الفرس وتقدمت العرب حتى مكنها الله من سواد العراق واجلاء الفرس عنها

تضايقت الفرس من امتداد أيدي المسلمين لاخذ الجزية واستعمال ما افتتحوه من البلاد وزوال سلطتهم من غرب الفرات وضعف بلاد الجزيرة وغير ذلك من الطوارىء التى تتبع الهزيمة والانكسار فقامت عامة الفرس وخاصتهم تتدارك هذا الاضمحلال والزوال فاجتمعوا ورأوا من آل كسرى رجل اسمه « يزدجرد » فتوجوه ونادوا به ملكا عليهم فجمع القادة وسير الجيوش .

بلغ ذلك سيدنا عمر بن الخطاب فجمع جيشاً عظيماً تحت قيادة سعد

---

(١) ماسدة قرب الكوفة

(٢) راية فريدون أحد سلاطين العجم وفيما تقول الناس انه كان حدادا فى عصر الضحاك فلم يصبر على ظلمه فجمع الجلود التى كان يستعملها فى صناعته مئزرا صنع منها هذه الراية وثار على الضحاك فتبعته الاهالى ثم قتلوا الضحاك وولوه عليهم

ابن أبي وقاص الزهرى القرشي خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوصاه بوصية تنفذ فى القلوب قبل الاذان فقال له . (ياسعد ابن أم سعد لا يغرنك من الله أن يقال خال رسول الله وصاحب رسول الله . فان الله لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن وليس بين الله وبين أحد نسب الا بطاعته فالناس فى دين الله سواء وهم عباده يتفاضلون عنده بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الامر الذى رأيت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه) فسار سعد يقود هذا الجيش الشديد ويستأنس برأي أمير المؤمنين السديد ومعه أهل البأس والرأى وأهل الجهاد والصبر يضم اليه أقاصيه وطلائعه ويجمع اليه مكيدته وقوته ويتأمل فى عورات عدوه ومكاره مقاتله ويرهب عدو الله وعدوه حتى وصل الى «زرود» فبلغه وفاة المثنى من جراحه التى أصابته فجمع سعد جيش المثنى وضم رجاله الى رجاله وعبى الجيش ورتب المقدمة والساقة والميمنة والميسرة وسار حتى نزل القادسية [1] فأقام شهراً لا يأتيه عدو . ثم تراسل مع « يزدجرد » ملك الفرس وانتهى الحال على خروج رستم فى مائة الف أو يزيدون لقتال المسلمين

فلما علم سعد أمير جيش المسلمين خبر رستم أرسل عمرو بن معدى كرب الزبيدى وطليحة بن خويلد الاسدى يستكشفان خبر الجيش فلم يسيرا الا قليلا حتى رأوا سرح العدو منتشرا على الطفوف فرجع عمرو وظل طليحة سائراً حتى دخل جيش الفرس وعلم حقيقة مافيه ورجع

تلاقى الجيشان ووقعت وقعة «القادسية» التى استمرت أياما وليالى ولم يكن أشد على المسلمين من الفيلة انفار خيل العرب منها وأشدها ليلة الهرير

---

(١) قرية قرب الكوفة ينزل بها حاج الكوفة الآن

التي حاربت فيها العرب والفرس من أذان العشاء حتى قام قائم الظهيرة وترك المسلمون فيها الكلام فلا تسمع الا صوت الحديد كأنما ساحة القتال سوق القيون وانتهى الامر بهزيمة الفرس التي لم يسمع بمثلها وأخذت تلك الراية العظمى وقتل فيها رستم مع الكثير من مشاهير الفرس وقوادهم وباد عسكرهم قتلا وغرقا وأصبح أمر فارس بعد ما لاقته من العرب فشلا لم تغن عنها الرجال ولا الافيال ولا الاقيال

مكث سعد ريثما استراح جيشه ثم قام عازما على فتح المدائن فسار يفتح البلاد التى فى طريقه ففتح (البرس) و (بابل) والله ينصرهم بالرعب والفرس مدحورون لانهزامهم في واقعة القادسية فى أسرع من لفت الرداء وناهيك بقتال من ملئ رعبا فهربت قوادهم قصد أحدهم (نهاوند) والثانى (الاهواز) وبقية المهزومين قصدوا المدائن فتتبعتهم العرب تشردهم وتشتتهم ويفتحون مايلاقونه ففتحوا (كونى) و (ساباط) وصالحوا أميرها على الجزية ثم سار الجيش قاصداً المدينة الغربية فرأى المسلمون ايوان كسري يلوح امامهم أبيض ناصعا فتذكروا وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على مارواه مسلم عن جابر بن سمرة ان رسول الله قال (عصيبة من المسلمين يفتتحون البيت الابيض بيت كسرى أو آل كسرى) فقويت قلوبهم وعظمت همتهم وازداد اقبالهم واشتاقت نفوسهم الى أن يكونوا تلك (العصيبة) المعنية بالذكر في حديثه صلى الله عليه وسلم فنادى ضرار بن الخطاب (الله اكبر) هذا أبيض كسرى هذا ماوعد الرحمن وصدق رسوله وكبر المسلمون وحاصروا المدينة وفتحت القرى المجاورة . وقد جمعت الفرس المعابر الا معبرة واحدة أو مخاضة تصلح للعبور

دل المسلمين عليها أحدهم فعزم سعد على قطعها . فأمر فعبرت جماعة منهم (عدى) ليحمى الفراض حتى يعبر المسلمون . ثم أمر المسلمين فعبروا فلم يلتفت الفرس الا والفراض محمية والمسلمون يعبرون وقد سقطت الفرس فى أيديهم فهرب « يزدجرد » الى حلوان [١] ودخل المسلمون المدينة من غير معارض ونزل سعد القصر الأبيض واتخذه مصلى وصلى وقرأ فى صلاته قوله تعالى « كم تركوا من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين » وأرسلوا البشائر والغنائم لأمير المؤمنين فلما رأى رضى الله عنه ذخائر كسرى قال (ان قوما أدوا هذا لذو أمانة) فقال له على (انك عففت فعفت الرعية) ثم فتحت (جلالاء) وترك يزدجرد حلوان هاربا وسار الى الرى وفتحت (تيكريت) و (نينوى) و (الموصل) و (ماسبذان) و (هيت)

ثم مكثت « المدائن » قاعدة أعمال العراق زمنا حتى رأى سيدنا عمر فى وجوه العرب تغيراً وفى أبدانهم ضعفا فأمر سعدا أن يرتاد منزلا فاختار الكوفة [٢] بعد اختيار واختطت وبنيت دورها باللبن وجعل النهج (الشارع الاعظم) ٤٠ ذراعا وما يليه ٣٠ ذراعا وما بين ذلك ٢٠ ذراعاً والازقة ٧ أذرع وأسس مسجدها وصارت قاعدة أعمال العراق وتتبع لها من أعمال الفرس الباب واذربيجان . وهمدان . والرى . واصبهان وماه والموصل . وقرقيساء . وكلها فى الجهة الشمالية

ثم فتحت « تستر » فتحها جيش البصرة . ثم السوس وواقعة نهاوند

---

(١) بلدة بينها وبين بغداد أربعة مراحل وهى تنتهى العراق شرقا

(٢) ومعناها الرملة الحمراء المستديرة أو التى يخالطها حصباء

وتم الانسياح فى بلاد العجم لضعف شوكة الفرس فاصبح سيدنا عمر أمير المؤمنين لايخاف على المسلمين شيئاً من توغلهم في البلاد فعقد الالوية وسارت الجيوش حتى فتحوا تبريزو (الباب) وهو (الفاصل بين الفرس وأرمينيه ودولة الروسيا) وسار الاحنف الى خراسان ليلاقى « يزدجرد » الذى أقام (بمرو) يثير الفرس على المسلمين فبلغ (هراة) من بلاد الافغان فافتتحها وسار نحو (مرو الشاه جان)وكتب الى خاقان ملك الترك والى ملك الصغد وملك الصين يستمدهما فلم يغنياه شيئاً ثم افتتحوا . كرمان. وسجستان ومكران وانتهوا الى دوين النهر الى الحدود بين الفرس والسند

الى هنا انتهى ما فعله المسلمون بالبلاد الفارسية جئنا منه بنتف مختصرة تدلك على غايته مفصلا

لاشك ان الاشراق النبوي كان ملازما لهؤلاء الفاتحين والمدد المحمدى يمدهم والافكيف تبتدىء هذه الحروب سنة اثنتي عشرة من الهجرة بفتح أول بلد من بلادهم وهى (الأبلة) من حدود بلاد العرب غربا وتنتهى الى ماوراء النهر وبلاد السند شرقا والخليج الفارسى جنوبا وبحر الخزر وأرمينيه والروس شمالا فى هذه المدة التى لا تكفى مرتاداً يريد ان يتعرف طبيعة هذه البلاد لشدة جسامتها

جاء (الهرمزان) المدينة ولاقى سيدنا عمر بن الخطاب وقال له فيما قال (ياعمر كنا وإياكم فى الجاهلية كأن الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم فلما كان الآن معكم غلبتمونا فقال له عمر انما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا) لم ينكر سيدنا عمر بن الخطاب غلبتهم للعرب ولم ينكر السبب فانظر لهذا الائتلاف والاتحاد فى القلوب كيف جعلها قلباواحدا تتحرى

رأى واحد وان كانت فى أجساد مختلفة

عم الدين الاسلامى فجمع الحائدين للصراط السوى والمنهج القويم وأخرج الناس من الظلمات الى النور ومن جور الملوك الى عدل الاسلام

اجتمع الفرس والعرب فى وقائع كثيرة مشهورة ولم ينكسر لقوادهم راية . ولم يفل لهم جيش . ولم ير المسلمون في واقعة من الوقائع مساوين لاقرانهم فى العدد والعدد بل كانت الفرس فى كل واقعة أضعاف العرب. فما هذا الحال العجيب والنصر الغريب الذى لو أضيف اليه ماهو محقق باليقين في الفرس من المهارة فى تعبية الجيوش وإحكام معدات الدفاع ووفرة الاموال والعلم بطرق الدسائس والخداع لعدت مغلوبيتهم نادرة وغلبة العرب معجزة . انظر لنور الايمان الذى سطع فأزال كل مايلحق النفوس من الجبن . والذل . والخوف . وصرف الايدى عن النهب والغارة وانظر للقواد الذين لايخشون تهديداً ولا وعيداً ولم يسلكوا بالامة مسلك الاهواء لانهم لم يكونوا دخلاء يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم كانوا متفانين فى حب الدين ليس لهم شأن الا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وترك الزهو والكبرياء وحب الدنيا

هذه يد بيضاء فعلت فى الفرس ماتبين لك أمره فانظر لاختها كيف كان أثرها أيضا مع دولة الروم

قلنا فى أول الكلام اننا تركنا المسلمين فى حرب جيش الروم باليرموك بعد موقعتها الهائلة وهزيمة الروم عنها وأمير الجند أمين الامة أبو عبيدة عامر بن الجراح

بلغه رضى الله عنه ان مدداً أتى دمشق فحصرها المسلمون . أبو عبيدة

من جهة وخالد بن الوليد من أخرى ودام الحصار سبعين ليلة حتى فتحت، وفتح بعدها . حمص . وحماه والمعره واللاذقية وحلب . وقنسرين . حتى وصلوا الى قرب انطاكيه

ثم بدا لسيدنا عمر أن يطوف على المسلمين فى بلدانهم لينظر آثارهم فسار عن المدينة ومعه غلام وبعير واستخلف عليها سيدنا على بن أبى طالب وقدم الشام فسد فروجها ورتب صوائفها وشواتيها [1] واستعمل سيدنا معاوية على دمشق وعزل شرحبيل عن الاردن وقال ماعزلته عن خيانة ولا جور ولكن أريد رجلا أقوي من رجل

ثم قيل له لو أمرت بلالا فأذن فأمره فأذن فلم يبق أحد أدرك النبى صلى الله عليه وسلم الا بكى حتى بل لحيته وعمر أشد الناس بكاء

ثم استأذنه عمرو بن العاص فى فتح مصر وذكر له خبرها وانها قوة عظيمة لمملكة الروم وكان عليها وال من قبلها يقيم بالاسكندرية . فسيره . فقام لها بجيش كثيف ثم اتبعه الزبير بن العوام وفتحت وعاقد أهلها على الأمان ونزل المسلمون «الفسطاط» واختطوا حوله وأسس عمرو مدينته وشيد مسجده ثم سار الا الاسكندرية واجتمع له بينها وبين الفسطاط جماعة من الروم والقبط فأثخنهم ثم وصل الى الاسكندرية وطلب من أهلها النزول على صلح مصر فلم يقبلوا ففتحها عنوة وغنم ما فيها وجعلهم ذمة وارتحل الروم الى القسطنطينية وأقام المقوقس والقبط على الصلح الذي عقده لهم عمرو وأبقى المقوقس على رئاسة قومه وكان المسلمون يشاورونه فيما ينزل من المهمات الى ان توفى وكان يقيم بعض الاوقات باسكندرية

(١) (الصوائف والشواتى) هي السريات التى تحارب صيفا وشتاء

وفى بعض الاوقات بمنف بمصر

وبفتح مصر انتهى مافعله المسلمون أيضا مع الروم فى مدة سيدنا عمر . أخـذوا ولايتين عظيمتين . الشام . ومصر وجزأ من الاناضول وبالاجمال أضعفوا شوكتهم وازلواملكهم وأذلوا دولتهم

انظر لهـذه الفتوحات التى أطاش أمرها الاحلام وحير الأفكار والافهام وتأمل لمنصب الخلافة الحقيقية في تلك الايام وما يحف جماعـة المسلمين من حرية فى دين وعلم فى يقين وسعة فى الوسائل المدنية الحقة والامة قريرة العين بما تغنمه من نهضات الهمم بالفتح والاصلاح والامور مستقيمة على مثل مادعا اليه الاسلام . ونوره ساطع على الديار التى بلغها أهـله والقلوب تفيض غيرة منـه والالسنـة تتدفق فصاحة به وكأنما المسلمون ربيع يساقون الى جدب فلم ينزلوا أرضا حتى يحيي الله مواتهـا بهم وينقع غلتها ببركتهم

انظر لمقام الخلافة مقام النيابة عن رسول الله تراه مشغولا بحراسة الدين وسياسة الدنيا مستمدا لافعاله وأعماله وأقواله من كتاب الله تعالى الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والامة باذلة له الطاعـة في سرها وجهرها وهو لايعتقد فى نفسه انه أرقى درجة منها. يقول سيدنا أبو بكر (قد وليت عليكم ولست بخيركم) والفاروق رضى الله عنه يقول (من رأى فىّ اعوجاجا فليقومه) وحاله بين المسلمين فى مالهم وجبايتهم وخراجهم كوصى اليتيم ان استغنى استعفف وان افتقر أكل بالمعروف . وشغله بعد هذا النظر فى طلبات الرعية وتفقد أحوال البائسين من الامة حتى لايكون لاحد عليه حجة يوم لاينفع مال ولا بنون فتراه يحمل الدقيق

على ظهره ليوصله الى الفقراء والمساكين أو يدرك بالطعام صبية يتضاغون وأمهم تلهيهم حتى يناموا وهو رضى الله عنه (غلق الفتنة) كما قال صلى الله عليه وسلم . لا يزال بين المسلمين وبين الفتنة باب شديد الغلق ما عاش هذا بين أظهرهم

وأركان الدين قائمة . الصلاة الصلاة . امامة المسلمين فى الصلاة راجعة الى أرفع وظائفه . (والزكاة) القاطعة لكل احتيال بين افراد الامة فلا سلب ولا سرقة ولا ضغينة تولدها عداوة . والحج من بقاع الارض يجددون به للامير عهدهم ويشهرون طاعتهم والصوم الذي به تتهذب النفوس وتذوق به الاغنياء مرارة الفقر فترحم الفقراء . والحدود قائمة لايختل نظامها أبداً والجهاد على ماعلمت من أخبار هذا الفتوح

انظر لمواضع الشبه والنزعات الفكرية تجدها واقفة عند حد سلامة الاعتقاد . والفقه عبارة عن علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الاعمال وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع الى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب (ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) . والتوحيد عبارة عن أن يرى الموحد الامور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الاسباب والوسائط وهكذا والناس فى شغل شاغل بنصرة دين الله والاجتهاد فى تعميم أمره عن المشاحنة فيه . ماذا يعده الدهر الخؤون من البلايا والمصائب ينزل بها على المسلمين وهم في أهنأ أوقات حياتهم وزيادة عزهم وسلطانهم؟ وبماذا تخرج الايام عليهم وقد ظفروا بكل مااشتهوا ونالوا جميع ما ابتغوا فتحرمهم لذة ماذاقوا وتقطع عليهم مايتذوقوا؟ أى مصيبة تمدها الليالى

افسادا لحفاظ هذا النظام وسلبا لروح هذا البقاء ؟

﴿ مقتل سيدنا عمر بن الخطاب ﴾

ليس بعد المصيبة برسول الله أعظم وأكبر منها به قاصم الظهور وجائح النفوس

نزعت نفس الشقي أبو لؤلؤة المجوسي نزعة كانت من أشأم النزعات على العالم الانساني . قوضت الاصل وخرمت العلائق بين الصحب والاهل ولا حول ولا قوة الا بالله

أتت مصيبة على المسلمين وكأنهم لم يسمعوا بالمصائب ويجهلون طرق العزاء فيها فأدهشتهم . فهم الى انهم مذهولون منها أكثر مما هم محزونون

أصيب رضى الله عنه في المسجد بعد ما كبر . سمع عنه يقول قتلني أو أكلني (الكلاب) حين طعنه أبو لؤلؤة . وهو غلام مجوسي كان بعثه المغيره بن شعبة وهو على الكوفة لما يعلمه من الصنائع والاعمال التى فيها منافع للناس فضرب عليه مائة درهم في الشهر فاشتكى الى عمر رضى الله عنه فقال له ماخراجك بكثير فانصرف ساخطا يتذمر ثم بعد أيام سأله عمر رضى الله عنه عن رحى تطحن بالريح كان أوصاه عليها فقال له سأصنع لك رحى يتحدث الناس بها فقال عمر لاصحابه لقد أوعدني العبد . ثم كان منه الذى كان من طعنه بخنجره وطعن كل من يمر عليه في المسجد يمينا وشمالا حتى لقد طعن ثلاثة عشر رجلا مات منهم سبعة ثم انتحر

نظر عمر رضى الله عنه فيما عليه من الدين وأوصى بوفائه ثم استأذن عائشة رضى الله عنها ان يدفن مع صاحبيه فاذنت له ثم قيل له اوص يا أمير المؤمنين قال لا أتحملها حياً وميتاً ان استخلفت فقد استخلف من هو خير مني (يعني أبا بكر) وان أترككم فقد ترككم من هو خير منى (يعني

رسول الله صلى الله عليه وسلم) ثم قال فأوصى بالانصار خيرا والمهاجرين والاعراب واستقبل الله بقلب سليم رضى الله عنه وأرضاه

﴿ سيدنا عثمان بن عفان ﴾

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي القرشى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى الاموى

ولد فى السنة السادسة من الفيل وأسلم قديماً وهو ممن أجابوا دعوة الصديق حين دعاهم للاسلام وهاجر الهجرتين الاولى الى الحبشة والثانية الى المدينة . وشهد المشاهد كلها (الآ بدرا) لشغله بتمريض زوجته بنت رسول الله وأسهم له رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غنيمتها وزوجه بنته الثانية ولا يعرف أحد تزوج بنتى نبى غيره ولذلك سمى ذا النورين فهو من السابقين الاولين وله خصائص جميلة منها انه هو أول المهاجرين. وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة . وأحد الستة الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض . وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن . (جمع الناس على مصحف واحد) .

وله أوليات . منها . انه أول من أقطع القطائع . وخفض صوته بالتكبير وخلق المسجد . وأمر بالاذان الاول يوم الجمعة . وأول من قدم الخطبة فى العيد على الصلاة . وأول من فوض للناس اخراج زكاتهم . وأول من اتخذ صاحب شرطة . وأول من اتخذ فى المسجد مقصورة . مخافة أن يصيبه ما أصاب عمر (وما أغنى حذر)

بويع له بالخلافة بعد مادفن عمر بثلاث ليال والناس تستشير وتختلف الى

عبد الرحمن بن عوف يشاورونه ويناجونه في من يلي منصب الخلافة. ولا يخلو به رجل ويعدل بعثمان أحداً وكذلك كان رأي اكثر أعيان الصحابة وأغلبية الشورى

شب عثمان رضى الله عنه على الاخلاق الكريمة والسيرة الحسنة والحياء الذي خصه الله منه بأجل السهام وضرب له فيه بأوفر الحظوظ والاقسام حتى كانت تستحي منه الملائكة . كانت له اليد البيضاء في تجهيز جيش العسرة الى تبوك فقد أنفق من ماله مالا يجود به غيره وحفر بئر (رومة) وتصدق بها وكان رشاؤه فيها كرشاء واحد من الناس

زاد في مسجد المدينة ووسعه وبناه بالحجارة وجعل عمده من الحجارة وسقفه بالساج وجعل طوله ١٦٠ ذراعا وعرضه ١٥٠ ذراعا وناهيك برجل ما مرت به جمعة منذ أسلم حتى أعتق فيها رقبة . كان عاملا أمينا للخليفتين رضى الله عنهما بعد النبي صلى الله عليه وسلم . وعمل في خلافته ست سنين لا ينقم عليه أحد وكان أحب لقريش من عمر بن الخطاب . لان لهم ووصلهم وفعل معهم خيراً

﴿ أعماله في خلافته ﴾

في حفظ القارئ اننا ذكرنا ما وصلنا اليه من أمر عسكر المسلمين الفاتحين في مملكتي الروم والفرس في عهد الخليفتين الصديق والفاروق . ولنذكر الآن مازاد على ذلك من الفتح في أيام الخليفة ذي النورين وما جري في هذه البلاد

﴿ الكوفه ﴾

استفتح سيدنا عثمان في بدء خلافته باستعمال سعد بن أبي وقاص عليها عملا بوصية عمر رضى الله عنه ثم عزله لخلاف وقع بينه وبين ابن مسعود

الذى كان على خراج الكوفة . وعين بعده الوليد الاموى وعزل عتبة بن فرقد عن (اذربيجان) فانتقض أهلها فغزاهم الوليد وأغار على أهل (موقان) و (الطيلسان) ففتح وغنم وصالح كور (اذربيجان) وسير جيشا الى أهل ارمينية فشتتهم وأقام والياً على الكوفة حتى شرب خمراً وشهدت عليه جماعة فافتى على رضى الله عنه بعزله بعد جلده فعزله عثمان وجلده وولى مكانه سعيد بن العاص فقبلها على كره لانه ممن أحس بالفتنة هناك خصوصا وقد حمله عثمان رضى الله عنه على تفضيل أهل السابقة . والقدم . ومن فتح الله على يده تلك البلاد

فشت القالة فى الكوفة فى حق سيدنا عثمان وسعيد عامله رضى الله عنهما . ثم سار الكوفيون لفتح (طبرستان) ففتحوها فلما بلغوا (اذربيجان) تلاقوا بجيوش الشام وكانت بلية حب الرئاسة دبت في النفوس واستقرت فى الصدور بسبب التنافس في الاغراض . فاختصم رجال الجيش . ثم وقع من الكوفيين ما وقع من الاستخفاف بأولياء أمورهم وكثرت وقائعهم فحملت رؤساؤهم الى الشام لمعاوية رضى الله عنه فلم تفدهم نصيحته فبعثوهم الى (حمص) لعبد الرحمن خالد بن الوليد فأدبهم ثم اتفق أهل الكوفة على خلع سعيد فخلع وتولى أبو موسى وبقى مع أهل الكوفة ينازعهم وينازعونه حتى مات سيدنا عثمان

﴿ البصرة ﴾

وكان والى البصرة « أبو موسى الأشعرى » فعزله أيضا وولى عبد الله ابن عامر فبعد قليل انتقض أهل فارس على أميرهم عبد الله وقتلوه ثم غدرت

أهل « اصطخر . وخراسان » فسار اليهما عبد بن عامر وصالح أهلهما ثم انتقل لغيرهما من البلاد حتي مكن الله الامن فى تلك الجهات وبينما هو كذلك واذا بعبد الله بن سبأ اليهودي نزل على حكيم بن جبلة العبدي بأراء غير مقبولة فأوغر الصدور على سيدنا عثمان ثم طردوه فدار الامصار حتي أتى مصر وكان من أكبر الاسباب التى دعت لشق الطاعة فيها والافتراق والاختلاف

﴿ الشام ﴾

أما الشام فقد كان جمعها في أول خلافته رضى الله عنه لمعاوية بن أبى سفيان فقام بالغزوات البرية والبحرية حتى بلغ عمورية وتمكن من الحصون التى بينها وبين طرسوس وانطاكية ثم افتتح (جزيرة قبرص) وكان المستعمل على غزو البحر عبدالله بن قيس فغزا خمسين غزوة لم ينكب فيها ثم قارب طليعة فانتهى لمرفأ من الروم فجاؤا فقتلوه وبينما الحال كذلك خرج أبو ذر الغفارى في الشام بمذهب يشبه مذهب الاشتراكيين (استغفر الله العظيم) الآن لانه كان ينادي يا معشر الاغنياء واسوا الفقراء وكان يستدل بقوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) فشكا الاغنياء ما يلقونه لمعاوية وحق لهم أن يشكوا لان أول واجب على أهل السلطان تأمين الناس على حياتهم واعراضهم وأموالهم وهذا الحال من أكبر مواضع الخوف فكتب الى عثمان رضى الله عنه فى شأنه بما

كتب فطلب منه أن يشخصه اليه فلما وصل المدينة ولاقى سيدنا عثمان رأى الاولى به أن يسيره الى الربذة [1] فأقطعه قطعـة من الابل وأقام منفرداً الى أن مات

﴿ مصر ﴾

أما مصر فقد كان فيها فاتحها عمرو بن العاص فجعله سيدنا عثمان على الجند وولى عبد الله بن سعد خراجها فلم يتفقا فجمع سيدنا عثمان لابن سعد الخراج والجند وعزل ابن العاص عنها ثم رأى أن يغزو افريقيا فسير جيشا للغزو فيها وفتح ما شاء ان يفتح وقتل جرجير ملـكها وما كاد هذا الحال يتسع ويستقر حتى وصلها عبد الله بن سبأ يحمل أسباب الفتنة ودواعى الشر كما سيجيء اليك

﴿ فصل ﴾

تأمل تجد في كل مصر من الامصار بادرة كأن الدين وقع في يد من لا يفهمه أو فهمه وتغالى فيه أو لم يمتزج حبه بقلبه أو امتزج ولـكن ضيق عقله ضل عن تصريفه . أو كانما افتكت من المسامين العزيمة الاصلية أو اختلت دعائم الاعتقاد القديم فاما إفراط باسم الدين كمقالة أبي ذر الغفارى التي لا تنطبق على مصالح البشر واما تفريط كالكلام في التنفير والانحراف عن سيدنا عثمان رضى الله عنه كدعوي عبد الله بن سبأ (والعياذ بالله)

يعجب الانسان ان أهل الدعوي للخير أصبحوا وليس لهم قدرة في

---

(١) موضع قرب المدينة

استعمال أي ضرب من ضروب القوة فى حمل الأمة على الآداب الدينية
كأن نورها الذى كان اخترق القلوب نفذ منها

ساءت حال أمة انتقل بأسها من أعدائها لنفسهافهي أقرب الى الفوضى من الاصلاح وادعى للتفرقة من الالتئام والسبب العظيم لهـذا البلاء الجسيم هى الفتن لعن الله مثيرها . ولذلك قال تعالى (الفتنة أشد من القتل) وقال واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وقيل في الأثر (الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها)

قلنا ان سيدنا عثمان ولى الخلافة واستمر ست سنين لا ينقم الناس عليه شيئاً وانه لأحب الى قريش من سيدنا عمر بن الخطاب لأن عمر رضى عنه كان شديداً عليهم فلما وليهم عثمان لان لهم ووصلهم ثم توانى فى أمر بعضهم لما رآه فيهم .

اضطرت حالة ظهور القالة وفشو المنكر في الامصار ان يستعمل عليها أقرباءه وأهل بيته فى الست الاواخر من عهد خلافته لاختصاص أولئك به أكثر من غيرهم فكان هذا العلاج من دواعي استفحال الداء وزيادة الانحراف عن باب الخلافة

استكمل الفتح الأمة . واستكمل الملك . ونزل العرب بالأمصار على حدود مابينهم وبين الامم من البصرة والكوفة ومصر فالمختصون بصحابة رسول الله وهم المهاجرون والأنصار من قريش وأهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم يمتون بذلك ويتشرفون به (ونعم الشرف) وسائر العرب الذين كان لهم في الفتوحات قدم يرون لانفسهم فضلا ويفخرون به (وحق لهم الفخر) . نبههم لذلك وألفتهم لمعنى التفضيل والسابقة

انغلاق باب الفتوح وتناسى ذلك الحال وذل العدو وزواله واستفحال الدعوة الاسلامية لهم وعظم ملكها فيهم فأخذت عروق الجاهلية تنبض وأنوف نفوسهم تشمخ .

وافق ذلك أياما من أواخر عهد سيدنا عثمان وقد كانوا أخذوا عليه قبلها اخراج أبي ذر الغفارى الى الربذة (وقد سمعت خبره) وزيادة النداء الثالث يوم الجمعة (وانما فعله لكثرة المسلمين وانتشارهم في انحاء المدينة) واتمامه الصلاة فى منى وعرفة وكان الامر فى عهد رسول الله والخليفتين على القصر . (وعذره فى ذلك ان حاج اليمن جعل صلاة المقيم ركعتين من أجل صلاته رضى الله عنه فلم يرض بذلك لمن اتخذ بمكة أهلا وله بالطائف مال) . وتنازله لمروان بن الحكم عن خمس مغانم أفريقية ولم يمنع الشرع ان ينفل من شاء من المسلمين وقد كان رسول الله ينفل نقموا هذه الامور على سيدنا عثمان ولم يكن فيها ما يشينه ولم يخرج فى شيء منها عن حدود الشرع ولكن أولئك قوم بطروا فطلبوا لانفسهم ماليس لهم فحقت عليهم العقوبة

قال الامام العينى في تاريخه عقود الجمان (وقد ذكر السبب في ذلك ما معناه روى أرباب السير منهم هشام . والواقدى . وسيف . وغيرهم عن عقبة عن يزيد الفقعسى . كان عبد الله بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء وأمه يهودية سوداء أسلم فى أول خلافة سيدنا عثمان بن عفان وكان قصده بوار الاسلام . كان يتنقل في البلدان يحاول الفتنة فطاف الحجاز والشام والعراق ومصر وطاف كورها وأظهر الامر بالمعروف وهو ينفر الناس من عثمان فخرج معه جماعة من مصر من أهل خربتا وهو أول وفد

قدم المدينة يحاسب سيدنا عثمان على أعمال عماله الامويين بالامصار

دارت رحى الفتنة فى المدينة وملؤها كلاما فى حق أمراء الامصار وبعث سيدنا عثمان الى عماله ان يوافوا الموسم فقدموا عليه وهم عبد الله بن عامر أمير البصرة . وعبد الله بن سعد أمير مصر . ومعاوية بن أبي سفيان أمير الشام وبعد كلام كان معهم استشارهم فى تسكين هذه الفتنة فقال عبد الله بن عامر (اشغلهم بالجهاد) وقال ابن سعد (اصلحهم بالمال). وقال معاوية (اجعل كفايتهم لامرائهم وأنا أكفيك الشام) وقال عمرو (أري انك قد لنت ورضيت عليهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى أن تلزم طريق صاحبيك فتشتد فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين) فقال سيدنا عثمان قد سمعت كل ما أشرتم به ولكل أمر باب يؤتى منه . ان هذا الامر الذى يخاف منه على هذه الامة كائن وان بابه الذي يغلق عليه فيفتحن فنكفكفه باللين الا في حدود الله فان فتح فلا يكونن لاحد علىّ حجة وقد علم الله انى لم آل الناس خيراً وان رحى الفتنة دائرة فطوبى لعثمان ان مات ولم يحركها . سكنوا الناس . وهبوا لهم حقوقهم فاذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا ثم نفر ونفر الامراء الى بلادهم

أما أصحاب الفتنة الناقمون على عمال الامصار المنحرفون عن عثمان فلم يرتدعوا عن غيهم وجاءتهم كتب من المنحرفين بالمدينة يقولون لهم فيها اقدموا علينا فان الجهاد عندنا فاتعد جميعهم شوال يخرجون فيه مظهرين الحج .

اجتمع الكل بالمدينة ٥٠٠ من مصر وعليهم الغافقى بن حرب ومثلهم من الكوفة وكذلك من أهل البصرة . وكل هذه الطوائف متفقة على

الانحراف على عثمان (مختلفة فيمن يتولى الخلافة بعده) لكل منهم رأى وهوى فالكوفيون يريدون طلحة بن عبيد الله. والبصريون الزبير بن العوام والمصريون « عليا » فجاء كل قبيلة لمن لهم فيه هوى وسلموا عليه وعرضوا عليه أمرهم وأتى أهل مصر « عليا » فسلموا عليه وعرضوا أمرهم فصاح بالمصريين وطردهم وقال لقد علم الصالحون انكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم وكذلك قال طلحة والزبير. ثم استقر الحال على الاذعان بما طلبوه من اعفائهم من العمال الذين يطلبون عزلهم واستعمل على مصر محمد بن أبي بكر وكتب له عهده وخرج محمد ومن معه يريدون مصر وانصرف الجميع مظهرين الرجوع

لم تتفرق أهل المدينة الا والتكبير فى نواحيها وقد أحيط بدار عثمان ونودي من كف يده فهو آمن فلزم الناس بيوتهم واستغربوا من رجوع الثوار بعد الاذعان وجاء محمد بن مسلمة المصريين وقال لهم ما الذى ارجعكم بعد ذهابكم فقالوا أخذنا كتابا من البريد مع خادم عثمان لعامل مصر يأمره فيه بقتلنا فسأل البصريين عن مجيئهم فقالوا لنصر اخواننا وكذلك قال الكوفيون فقال كيف علمتم بما لقى أهل مصر وكلكم من صاحبه على مراحل حتى رجعتم الينا جميعا (هذا أمر أبرم بليل) فقالوا اجعلوه كيف شئتم لا حاجة لنا بهذا الرجل ليعتزلنا فاخذوا منهم الكتاب. فاذا هو من سيدنا عثمان الى عبد الله بن أبى سرح. يقول له فيه اذا أتاك محمد وفلان وفلان فاحتل فى قتلهم. فقالوا لهم وكيف اتصل بكم هذا الكتاب قالوا بينما نحن مع محمد بن أبى بكر على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة واذا بغلام أسود على بعير يخبط البعير خبطا كأنه رجل يطاب أو يطلب

فقلنا له ما قصتك وما شأنك كأنك هارب أو طالب فتلجج ومرة يقول انا غلام أمير المؤمنين ومرة يقول أنا غلام مروان ففتشناه فوجدنا معه اداوة يبست فيها شيء يقلقل فشققناها فاذا فيها ذلك الكتاب . فلم يبق أحد من أهل المدينة الا حنق على سيدنا عثمان وسألوه فى ذلك فقال والله ما كتبت ولا أمرت ولا علمت فقال «على» ومن معه من كبار الصحابة صدق عثمان فقال المصريون اذاً من كتبه فقال عثمان لا ادري قالوا فيجترأ عليك . ويبعث غلامك . وجمل من أبل الصدقة . وينقش على خاتمك . ويكتب الى عاملك بهذه الامور العظيمة وأنت لاتدرى . قال نعم قالوا ماأنت الا (صادق) أو (كاذب) فان كنت كاذبا فقد استحققت الخلع لما أمرت به من قتلنا وان كنت صادقا فقد استحققت الخلع لضعفك عن هذا الامر ولا ينبغى ان يترك هذا الامر بيد من تقطع الامور دونه فاخلع نفسك فقال لا أخلع قميصا ألبسنيه الله

امتد الشقاق بقوة سلطان المغالبين فلم يلهم الله أحدا ان يحقق أمر هذا الكتاب ويبين للناس ما اختلفوا فيه ويكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه . أو يتفكر فى كيفية رجوع هذه الفرق معاً بعد افتراقها وبعد سلوكها طرقا مختلفة . أو يكشف الغطاء عن ذلك السم السارى من قديم الذى دعى مثل عبد الله بن سبأ للخروج والتجول في الامصار . أو يوفق الله جماعة الصحابة الى الوقوف أمام هذه الفتنة وقد كشرت عن نابها بل ضاع السداد وضعف الرشاد وقامت نزعة الحرب بين أهل الدين وقد كان اطفاء مثل هذه النار من أسهل الامور قبل ذلك على أى رجل من الجمهور الاسلامى

دافع سيدنا عثمان رضى الله عنه كثيراً عن نفسه وكتب للناس كتابا قرأه عليهم ابن عباس يوم التروية وأكثر من الرضوخ الى مطالبهم وكلما سد بابا فتحوا غيره . حتى منعوا عنه الماء فجاءهم على رضى الله عنه فقال يأيها الناس كيف تقطعون الماء والمادة والروم وفارس لتأسر وتطعم وتسقى فقالوا والله ولا نعمة عين

ثم أن الثوار منعوا الناس عن مخالطته ومكالمته وقصدوا باب داره وحصروه فقاتلهم جمع من أولاد الصحابة فأمر عثمان بالكف عن القتال (انظر الى وازع الدين الذى كان فى نفس هذا الخليفة رضى الله عنه جعله يؤثره على أمور الدنيا وان أفضى ذلك للهلاك وحده دون الكافة فمنع المقاتلين عنه) ثم جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة وحفظا للالفة التى بها حفظ الكلمة ولو أدى ذلك لهلاكه

ثم أحرق الثوار الباب ودخلوا عليه وهو يقرأ القرآن فلم يشغله ما رأى عن تلاوته ثم قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد الى عهداً فأنا صابر عليه ولم يحرقوا الباب الا وهم يريدون أعظم منه وأمرهم بالانصراف ثم دخل على عثمان الذين كتب عليهم الشقاء فقتلوا هذه النفس الزكية

قتلوا خليفتهم . وزوج بنتى نبيهم . ذى النورين قتلوه ظلما . فقاتله ظالم . وخاذله معذور . مات شهيداً مبشرا بالجنة على بلوى واختبار بعد السب والتعطيش والحصر الشديد والمنع من القوت . وأطنوا (١) أصبعين

---

(١) أطن أصبعه قطعه

من أصابع زوجته ولم يكن ما فعله من تجهيز جيش العسرة وحمد رسول الله مسعاته وقوله له ما على عثمان بن عفان ماعمل بعد اليوم ولا على احتجاجه عليهم ولا الخامه رادعا لهم ولا كاسرا من غربهم حتى وطئوا أضلاعه بعد موته والقوا على التراب جسده بعد سحبه ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

نعم . قد قرر الاسلام العبودية لله وحده والحرية فى ضمن دائرة الشريعة المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات واطلاق الارادة والفكر من سلطة كل زعيم وسيطرة كل رئيس ومقتضى ذلك ان يكون المسلم عبدا كاملا لله حرا كاملا بالنسبة لما سواه

نعم .كان الصحابة يراجعون النبي صلي الله عليه وسلم الرأى قائلين له هل هذا شيء قلته من عندك يارسول الله أونزل به وحى فأن قال هو من عندى جاؤا بما عندهم من الرأى وربما رجع النبي الى رأيهم كما قد جرى فى بعض الغزوات والامور المعاشية وقوله صلى الله عليه وسلم (أنتم أعلم بأمور دنياكم)

نعم وقع أبلغ من هذا ان النبى صلى الله عليه وسلم طعن سواد بن غزية بقدح [1] فى بطنه وهو مكشوف ليستوى فى الصف يوم بدر فقال قد أوجعتنى فأقدنى فكشف له عن بطنه وآذن للناس قبل موته بان من له حق عنده فليطلبه واذا كان نحو ضرب فليقتص منه . وأذن لرجل ان يضربه حين ادعى انه ضربه يوما فقال انى كنت عارى الكتف أو الظهر فالقى الرداء عن عاتقه الشريف . وشأن الرجلين ان يتمسحا به ويتوصلا

(١) سهم لا نصل له

لهذا الشرف العظيم . نعم . ان الصديق . والفاروق . اقتديا بالنبى صلى الله عليه وسلم فى مثل هذه الاعمال فاوقف سيدنا عمر بن الخطاب « عليا » مع رجل من آحاد اليهود للمحاكمة فعاتبه (على رضى الله عنه) بعد المحاكمة بان لم يسو بينه وبين خصمه . كناه هو . وسمي ذاك وفى التكنية تعظيم وراجعته امرأة وهو على المنبر في مسألة تحديد المهر محتجة بآية (وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا) فقال أصابت امرأة واخطأ عمر

كان هـذا كله وحسن التربية شائع فى الامة على منهاج الكتاب والسنة وكل فرد حاصل على دقائق الأدب . والتهذيب علماً وعملا وتخلقا وتحققا جار على أكمل نمط . وطهارة الظاهر تحاكى طهارة الباطن صافية عن الكدر . والآداب راقيـة بذويها وأهلها الى مصاف الملك فضلا عن البشر

أهين بهذا التطرف والغلو فى الافتئات مقام الخلافة الذى كان حفاظ الدين وكانت تلك الصدمة الاولى . أهين ذلك المنصب الشريف الذى كان اليه المرجع في حل المشكلات . والضياء في ظلمة الشبهات واحتلبوا بذلك دما لا تطير رغوته . ولا تسكن فورته ولا يكل طالبـه . وكيف يضيع دمه وقد انفصمت بذلك عروة الوحـدة وانحلت رابطة الاجتماع ونجم عن التفرق في الخلافة الافتراق فى الدين نفسـه فآلت الامة الى الشقاق وافترقت على مئات من المذاهب المختلفة وابتلى الدين وأهله بالمنازعة التى انقضى الزمان والامة تتـكلف علاجها ولا تعان عليه وصدق « على » رضى الله عنه في قوله « ان قتلته ثلموا فى الاسـلام ثلمة لا تسد الى يوم القيامـة » . ومن يرد التعدد الى توحد والافتراق الى اجتماع وهو من

وظائف الخلافة التى حدث عنها هذا الشقاق

من غص داوى بشرب الماء غصته   فكيف يصنع من قد غص بالماء

هذه نتيجة الخروج على أوليـاء الامور وأهل السلطان . فليندب المسلمون حظهم بعد هـذه البلوى التي أصابت مستقر الحقيقة بسبب الاسراف في حرية الدين والفكر الى هـذا المقدار وجعل مزاياه الشريفة من العوادى عليه بسبب سوء الاستعمال . وليتق الله كل واحد من الزعانف الذين لعبت بهم الاهواء وأشعرت قلوبهم الاعداء بمثل هذه الظنون السيئة

استقامت الدنيا فى عهد الصاحبين ففتحت الفتوحات العظيمة التى لا نزال نفاخر بها الاجيال المتأخرة ولو استمر الحال على ما كان لأمسى الدين الاسلامى نطاقا على الـكرة الارضية لا بدعوة الغلبـة والقهر على لسان السيف كما يدعون ولـكن بدعوة الحجـة والبرهان على لسان الحق ان كانوا يعقلون

هذه بعض آياته . اتفاق ووفاق . وارادة سامية . وحرية فكر مطلقة ومحافظة على الجار والجوار . ومحبة اتصلت باعماق القلوب . وجد في العمل وكراهة للقعود والـكسل . وميزان قسط قائم بالحق بين الناس . وبصيرة فى كل شىء . وقواعد عدل تمنع الاسترقاق . وتحظر الاستعباد . وحفظ عهود وصدق ووفاء . وتحريم للفواحش ما ظهر منها وما بطن فلا غدر ولا خيانة . ولا خديعـة . ولا غيـلة . والدين بين المسلمين النصيحة الخالصة يتواصلون بالحق ويتواصون بالصبر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

أية أمة ترى هذا ولا تهاجر فى طابه وتفتخر بعمله وتتباهى بالوصول

اليه ولكن قضى الله أن يسلط على الامـة شرارها فتصبح ولا تتواصى بحق ولا تعتصم بصبر ولا تتناصح في خير بل نعيش افذاذا ونعمل (ان كنا نعمل) افرادا كأن لم تجمعنا مع أحد صلة ولم تضمنا اليه وشيجة فضلا عن المذاهب المتعـددة التي انتشرت بين المسلمين وأخرجتهم عن كثير من مزايا الدين بل اوقفتهم على أبواب الكفر والزندقة والكذب على الله والزور والافتراء على أنبيائه وأوليائه واصبح الحديث بالتظني . كل واحد يأتيك منه بما ينصر مذهبه ويؤيد طريقته حتى أصبحنا والحال كما قيل عن المسلمين لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين .

﴿ سيدنا على بن أبى طالب ﴾

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي القرشى بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف وهو أول خليفة أبواه هاشميان ولد رضى الله عنه في السنة الثانية والثلاثين من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبويع له بالخلافة لخمس بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وثلاثين فأقام بها رضى الله عنـه نحواً من خمس سنين لم يصف له فيها يوم وكان أمر الله قدراً مقدوراً

بعث عليه الصلاة والسلام و « على » رضى الله عنه دون البلوغ . وكان معه فى منزله فاهتدى بهديه وسلك سبيله . ولم يتدنس بدنس الجاهليـة ولم يعبد وثنا قط . فهو أحد السابقين الى الاسلام وأحد العلماء الربانيين . والزهاد المذكورين . والخطباء المعروفين . وأحد من جمع القرآن الكريم

وأكرم أهل العباء والمباهلة وأخ رسول الله فى المؤآخات . أخرج الترمذى عن ابن عمه قال آخى رسول الله بين أصحابه فجاء «على» تدمع عيناه فقال آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بينى وبين أحد فقال النبى أنت أخى فى الدنيا والآخرة

شهد الغزوات كلها (الا غزوة تبوك) فانه استخلفه النبى على المدينة فلما أسف رضى الله عنه قال له النبى صلى الله عليه وسلم (أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى) . كان له القدم الثابت فى جميع الغزوات فهو أول المبارزين يوم بدر . وأول الثابتين يوم أحد وحنين . أصابته فيه ستة عشر ضربة . وأول الفاتحين يوم خيبر . وأول السابقين يوم الفتح .

أنابه عنه صلى الله عليه وسلم فى الاقامة بعد هجرته بمكة أياماً أدى فيها الامانات والودائع وقام بالوصايا فلما خرج النبى صلى الله عليه وسلم افتداه بنفسه ونام على فراشه والمشركون يظنون أنهم يحاصرون النبي صلى الله عليه وسلم حتى أصبحوا ووجدوا عليا رضى الله عنه . ثم أنابه أيضا فى قراءة أوائل التوبة فى موسم الحج إيذانا ببراءة رسوله من المشركين

ماذا يقول القائل فى هذا الامام . وكل وصّاف منسوب الى العجز لتقصيره عن الغاية مهما انتهى به القول وكفى بشهادته صلى الله عليه وسلم بانه باب مدينة العلم دليلا على مكنون السر الذى فيه . فهو أول في العلوم أول في الشجاعة . أول فى السخاء . أول في الحلم والصفح . أول في الفصاحة أول فى الزهد . أول فى العبادة أول فى التدبير والسياسة . أشد الناس رأياً وأصحهم تدبيرا . لولا تقاه لكان أدهى العرب

كأَنما أفرغ من كل قلب . فهو محبوب الى كل نفس . ظهر من حجاب

العظمة بمعاليه فاستولى الاضطراب على الاذهان والمدارك وذهب الناس فيه مذاهب خرجت بهم عن حدود العقل والشريعة . أهل الذمة تحبه والفلاسفة تعظمه وملوك الروم تصوره فى بيوتها وبيعها . ورؤساء الجيوش تكتب اسمه على سيوفها . كأنما هو فأل الخير وآية النصر والظفر

ينقطع اللجاج مع هذا القضاء الحاتم الذي ألم بالامام رضى الله عنه فى أيام خلافته فلم يستطع أن يأتى فيها بشيء مع هذا العرفان العظيم وأصبحت أيام خلافته قضاء (النجاة من تبعته السكوت عنه)

لا بد للقارىء ان يستحضر فى ذهنه الحال الذي كان فيه المسلمون بعد قتل خليفتهم المظلوم ويشخص فى فكره حالة الحيرة التى أطلق لها الذهول العنان فجالت فى الضمائر بما يسعه الامكان . فوضى لا ملجأ ولا سند حيارى لا قوة ولا عضد وامامهم فتنة كالحسكة شاكة من كل طرف . والاضطراب قد ألم بمستقبلهم وماضيهم وحاضرهم

قتل سيدنا عثمان كما علمت فبقى (الغافقى بن حرب) أميرا على المدينة خمسة ايام . وعلىّ ممتنع عن البيعة . وأتى الكوفيون الزبير . والبصريون طلحة فامتنعا أيضا . وأهل الامصار رأوا ان رجوعهم الى الامصار بغير امام يوقع الخلف والفساد فبقوا وهم لا يملكون لانفسهم نفعاً ولا ضراً . وهرب مروان وبنو أمية ولحقوا بالشام ومعهم قميص عثمان وأصابع زوجته فأثاروا الشعور وهيجوا الافكار ونصبوه على منبر دمشق وقامت الناس تطلب القود . وطار الخبر لمكة واتصل بأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وهي عائدة . ونادوا فى المدينة برجوع الاعراب الى بلادهم فأبوا

هكذا كانت الحال فى هذه الأمة الى فاضت ينابيع حياتها حتى شملتها

فجمعت شملها . وكانت تفاخر أهل السماء فى رفعتها وأهل الارض بمدنيتها

ثم اجتمع كثير من المهاجرين والانصار . وأتوا عليا يبايعونه (فأبى) لانه قدر المستقبل حق قدره وعلم انه انما يستقبل فتنة سائرة لا مرد لها فقال لهم (التمسوا غيرى) أو قال (أكون وزيراً لكم خير من ان أكون أميرا ومن اخترتم رضيته فانا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول) فناشدوه الله والدين وألحوا عليه وقالوا لا نعلم أحق منك ولا نختار غيرك (فابى) فخوفوه الله فى مراقبة الاسلام حتى غلبوه فى ذلك فقال (قد أجبتكم)

رأوا ان هذا الامر لا يتم الا بمبايعة الزبير وطلحة فذهب اليهما جماعة وأتوا بهما فبايعاه . قال قوم (كرها) وقال قوم اشترطا عليه اقامة الحدود (يريدون القود من قتل عثمان)

ثم قام الناس فبايعوه وتخلف عن بيعته جمع كبير من أكابر الصحابة فى المدينة كسعد بن أبى وقاص . وسعيد بن زيد . وعبد الله بن عمر . وأسامة بن زيد . والمغيرة بن شعبة . وعبد الله بن سلام . وقدامة بن مظعون . وأبي سعيد الخدري . وكعب بن عجرة وكعب بن مالك . والنعمان ابن بشير . وحسان بن ثابت . ومسلمة بن مخلد . وفضالة بن عبيد وغيرهم .

رأى الامام رضى الله عنه ان بيعته تمت بالاغلبية فقام وخطب الناس ودعاهم الى الخير وحذرهم الشر وبدأ فى أعماله .

﴿ أعماله فى خلافته ﴾

بدأ بتغيير عمّال الامصار (ولم يسمع رأى القائلين باستبقائهم حتى يستقر الامر) وكيف لا يبدأ بهم وهم داعية الفرقة وسبب الشتات ومن نجم من بينهم الاختلاف فبعث على (البصرة) عثمان بن حنيف الانصارى بدل عبد الله بن عامر . وعلى (الكوفة) عمارة بن شهاب بدل أبى موسى الاشعرى وعلى (اليمن) عبيدالله بن سعد . وعلى (الشام) عثمان بن حنيف بدل معاوية بن أبى سفيان . وعلى (مصر) قيس بن سعد بن عبادة بدل عبد الله بن سعد . فاما صاحبا (البصرة واليمن) فلم يردهم عنهما أحد . فأقاما . وافترقت مصر على صاحبها ففرقة دخلت فى الجماعة . وفرقة اعتزلت وقالت لانكون مع « على » الا ان قتل قتلة عثمان وفرقة قالت نحن مع « على » الا ان استقاد من اخواننا [١]

ولاقى صاحب الكوفة وهو قريب منها طليحة بن خويلد الاسدى فقال له ارجع فان القوم لا يريدون بأميرهم بدلا فرجع وقابل صاحب الشام عند تبوك خيلا عليها رجال من الشام فردوه وامتنع سيدنا معاوية عن مبايعة « على » لانه ظن فيه هوادة [٢] فى نصرة عثمان على قاتليه ومعاوية يرى لنفسه حقاً عظيما فى القصاص من قتلة عثمان لانه وليه والله تعالى يقول (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل) ولم يرفى

(١) انظر لهذا الخلاف فى الافكار فرقة ترى لزوم القود من المصريين الذين اشتركوا فى قتله وفرقة ترى العفو

(٢) الهوادة اللين أو ما يرجى به الصلاح

لامتناع عن البيعة خروجا على الامام لعدم انعقاد البيعة لتخلف كثير من أكابر الصحابة عنها ولم تكن باجماع اهل الحل والعقد فأرسل رجلا بطومار ليس فيه شيء من الكتابة وعنوانه (من معاوية . الى علي بن أبي طالب) وأمره اذا قدم المدينة ان يرفعه ليعلم الناس أنه مخالف ففعل الرجل ما أمر به حتى رفعه الى علي رضي الله عنه ففضه فلم يجد فيه كتابا فقال للرسول ماوراءك فقال آمن أنا . قال نعم . قال تركت قوما لا يرضون الا بالقود . قال . وممن . قال منك وتركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان منصوبا على منبر دمشق فقال اللهم انى أبرأ اليك من دم عثمان قد نجا والله قتلة عثمان الا ان يشاء الله.

أصبحت الامة مضطربة مختلفة المقاصد (ووجهتها كلها الحق وهو ضالتها) معاوية يرى ان البيعة لم تنعقد والامام يرى انعقادها وطلحة والزبير يرفضانها لأنهما اشترطا اقامة الحد على قتلة عثمان . والامام يقول لا قدرة لى على شيء مما يريدون حتى يهدأ الناس وتنظر الامور وتؤخذ الحقوق . وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها منادية فى الناس بدم عثمان لامتحققة بانه قتل مظلوما فى البلد الذى يأمن فيه الطير في الشهر الحرام

خطبت أم المؤمنين في الناس وانتصرت لسيدنا عثمان وطلبت القود له من الغوغاء والعبيد الذين اجتمعوا عليه وتبعها كثير لان معظم الناس ذهبت عقولها ولم يبق من خصال العرب الكريمة الا أشدها (ثوران فى العقول لاخذ الثار) واكثر الصحابة يرون ان أول واجب على المسلمين فى هذا الوقت تتبع القتلة . والقصاص منهم اقامة لحد الله الذي لا يصح تأخيره مهما نتج منه جعلوا اقامة هذا فى عنق كل مسلم وهو ملزم بالقيام بما يوصله اليه ولذلك

لم ير الزبير ولا طلحة فى هذا خروجا على الامام لان البيعة لم تنعقد له

الوقت الذى يؤول فيه أمر الانتقاض على الخليفة الى قتله ويتناسى الناس فيه ذلك الحال القديم من احترامه وتكون فيه الافكار مرتعاً لخطرات الخروج من كل طرف لايبعد أن يكون من مصائب الامام « على » فيه رميه بأنه منحرف عن الحق فى حق قتلة عثمان

استقام رأى طلحة والزبير وأم المؤمنين على قصد البصرة فقصدوها فلما قاربوها راسلها أميرها فأعلمته انها جاءت لتخبر الناس بمقتل عثمان وان الغوغاء استحلوا الدم الحرام وسفكوه وقتلوا امام المسلمين بلاترة ولا عذر وأظهر الزبير وطلحة انهما بايعا (كرها) فصمم صاحب البصرة أولا على منعها ثم أراد أن يعلم هل أحد فى البصرة يمالىء طلحة والزبير فدس لاهلها واحدا من الناس فظهر له أن فيها أنصارا لهذا الامر فخرج بمن معه حتى نزل ميسرة المربد وأقبلت أم المؤمنين فنزلت ميمنته وخطبت الناس فتبعها جمع من اصحاب عثمان وخرج لها حكيم بن جبلة من فرسان البصرة وقاتلهم حتى اذا ذاقوا حر السلاح تنادوا الى الصلح حتى يرسلوا الى المدينة ليعلموا أكانت بيعة طلحة والزبير طوعا أو كرها فان ثبت انهما أكرها ترك ابن حنيف البصرة فذهب كعب بن سور قاضى البصرة رسولا من عند أهلها فلما قدم المدينة قال يا أهل المدينة أنا رسول أهل البصرة اليكم اسألكم أأكره طلحة والزبير على البيعة أم أتياها طائعين فقال اسامة بن زيد بانهما أكرها فلقى أسامة بن زيد من والى المدينة سهل بن حنيف أخى عثمان بن حنيف اهانة وبلغ هذا الخبر عليا فأرسل الى عثمان بن حنيف يقول والله ما اكرها على فرقه . ولقد اكرها على جماعة وفضل فان كانا يريدان الخلع لاعذر لهما وان كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا فلماذا ع

خبرا كراه الزبير وطلحة طابا من أبى حنيف أن يخرج من البصرة فامتنع محتجاً بكتاب من « على » فاستولوا فى ليلة على الكوفة وحبسوا ابن حنيف فبلغ ذلك حكيما فاقبل وقاتل حتى قتل كثير ثم أقامت أم المؤمنين ومن معها بالبصرة

كل هذا والامام بالمدينة يعبى فى جيشه الى الشام فلما بلغه الخبر دعى وجوه أهل المدينة لانه يرجو أن يلحق الزبير وطلحة قبل أن يصلا البصرة فخف قوم وتثاقل قوم وظهر آخرون برأى مثل أبى موسى الاشعرى وقد سألوه الخروج والقتال مع « على » فقال (ان بيعة عثمان لفى عنقى وعنق صاحبكما فان لم يكن بد من قتال فلا نقاتل أحدا حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا)

أصبحت هذه الفتنة صماء لا يعلم فيها . ان كان النائم خيرا من اليقظان أم القائم خيرا من القاعد . فكم من رجل أغمد السيف وآخر نصل السهم وكثر الجدال فمن محرض على الخروج مع أمير المؤمنين ومن مثبط عنه حتى قام القعقاع ابن عمرو وقال (أيها الناس لابد من امارة تنظم الناس وتنزع الظالم وتعز المظلوم وهو يدعوكم لتنظروا فيما بينه وبين صاحبيه وهو المأمون على الامة الفقيه فى الدين فمن نهض اليه فانا سائرون معه) ثم قال الحسن بن على رضى الله عنه (أجيبوا دعوة أميركم وسيروا الى اخوانكم فانه سيوجد لهذا الامر من ينفر اليه والله لان يدعيه أولو النهى أمثل فى العاجل والآجل وخير فى العاقبة فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم وان أمير المؤمنين يقول قد خرجت مخرجى هذا ظالما أو مظلوما وانى أذكر الله رجلا رعى حق الله الا نفر فان وجدني مظلوماً أعانني وان وجدني ظالما أخذ منى . والله ان طلحة والزبير أول من بايعنى وأول من غدر . فهل استأثرت بمال أو بدلت حكما

فانفروا ثوروا بالمعروف وانهوا عن المنكر) فأثر فيهم هذا القول ورضوا بالخروج فنفر معه قريب من تسعة آلاف ثلثهم فى نهر الفرات والباقون ركباً فالتقوا بأمير المؤمنين فرحب بهم وأثنى عليهم ثم ندب القعقاع بن عمرو ليكون بينه وبين طلحة والزبير فقدم القعقاع البصرة وبدأ بأم المؤمنين فقال أى أمه ما أقدمك هذه البلدة قالت أى بنى الاصلاح بين الناس قال فابعثي الى طلحة والزبير حتى تسمعى كلامى وكلامهما فبعثت اليهما فحضرا فقال القعقاع انى سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الاصلاح فهل أنتما متابعان قالا نعم قال فاخبرانى ما وجه هذا الاصلاح قالا قتلة عثمان فان هذا الامر ان ترك كان تركا للقرآن قال قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة وأنتما قبل قتلهم أقرب الى الاستقامة منكم اليوم قتلتم ستمائة رجل فغضب لهم ستة آلاف فاعتزلوكم وطلبتم حرقوص بن زهير فنعه ستة آلاف فان تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون وان قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فادبلوا عليكم فالذى حذرتم وقويتم به هذا الامر اعظم مما أراكم تكرهون . وهذا امر دواؤه التسكين فان سكن اختلجوا فان انتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثار وان ابيتم فعلامة شر قالوا أصبت وأحسنت فان رجع « على » وهو على مثل رايك صلح الامر فرجع الى على واخبره الخبر واشرف القوم علي الصلح واقبلت الوفود من كل جهة واصبح الكل متفقين علي الصلح

سمع بذلك السبئية (اصحاب بن سبأ) وتحققوا ان الصلح انما يعود عليهم بالوبال لانه إن تم كان على قتلهم لانهم هم الذين اثاروا امر عثمان فباتوا شر ليلة وقد اشرفوا علي الهلكة . باتوا يتشاورون فلم يجدوا غير انتشاب الحرب ثم اصبح الناس والتقى الجيشان خارج البصرة وخرج الزبير علي فرسه بين

الجيشين فخرج اليه عليّ حتي اختلفت اعناق دوابهما فقال علي للزبير لعمرى لقد اعددتما سلاحا ورجالا ان كنتما اعددتما عند الله عذرا فاتقيا الله (ولا تكونا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا) الم اكن اخا كما فى دينكما تحرمان دمى واحرم دمكما فهل من حدث احل ذلك . فقال طلحة البت على عثمان فلعن عليّ قتلة عثمان . ثم ذكر الزبير باشياء منها انه قال له (أتذكر يوم مررت مع رسول الله فى بنى غنم فنظر اليّ فضحك وضحكت اليه فقلت له لايدع ابن أبى طالب زهوه فقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمزه لتقاتلنه وأنت ظالم) فرجع الزبير وهو حالف أن لايقاتل علياً. وشعر انه أخطأ فى اجتهاده وأصبح الرجوع للحق أولى لانه يعمل لله ثم رجع الناس والجميع لا يشكون فى الصلح وباتوا بأهنأ ليلة وبات الدخلاء بأسوأ حال .

فلما كان الغلس قاموا من غير أن يشعر بهم أحد وقصد مضرهم مضر البصرة وربيعتهم ربيعة البصرة . ويمنهم يمن البصرة واعملوا السلاح وثار كل قوم فى وجوه أصحابهم ودسوا لكل طرف من يعلن الخبر فسأل طلحة والزبير عن الخبر فقيل لهما طرقنا أهل الكوفة ليلا فقالا قد علمنا ان عليا غير منته حتى يسفك الدماء وسأل عليّ فقيل له ماشعرنا الا وقوم منهم يعملون فينا السلاح فقال قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء . ونادى في الناس أن كفوا واخرجوا أم المؤمنين فى هودجها لعل الله يصلح بها فرموها بالنبل وهى تنادي (اذكروا الله والحساب) ولا يأبون الا اقداما واشتدت حمية أهل البصرة لحرم رسول الله ولم يكن محيص عن القتال فاقتتلوا وترك ابن الزبير القوم ورجع فتبعه من يعرف بابن جرموز

وقتله وهو يصلى بوادى السباع

أمسك بخطام الجمل كثير من أرباب الشجاعة والنجدة فقتل دونه نحو السبعين من قريش وعدد عظيم من غيرهم واشتد أهل الكوفة على الجمل لانهم رأوا ان البصريين لا ينهزمون مادام واقفاً فرامه كثير وكل من رامه قتل فعقروا الجمل وتفرقوا عنه ثم حملوا هودجها وهو مثل القنفذ من كثرة السهام وظهرت آثار الكدر على أمير المؤمنين من هذا الحادث الذى لم يكن فيه لاحد مأرب ثم دفنت القتلى وأطاف عليهم «على» فلما أتى على طلحة قال لهفى عليك أبا محمد انا لله وانا اليه راجعون والله لقد كنت اكره ان أرى قريشا صرعى وانت كما قال الشاعر

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه ... اذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

سيرت أم المؤمنين الى مكة ورجع على الى الكوفة التى اتخذها مقر خلافته وأرسل يدعو معاوية للدخول فيما دخل فيه الناس فامتنع حتى تقتل قتلة عثمان ويختار المسلمون لانفسهم إماما

سار الامام لمحاربة أهل الشام وسار اليه معاوية والتقى الجيشان فى سهل صفين ومشت السفراء بين الطرفين فكان فى سفراء الامام من يجهل باب الاصلاح والفساد فاحتد فى الكلام حتى اشتد معاوية فى الخصام وقال ما بيننا الا السيف

تناوشا وقتاً حتى دخل شهر المحرم لسنة ٣٧ فعقد على ومعاوية هدنة مدتها شهر طمعا فى الصلح واختلفت بينهما الرسل وانتهت المخابرات على اصرار على مبايعته ثم النظر فى أمر قتلة عثمان وأصر معاوية على أخذ القود من قتلة عثمان أولا ثم النظر فى البيعة

نبذ كل طرف عهد هدنته وابتدأ القتال أول يوم من صفر طول النهار وهكذا الايام التالية فلما كان مساء الثلاثاء لثامن صفر أجمع عليّ على ملاقاة جيش معاوية بجيشه كله فلما أصبحوا التقى الجيشان وانصرفوا وكل غير غالب ثم دارت رحى الحرب بشدة يوم الخميس عاشر صفر ودخل الليل ولم يصد الناس عن القتال اقباله فاستمروا فلما أصبحوا كان الملل والسآمة في جيش الشام أبين ورأي ذلك معاوية وعمرو بن العاص فقال عمرو ندعوهم لكتاب الله أن يكون حكما بيننا وبينهم فرفعوا المصاحف على الرماح ونادى مناد يقول هذا كتاب الله بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهل الشام من لثغور العراق بعد أهل العراق فلما رآها أصحاب عليّ اختلفوا ثم اتفقوا على ارسال رسول يسأل عما أريد من رفع المصاحف فقالوا الرجوع الى ما أمر الله في كتابه تبعثون رجلا ترضونه ونبعث رجلا نرضاه يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه . ورضيت الناس بهذا وقبلت واختار أهل الشام عمرو بن العاص واختار أهل العراق أبا موسى الأشعرى وكتبوا بذلك عهداً وان يجتمع الحكمان بدومة الجندل أو باذرح في رمضان

انصرف الناس من هذا المكان المشؤوم الذى اجتمعت فيه فئتان عظيمتان من المسلمين يقاتل بعضهم بعضاً . ولكن الذى يخفف البلية ان الفريقين كانا يريدان الله بعملهما لان الجميع لم يقصدوا في محاربتهم غرضا دنيويا لايثار باطل أو لاستشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم وينزع اليه ملحد وانما اختلف اجتهادهم في الحق وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه وان كان المصيب عليا فلم يكن معاوية قائما بقصد الباطل انما قصد الحق وربما اخطأ والكل كانوا في مقاصدهم على حق

رجع الامام الى الكوفة ووقع الشقاق في جيشه . فريق راض بالتحكيم وفريق كاره له وهؤلاء اعتزلوا الامام ونزلوا حروراء وبايعوا شيث بن ربعى على القتال وان يكون الامر شوري بعد الفتح والبيعة لله عز وجل والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ثم جاءهم الامام ونصحهم فثابوا الى رأيه ودخلوا مصرهم

انقضى الاجل وحل رمضان واجتمع الحكمان من السنة السابعة والثلاثين وخلع كل منهم صاحبه وأثبت عمرو معاوية وكتبا شيئاً رأى الامام ان كل واحد اتبع فيه هواه وافترقا ولم يفيا بما تعهدا به فصمم على حرب معاوية مرة ثانية ولحق عمرو بالشام وبايعه مع اهلها

أصبح الحال وجيش أمير المؤمنين موطن فتنة كلما أطفئت واحدة قامت أخرى فمن خوارج عليه . ومن غلاة فيه . ومن محاربين معه . ومن مقاتلين لا لاجله والسلطة تسير الى الوراء . وأصبح المقاتلون معه محرضين بالفصاحة والبلاغة لا بالطاعة والامتثال كانما حربهم معه مجاملة ومعاوية بالشام مستقيم له الامر وجنده أحسن جند فى طاعة الامراء .

بعث عمرو بن العاص الى مصر وفيها قيس بن سعد بن عبادة فبايعه أهلها وهو أخبر بطرق استجلابهم . واعتزلت طائفة منهم وعليهم يزيد بن الحارث الدلجى بخربتا ووقع الخلاف بين الامام وبين قيس فى شأنهم فعزله وولاها محمد بن أبى بكر . وعلم أمير المؤمنين ان معاوية بن خديج دخل مصر مطالبا بدم عثمان ورأى أن محمدا لا تمكنه المقاومة فولى على مصر الاشتر بن الحارث النخعي وكتب اليه عهداً جمع فيه سياسة الدنيا وصلاح الآخرة ولكن قدر الله بموته فى الطريق وبقى في مصر محمد بن أبى بكر حتى دخلها معاوية بن

خديج وقتلوه وحرقوه فى جوف حمار . وبقتل محمد بن أبي بكر صارت مصر فى طاعة معاوية وبايع له أهلها . وبعد أن تم له ذلك سير الى البصرة عبد الله أبن الحضرمى وسير السرايا الى بلاد أمير المؤمنين حتى دخلت الحجاز واليمن فى طاعة معاوية وأصبح الامام فى وسط من الخلق مضطرم بالخلاف والشقاق فريق شيعته وآخرون خوارج (لا عليا ولا معاوية) وفريق منافق يظهر الطاعة ويخفى العداء وصارت الجماعة الى الفرقة والاختلاف وتغيرت الناس حتى سأل رجل عليا رضى الله عنه ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبى بكر وعمر قال لان أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلى وأنا اليوم وال على مثلك ومل أمير المؤمنين الامارة وسئمها وكانه استشعر راحته من هذا الشقاق المتتابع والخلاف المستعصى بضمه الى اخوانه من الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا فصرح بذلك في كثير من خطبه ومواعظه الاخيرة

اجتمع ثلاث من الخوارج وتذاكروا ما حل بأخوانهم من الخوارج وكرهوا المقام بعدهم فاتفقوا على أن يذهب أحدهم عبد الرحمن بن ملجم المرادى الى الكوفة ليقتل عليا . ويذهب الثانى وهو البرك بن عبد الله التميمى الى الشام فيقتل معاوية ويذهب ثالثهم وهو عمر بن بكر التميمى الى مصر فيقتل عمرو بن العاص واتعدوا بينهم ليلة ينفذون فيها ما اتفقوا وهى صبح ليلة الجمعة لسبع عشرة خلون من رمضان فأما البرك فذهب الى معاوية وانتظره فى صلاة الصبح فضربه بالسيف فوقع فى اليته ولم يمته فامر به معاوية فقتل . واما عمر بن بكر فذهب الى عمرو بن العاص فلم يخرج الى الصلاة لعذر أصابه واستناب خارجة بن حبيب السهمي فضربه الخارجى فقتله ظنا منه انه عمرو فخاب ظنه وقبض عليه فقتل وضرب به المثل « أراد عمرا وأراد الله

خارجة » وقصد عبد الرحمن بن ملجم أشقى البرية الكوفة وانتظر عليا فبينما أمير المؤمنين ينادي الصلاة الصلاة الصلاة إذ ضربه بسيفه قائلا (الحكم لله لا لك يا علي ولا لأصحابك) فقال علي (لا يفوتنكم الرجل) فشد عليه الناس وأخذوه ثم قال علي « النفس بالنفس ان هلكت فاقتلوه كما قتلني ضربة بضربة ولا تمثلوا به وان بقيت رأيت فيه رأيي » ثم دخل جندب فقال إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن فقال ما آمركم ولا انهاكم أنتم أبصر ثم دعا الحسن والحسين فقال لهما (أوصيكما بتقوي الله ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما ولا تبكيا على شيء أزوى عنكما وقولا الحق وارحما اليتيم واعينا الضائع واصنعا للاخرى وكونا للظالم خصما وللمظلوم ناصراً واعملا بما في كتاب الله ولا تأخذكما في الله لومة لائم) ثم نظر الى محمد الاكبر ابن الحنيفية فقال له (هل حفظت ما أوصيت به أخويك قال نعم قال فاني أوصيك بمثله) ثم لم يزل يذكر الله حتى مات فغسله ولداه الحسن والحسين وابن أخيه عبد الله بن جعفر وكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص

ليتأمل القارىء مقدار تبدل الاحوال واختلاف العقائد وتشتت الاهواء بالفتن . قتل سيدنا عمر رضي الله عنه سراً وتولى بعده سيدنا عثمان فازداد الطيش حتى قتل رضي الله عنه جهراً وتولى الامام فكان بين لجاج وعناد حتى جهزت لحربه الجيوش . وهكذا كل أمر يصعد منزلة منزلة حتى يبلغ الغاية ولا سبب لذلك الا مفارقة أدب الدين وقد مكث رضي الله عنه في الامارة ما شاء الله ان يمكث وكأن الله سبحانه وتعالى أراد ان يظهر سخطه لمن عصى ورضاه لمن أطاع فاذاق الامة كاس الضر في نكث بيعة خليفة رسوله وقتله ظلما أو ان الله سبحانه وتعالى أراد أن يمثل للمسلمين عيانا

مزايا الوحدة والمحبة والائتلاف . وضرر التعدد والعداوة والشقاق . فأوقع بأسهم بينهم حتى يتوبوا ولا يعودوا لتفريق كلمتهم وشق العصا بينهم وبين أئمتهم وليعلم جماعة المسلمين فى كل آن أن نصر الله بعيد عنهم كلما فشلوا وتنازعوا وصرفوا التعلق عما كانت عليه الناس فى عهد السلف الصالح

لو أصلحت دعوة من النفوس فاسدها وداوت مرضها لكان لدعوته رضى الله عنه فى صلاح حال المسلمين جميل الأثر . ولو ساعد الدهر لارتقت الامة العربية فى عصره حتى شقت الفلك بارتقائها ونافست بواسطته الامم فى كل شىء وناهيك بمن جمعت بعض حكمه ففاقت بها الاسفار وتليت بعض معجزات بلاغته فزلزلت على لينها ما استحجر من الارواح . أى وجدان لطيف هو يخاطب الناس بما يقيمهم ويعينهم وينعشهم ويرقى بهم بسلم البرهان الى الكمال . تنغلق الافكار دون الاتيان بمثل عهده رضى الله عنه للاشتر النخعى الذى ملأه بالاوامر الصادعة والزواجر الرادعة وطالب الناس بالطاعة عليه وحملهم باتباع ما فيه . هو أول قانون لسير العمال فى الامة الاسلامية جلى فيه رضى الله عنه عن الغاية بما لم تصل مدارك الكثير الى مرماه . ولما كان هو من أحسن ما تتعلق به النفوس وتتشوق لرؤياه العيون بعد سيرته رضى الله عنه أتينا به خاتمين سيرته الشريفة بخير أعماله . وليشهد الناس هذه الحكم التى تفيض من الافئدة والفصاحة التى تتدفق عن الالسنة . والله على كل شىء قدير

لولا عجائب صنع الله ما نبتت　　هذى الفضائل في لحم وفى عصب



بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أمر به عبد الله علىّ أمير المؤمنين مالك بن الحارث الاشترفى عهده اليه حين ولاه مصر : جباية خراجها . وجهاد عدوها . واستصلاح أهلها . وعمارة بلادها .

أمره بتقوى الله . وايثار طاعته واتباع ما أمر به فى كتابه من فرائضه وسننه التى لا يسعد أحد الا باتباعها ولا يشقى الا مع جحودها واضاعتها وان ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه فانه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره واعزاز من أعزه .

وأمره ان يكسر نفسه عند الشهوات ويزعها [1] عن الجمحات فان النفس امارة بالسوء الا مارحم الله

ثم اعلم يامالك انى قد وجهتك الى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور . وان الناس ينظرون من أمورك فى مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم وانما يستدل على الصالحين بما يجرى الله لهم على ألسن عباده فليكن أحب الذخائر اليك ذخيرة العمل الصالح فاملك هواك وشح [2] بنفسك عما لا يحل لك فان الشح بالنفس الانصاف منها فيما أحبت أو كرهت واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا

---

(١) يكفها عن مطامعها

(٢) شح بنفسك أى ابخل بها عن الوقوع فى غير الحل.

تكونن عليهم سبعاً ضاريا تغتنم اكلهم فانهم صنفان : اما أخ لك فى الدين أو نظير لك في الخلق يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الذى تحب ان يعطيك الله من عفوه وصفحه فانك فوقهم ووالى الامر عليك فوقك والله فوق من ولاك وقد استكفاك (١) أمرهم وابتلاك بهم

ولا تنصبن نفسك لحرب الله فانه لايدى (٢) لك بنقمته ولا غني بك عن عفوه ورحمته ولا تندمن على عفو . ولا تبجحن بعقوبة . ولا تسرعنّ الى بادرة وجدت منها مندوحة ولا تقولن انى مؤمر آمر فاطاع فان ذلك ادغال (٣) فى القلب ومنهكة للدين وتقرب من الغير

واذا احدث لك ما انت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر الى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على مالا تقدر عليه من نفسك فان ذلك يطامن اليك من طماحك (٤) ويكف عنك من غربك ويفىء اليك بما عزب عنك من عقلك

اياك ومساماة الله في عظمته والتشبه به في جبروته فان الله يذل كل جبار ويهين كل مختال

أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك فانك الا تفعل تظلم . ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون

---

(١) طلب منك كفاية أمرهم والقيام بتدبير مصالحهم

(٢) لايدى لك بنقمته أى ليس لك ان تدفع نقمته أى لا طاقة لك بها يقال ليس لى بأمر كذا يدان أى طاقة

« ٣ » الادغال ادخال الفساد

« ٤ » الطماح النشوز

عباده ومن خاصمه الله أدحض حجته وكان لله حربا حتى ينزع ويتوب وليس شيء ادعى الى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من اقامة على ظلم فان الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد

وليكن أحب الامور اليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل وأجمعها الرضى الرعية فأن سخط العامة يجحف[١] برضى الخاصة وان سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مؤونة في الرخاء وأقل معونة له في البلاء واكره الانصاف واسأل بالالحاف[٢] وأقل شكرا عند الاعطاء وأبطأ عذرا عند المنع واضعف صبراً عند ملمات الدهر من اهل الخاصة . وانما عماد الدين وجماع المسلمين[٣] والعدة للاعداء العامة من الامة فليكن صغوك لهم وميلك معهم

وليكن أبعد رعيتك منك واشنأهم عندك أطلبهم لمعائب الناس فان في الناس عيوبا الوالى أحق من سترها فلا تكشفن عما غاب عنك منها فانما عليك تطهير ماظهر لك والله يحكم على ماغاب عنك فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ماتحب ستره من رعيتك .

اطلق عن الناس عقدة كل حقد . واقطع عنك سبب كل وتر[٤] وتغاب عن كل مالا يصح لك ولا تعجلن الى تصديق ساع فأن الساعي غاش وان تشبه

---

(١) يجحف أي يذهب برضى الخاصة فلا ينفع الشاني معها والو سخط الخاصة ورضى العامة فلا أثر لسخط الخاصة فهو مغتفر

(٢) الالحاف الالحاح والشدة في السؤال

(٣) جماع الشيء بالكسر جمعه أي جماعة الاسلام

(٤) الوتر بالكسر العداوة والاوتار العداوات

بالناصحين ولا تدخلن في مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر. ولا جبانا يضعفك من الأمور. ولا حريصا يزين لك الشره بالجور. فأن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله

ان شر وزرائك من كان للاشرار قبلك وزيرا ومن شركهم فى الآثام فلا يكونن لك بطانة[1] فانهم أعوان الأثمة واخوان الظلمة وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم ممن لا يعاون ظالما على ظلمه ولا آثما على اثمه أولئك أخف عليك مؤونة وأحسن لك معونة . وأحنى عليك عطفاً . وأقل لغيرك إلفاً فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لاوليائه واقعاً من هواك حيث وقع .

والصق بأهل الورع والصدق ثم رضهم على ان لا يطروك ولا يبجحوك[2] بباطل لم تفعله فان كثرة الاطراء تحدث الزهو وتدنى من العزة

ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء فان فى ذلك تزهيدا لاهل الاحسان فى الاحسان وتدريباً لاهل الاساءة على الاساءة وألزم كلا منهم ما ألزم نفسه

واعلم انه ليس شيء بادعى الى حسن ظن راع برعيته من احسانه اليهم وتخفيفه المؤونات عليهم وترك استكراهه اياهم على ما ليس قبلهم[3] فليكن منك فى ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك فان حسن الظن يقطع

(١) بطانة الرجل بالكسر خاصته (٢) يطروك أى يزيدوا فى مدحك ولا يبجحوك أى يفرحوك بنسبة عمل عظيم اليك لم تكن فعلته (٣) قبلهم بالكسر أى عندهم

عنك نصبا طويلا وان احق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده وان أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده

ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هـذه الامة واجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية ولا تحدث سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن فيكون الاجر لمن سنها والوزر عليك بما نقضت بها

وأكثر مدارسة العلماء ومنافسة الحكماء فى تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به الناس قبلك

واعلم ان الرعية طبقات لا يصلح بعضها الا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض . فمنهـا جنود الله . ومنها كتاب العامة والخاصة . ومنها قضاة العدل . ومنها عمّال الانصاف والرفق . ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسالمة الناس . ومنها التجار وأهل الصناعات . ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة وكلا قد سمى الله سهمه ووضع على حده فريضة في كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله عهداً منه عندنا محفوظاً

فالجنود باذن الله حصون الرعية وزين الولاة وعز الدين وسبل الامن وليس تقوم الا بهم ثم لا قوام للجنود الا بما يخرج الله لهم من الخراج الذى يقوون به فى جهاد عدوهم ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم ثم لا قوام لهذين الصنفين الا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب لما يحكمون من المعاقد [1] ويجمعون من المنافع ويؤتمنون عليه من خواص الامور وعوامها . ولا قوام لهم جميعا الا بالتجار وذوى الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم . ويقيمونه من أسواقهم ويكفونهم من

---

(١) وفى نسخة المعاهد

الترفق بأيديهم مالا يبلغه رفق غيرهم ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم وفي الله لكل سعة ولكل على الوالى حق بقدر ما يصلحه وليس يخرج الوالى من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك الا بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطين نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل

فولّ جندك أنصحهم في نفسك لله ورسوله ولامامك . وانقاهم جيبا وأفضلهم حلما ممن يبطىء عن الغضب . ويستريح الى العذر ويرأف بالضعفاء وينبو عن الاقوياء وممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف

ثم ألصق بذوى الاحساب وأهل البيوتات الصالحة السوابق الحسنة ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة فانهم جماع من الكرم وشعب من العرف ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما ولا يتفاقمن [1] فى نفسك شيء قويتهم به ولا تحقرن لطفا تعهدتهم به وان قل فانه داعية لهم الى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيمها فان لليسير من لطفك موضعا ينتفعون به وللجسيم موقعا لا يستغنون عنه

وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم فى معونته وأفضل [2] عليهم من جدته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهليهم حتى يكون همهم هما واحدا فى جهاد العدو فان عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك وان أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل فى البلاد وظهور مودة الرعية وانه لا تظهر

---

(١) تفاقم الامر عظم

(٢) أفضل عليه وتفضل بمعنى

مودتهم الا بسلامة صدرهم ولا تصح نصيحتهم الا بحيطتهم على ولاة أمورهم وقلة استثقال دولهم وترك استبطاء انقطاع مدتهم فافسح فى آمالهم وواصل فى حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم . فان كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع وتحرض الناكل ان شاء الله ثم اعرف لكل امرىء منهم ما أبلى ولا تضيفن بلاء امرىء الى غيره ولا تقصرن به دون غاية بلائه ولا يدعونك شرف امرىء الى ان تعظم أكثر من بلائه ما كان صغيرا ولا ضعة امرىء الى ان تستصغر من بلائه ما كان عظيما

واردد الى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الامور فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول) فالرد الى الله الاخذ بمحكم كتابه والرد الى الرسول الاخذ بسنته الجامعة غير المفرقة

ثم اختر للحكم بين الناس افضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الامور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى فى الزلة ولا يحصر [1] من الفيء الى الحق اذا عرفه ولا تشرف [2] نفسه على طمع ولا يكتفى بأدنى فهم دون اقصاه . أوقفهم فى الشبهات وآخذهم بالحجج . وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم وأصبرهم على كشف الامور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء وأولئك قليل ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته الى الناس واعطه من المنزلة لديك

---

(١) حصر كفرح ضاق صدره أي لا يضيق صدره من الرجوع الى الحق
(٢) الاشراف على الشيء الاطلاع عليه من فوق

ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك فانظر فى ذلك نظراً بليغاً فان هذا الدين قد كان أسيرا في أيدى الاشرار يعمل فيه بالهوى ويطلب به الدنيا

ثم انظر فى أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وأثرة فانهما جماع من شعب الجور والخيانة وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الاسلام المتقدمة فانهم أكرم أخلاقا وأصح اعراضا وأقل في المطامع اشرافاً وأبلغ في عواقب الامور نظراً . ثم اسبغ عليهم الارزاق فان ذلك قوة لهم على استصلاح انفسهم وغنى لهم عن تناول ماتحت أيديهم وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم فان تعاهدك في السر لامورهم حدوة[1] لهم على استعمالهم الامانة والرفق بالرعية وتحفظ من الاعوان فان أحد منهم بسط يده الى خيانة اجتمعت بها عليه عندك اخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهداً فبسطت عليه العقوبة فى بدنه وأخذته بما أصاب من عمله ثم نصبته بمقام المذلة ووسمته بالخيانة وقلدته عار التهمة

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فان فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم الا بهم لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله وليكن نظرك فى عمارة الارض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج لان ذلك لا يدرك الا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره الا قليلا فان شكوا ثقلاً أو علة أو انقطاع شرب

(١) حدوة أى قدوة يبارونها

أو بالة أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ولا يثقلن [1] عليك شيء خففت به المؤونة عنهم فانه يذخر يعودون به عليك فى عمارة بلادك وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمدا فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من اجمامك [2] لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدالك عليهم فى رفقك بهم فربما حدث من الامور ما ذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه لطيبة أنفسهم به فان العمران محتمل ما حملته وانما يؤتى خراب الارض من أعواز أهلها وانما يعوز أهلها لاشراف انفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر.

ثم انظر فى حال كتابك فول على أمورك خيرهم واخصص رسائلك التى تدخل فيها مكائدك واسرارك بأجمعهم لوجود صالح الاخلاق ممن لا تبطره الكرامة فيجترىء بها عليك فى خلاف الك بحضرة ملأ ولا تقصر به الغفلة عن ايراد مكاتبات عمالك عليك واصدار جواباتها على الصواب عنك فيما يأخذ الك ويعطي منك ولا يضعف عقدا اعتقده لك ولا يعجز عن اطلاق ما عقد عليك ولا يجهل مبلغ قدر نفسه فى الامور فان الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل . ثم لا يكن اختيارك اياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك . فان الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم وليس وراء ذلك من النصيحة والامانة شيء

(١) ثقل المضروب. أو نزول آفة. أو انقطاع بالة أي ما يبل الارض كالمطر أو تحويل البذر الى فساد بالتعفن لما اغتمرها الغرق

(٢) اجمامك أى اراحتك لهم

ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك فاعمد لاحسنهم كان فى العامة أثرا واعرفهم بالامانة وجها فان ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأسا منهم لا يقهره كبيرها ولا يتشتت عليه كثيرها ومهما كان فى كتابك من عيب فتغابيت عنه ألزمته

ثم استوص بالتجار وذوى الصناعات وأوص بهم خيرا المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه فانهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح في برك وبحرك وسهلك وجبلك وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها فانهم سلم لا تخاف بائقته [١] وصلح لا تخشى غائلته وتفقد أمورهم بحضرتك . وفى حواشى بلادك واعلم مع ذلك أن فى كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً واحتكارا للمنافع وتحكما فى البياعات وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة فامنع من الاحتكار فان رسول الله صلى الله عليه وآله منع منه وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع فمن قارف حكرة بعد نهيك اياه . فنكل به وعاقب فى غير اسراف

ثم الله الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى [٢] فان فى هذه الطبقة قانعاً ومعتراً . واحفظ لله مااستحفظك من حقه فيهم واجعل لهم قسما من بيت مالك وقسما من غلات صوافى [٣] الاسلام في كل بلد . فان للأقصى منهم مثل الذي للادنى . وكل

---

(١) البائقة الداهية (٢) الزمنى بفتح أوله جمع زمين وهو المصاب بالزمانة بفتح الزاى أى العاهة يريد أرباب العاهات المانعة لهم عن الاكتساب (٣) جمع صافية وهي أرض الغنيمة

قد استرعيت حقه. فلا يشغلنك عنهم بطر فانك لا تعذر بتضييعك التافه (١) لاحكامك بالنظر فى الكثير المهم فلا تشخص همك عنهم ولا تصعر خدك لهم وتفقد أمور من لا يصل اليك منهم ممن تقتحمه العيون . وتحقره الرجال. ففرغ لاولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع اليك أمورهم ثم اعمل فيهم بالاعذار الى الله يوم تلقاه . فان هؤلاء من بين الرعية أحوج الى الانصاف من غيرهم وكل فاعذر الى الله فى تأدية حقه اليه . وتعهد أهل اليتم . وذوى الرقة فى السن ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسئلة نفسه وذلك على الولاة ثقيل . والحق كله ثقيل . وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم

واجعل لذوى الحاجات منك قسما . تفرغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلساً عاما فتتواضع فيه لله الذى خلقك وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متعتع . فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول فى غير موطن (لن تقدس أمة . لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير متعتع) ثم احتمل الخرق منهم والعي . ونح عنهم الضيق والانفة . يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ويوجب لك ثواب طاعته وأعط ما أعطيت هنيأ . وامنع فى اجمال واعذار .

ثم أمور من أمورك لابد لك من مباشرتها منها . اجابة عمالك بما يعيى عنه كتابك . ومنها اصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك مما تحرج به صدور اعوانك . وامض لكل يوم عمله فان لكل يوم مافيه واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت وأجزل تلك الاقسام . وان كانت كلها لله

---

(١) التافة القليل

ذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعية

وليكن فى خاصة ما تخلص به لله دينك اقامة فرائضه التى هى له خاصة فاعط الله من بدنك فى ليلك ونهارك ووف ماتقربت به الى الله من ذلك كاملا غير مثلوم ولا منقوص . بالغا من بدنك ما بلغ واذا قمت فى صلاتك للناس فلا تكونن منفرا ولا مضيعا . فان فى الناس من به العلة وله الحاجة وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله حين وجهني الى اليمن كيف أصلى بهم فقال (صل كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيما)

وأما بعد فلا تطيلن احتجابك عن رعيتك فان احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق وقلة علم بالامور والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير ويقبح الحسن ويحسن القبيح ويشاب الحق بالباطل وإنما الوالى بشر لا يعرف ماتوارى عنه الناس به من الامور وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب وانما أنت أحد رجلين : إما امرؤ سخت نفسك فى البذل فى الحق ففيم احتجابك من واجب حق تعطيه أو فعل كريم تسديه . أو مبتلى بالمنع فما أسرع كف الناس عن مسألتك اذا آيسوا من بذلك . مع ان أكثر حاجات الناس اليك مما لا مؤونة فيه عليك من شكاة مظلمة . أو طلب انصاف في معاملة

ثم ان للوالى خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول وقلة انصاف في معاملة فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الاحوال . ولا تقطعن لاحد من حاشيتك وحامتك[1] قطيعة . ولا يطمعن منك فى اعتقاد[2] عقدة تضر بمن

(١) الحامة كالطامة الخاصة والقرابة (٢) الاعتقاد الامتلاك

يليها من الناس فى شرب أو عمل مشترك يحملون مؤونته على غيرهم فيكون مهنأ [١] ذلك لهم دونك . وعيبه عليك فى الدنيا والآخرة . وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد وكن فى ذلك صابرا محتسبا واقعا ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع . وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه فان مغبة ذلك محمودة. وان ظنت الرعية بك حيفا فاصحر [٢] لهم عذرك . واعدل عنك ظنونهم باصحارك فان فى ذلك رياضة منك لنفسك ورفقا برعيتك واعذارا تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق

ولا تدفعن صلحا دعاك اليه عدوك ولله فيه رضى فان في الصلح دعة لجنودك . وراحة من همومك . وأمنا لبلادك ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه فان العدو ربما قارب ليتغفل . فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن وان عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة . فحط عهدك بالوفا . وارع ذمتك بالامانة واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت فانه ليس من فرائض الله شىء الناس أشد عليه اجتماعا مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود . وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين . لما استوبلوا من عواقب الغدر . فلا تغدرن بذمتك ولا تخيسن بعهدك . ولا تختلن عدوك فانه لا يجترىء على الله الا جاهل شقى وقد جعل الله عهده وذمته امنا أفضاه بين العباد برحمته . وحريما يسكنون الى منعته ويستفيضون الى جواره . فلا ادغال ولا مدالسة ولا خداع فيه ولا تعقد عقدا تجوز فيه العلل ولا تعولن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله الى طلب

---

(١) مهنأه منفعته (٢) صحر كفرح أظهر وأبان

انفساخه بغير الحق فان صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته وان تحيط بك من الله فيه طلبة فلا تستقبل فيها دنياك ولا آخرتك

اياك والدماء وسفكها بغير حلها فانه ليس شيء ادعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها والله سبحانه مبتدىء بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام فان ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله ولا عذر لك عند الله ولا عندى فى قتل العمد لان فيه قود البدن وان ابتليت بخطأ وافرط عليك سوطك . أو سيفك أويدك بعقوبة فان فى الوكزة فما فوقها مقتلة فلا تطمحن بك نخوة سلطانك عن أن تؤدى الى أولياء المقتول حقهم

واياك والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الاطراء فان ذلك من أوثق فرص الشيطان فى نفسه ليمحق مايكون من احسان المحسنين

واياك والمن على رعيتك باحسانك أوالتزيد فيما كان من فعلك أوأن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك فان المن يبطل الاحسان والتزيد يذهب بنور الحق والخلف يوجب المقت عند الله والناس . قال الله تعالى (كبر مقتا عند الله ان تقولوا مالا تفعلون) .

واياك والعجلة بالامور قبل أوانها والتسقط فيها عند امكانها . أو اللجاجة فيها اذا تنكرت أو الوهن عنها إذا استوضحت فضع كل أمر موضعه وأوقع كل أمر موقعه واياك والاستئثار بما الناس فيه اسوة والتغابى عما يعنى به مما قد وضح للعيون فانه مأخوذ منك لغيرك وعما قليل تنكشف

عنك أغطية الامور وينتصف منك للمظلوم

أملك حمية أنفك وسورة حدك . وسطوة يدك . وغرب لسانك واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد الى ربك

والواجب عليك ان تتذكر مامضى لمن تقدمك من حكومة عادلة أوسنة فاضلة أواثر عن نبينا صلى الله عليه وآله أوفريضة في كتاب الله فتقتدى بما شاهدت مما عملنا به فيها . وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت اليك فى عهدى هذا واستوثقت به من الحجة لنفسى عليك لكيلا تكون لك علة عند تسرع نفسك الى هواها

وانا نسأل الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على اعطاء كل رغبة أن يوفقنى وإياك لما فيه رضاه من الاقامة على العذر الواضح اليه والى خلقه مع حسن الثناء في العباد وجميل الاثر فى البلاد وتمام النعمة وتضعيف الكرامة وأن يختم لى ولك بالسعادة والشهادة انا اليه راغبون . والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين وسلم تسليما كثيرا والسلام .



فصل

في خلافة سيدنا الحسن

لا بد لنا من كلمة على خلافة سيدنا الحسن يتصل بها الكلام ويعلم منها كيف استقام الامر لسيدنا معاوية فقد تركنا أغلب الناس فوضى بعد قتل الامام فى العقل والشريعة معاً

كان أمير المؤمنين عليّ رضى الله عنه قد بايعه أربعون ألفا من عسكره على الموت ثم بينما هو يتجهز للمسير قتل فبايع الناس وهذا الجيش ولده الحسن وبلغه أن معاوية سائر اليه فى أهل الشام فتجهز هو أيضا بهذا الجيش الموثق بالايمان والعهود الى لقاء معاوية . فلما نزل الحسن المدائن حدث في جيشه من الشقاق والنفاق ما دعاه لتأخير ما عزم عليه . رأى أن جند العراق لا تقوم به دولة لما هو واقع بينهم دائماً من النزاع والتطلع الى ماليس لهم (حتى نازعوا الحسن فى بساط كان يجلس عليه)

رأى ان بيعته كبيعة أبيه ليست عامة ولكنها قاصرة على شيعتهم من أهل العراق . فراسل معاوية بن أبي سفيان يبذل له الصلح واشترط عليه شروطا وقال له ان انت أعطيتنى هذا فأنا سميع مطيع . وكان معاوية قبل وصول كتاب الحسن اليه ختم صحيفة في أسفلها وكتب للحسن يقول له اشترط في هذه الصحيفة ماشئت فاشترط وأهم شروطه تأمين جيشه وشيعة عليّ كلهم فقبلها معاوية وقدم العراق فقابله الحسن بجيشه وبايعه بالخلافة هو وجنده وصدق رسول الله في قوله عن الحسن (ان ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين)

تم دور الخلافة بالخلفاء الراشدين بتسليم سيدنا الحسن الامر وانتهى دور الفتن والشقاق الذى ابتدأ من قيام الثوار على سيدنا عثمان بن عفان ونهايته قتل الامام على رضى الله عنهما .

فتن دامت عشر سنين لوكانت فى أمة أخرى لهدمتها وقوضتها ولكن الله نظر الى دينه القويم بعين عنايته فألف كلمة أهله وحفظه كما وعد (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) ثم انقسم المسلمون على انفسهم وأصبحوا فرقا فمنهم الشيعة ومنهم الغلاة والروافض والخوارج وغيرهم من أهل الملل والنحل . يقفون فى وجه كل اصلاح ويشقون عصا كل طاعة لحد الآن كما سيأتى تفصيله

ألا مخبر يخبرنى لولم يقدر الله هذه الفتن إلى أى ركن من أركان الدنيا كان يصل الاسلام . والى أى درجة كانت ترفع كلمته . والى أى عدد كانت تنتهى شيعته والى أي شرف كانت تصل رفعته !.. أظنه كان يستأمن بقوته أعظم قوى الكون ويصبح كل شئ دونه منحطا ومتضائلا خاضعا ومستكينا اليه

لو نظر الناظر لما وجد لهذا الشقاق الذى حصل الا تطاول الايدى لقتل سيدنا عثمان ونقض بيعة له فى أعناقهم مع ان الخروج عن طاعة الامام لم يجعل النبى صلى الله عليه وسلم له سببا الا الكفر البواح الظاهر الصريح الذي لا تأويل فيه ولم يقل بذلك أحد منهم . وكان مصيبته هذه لم تكف حتى أعقبها الله بافتراق الامة في داخليتها فكان لكل جماعة رأي وليس هذا بالامر الهين . وكيف يكون هينا وقد أدى للقتال والخروج على الامام وعمل السيف في رقاب المسلمين ما عمل ولا حول ولا قوة الا بالله

ثم دالت الدولة لبنى أمية وتوالت فتوحاتها برا وبحرا وانتظم الشمل بعد شتاته وجبر الوهن بعد ثامه واشرأبت أعناق أرباب الدولة الى إعزاز جانبهم واذلال مجانبهم واظهار دينهم وقدنا فيهم احساس المحاماة عن الحوزة فاتجهت جيوش الدوله وأساطيلها الى الفتح فلم تمض الايام ولم تتصرم الليالى حتى فتحت الجزر فى البحر الابيض المتوسط والمدن والحصون في قارة أسيا وأصبح كنف الامة مكينا يكلؤ الوادعين فيه . ثم مازال أرباب الدولة قائمين بتشريفها بالرأى السديد والعزم الشديد حتى أخذت الجزية من ملك بالقسطنطينية بعد الحصر والتضييق والعذاب الاليم واستدامت لها الهداية الى أن أنسى الله سبحانه وتعالى بعض القوم أدب الدين وحدود المحافظة على المواثيق والعهود ونشزت طوائف منهم زائغة عن السداد ومتنكبة عن الصواب والرشاد فادت حالهم الى اضمحلال بعض الاطراف من ملكهم فخرجت عليهم منها غارات وفتن كانت مقدمة لانتقال الدولة من بنى أمية الى بنى عباس كما سيرد عليك ببعض التفصيل بعد هذا فتدرك منه مايؤدي الى الزيادة والبركة ومايورث الفشل والاختلال (وتلك الايام نداولها بين الناس)

ان الصدور لاتزال تكمن مافيها . ولذلك فان شيعة على رضى الله تعالى عنه لاتزال ترى هذا الامر فى أولاده يطلبونه متى سنحت لهم الفرصة وقد صارت لهم مذاهب ونحل يعجز القلم عن استقصائها والخوارج لاتزال ترى التحكيم ضلالة ولاترى البيعة الاشورى ولاتنتخب الا رجلا على مذهبهم ومعتقدهم وتفرقوا شيعا كل له مذهب يتبعه (ولو بغير امام) وجماعة منهم يقولون ان معاوية هو الذى أحال الخلافة ملكا (وأنى لمعاوية ذلك) وانما الذي أحالها ملكا هى

العوامل الطبيعية التى اذا عرضت للامـة تضطرها لطلب الانفراد بالمجد والاستئثار به وقد وقع هـذا بالفعل لبنى أميـة ولم يكن لمعاوية ان يدفع تأثيره عن نفسه وقومه لانه أمر طبيعى ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته الامة فاستماتت دونه ولو حملهم معاوية على غـير تلك الطريقة وخالفهم فى الانفراد بالامر لوقع فى افتراق الـكلمة ولم يكن للحسن رضى الله عنـه ذلك بل كان القوم فى نهاية الشقاق . يدل على ذلك انه لما تراسل مع سيدنا معاوية في أمر تسليم الخلافة خطب الناس . فحمد الله وأثنى عليـه وقال والله ما يثنينا عن أهل الشام شك ولا ندم وانما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر فشيبت السـلامة بالعداوة والصبر بالجزع وكنتم فى مسيركم الى صفين ودينكم أمام دنياكم وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم . الا وقد أصبحتم بين قتيلين قتيل بصفين تبكون عليه وقتيل بالنهروان تطلبون بثاره وأما الباقى فخاذل وأما الباقى فثائر . الا وان معاوية دعانا لامر ليس فيه عز ولا نصفة فان أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه الى الله عز وجل بظبى السيوف وان أردتم الحياة قبلناه وأخذناه بالرضا فناداه الناس من كل صوب وناحية « البقية البقية وامض الصلح »

فأين هذه العصبية من عصبية بنى أمية ومثل عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الذى عمله حجة وفعله قدوة يخشاها . كان اذا رأى القاسم بن محمد بن أبي بكر يقول لوكان لى من الامر شىء لوليته الخلافة ولو أراد أن يعهد اليه لفعل ولـكنه كان يخشى من بنى أمية أهل الحل والعقد لما ذكرناه فلا يقدر ان يحول الامر عنهم لئلا تقع الفرقة ومثل هذا هو الذى وقع للمأمون منذ عهده للرضا ومن هذا ايضاً الذي نراه فى اهالى الدول المتمدنة الذين

يحرصون على تقاليدهم فهم في عصبية تامة يخيفون بها الحكومة ويغرسون في قلوب اربابها بذور التقية والحذر فلا يتأتى لحكوماتهم ان تجلب لبلادها من البضائع الا ما ليس له وجود عندهم فضلا عن انها تستخدم الغير في عملها. على أن الملك انما ذم منه الشارع التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الاغراض والشهوات ولم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين ومراعاة المصالح . واذا كان الملك مخلصاً يحمل الناس على عبادة الله وجهاد عدوه . لم يكن مذموما والملك الذى يخالف بل ينافى الخلافة هو الجبروتية المعبر عنها بالكسروية وخلافة سيدنا معاوية لم تكن كذلك بل من رأى كثير من المؤرخين الذين لم يصح عندهم حديث (الخلافة بعدي) أن تلحق دولته بدولة الخلفاء الراشدين وأخباره باخبارهم فهو تاليهم فى الدين والفضل والفتح العظيم براً وبحراً ومن بعده من خلفاء بنى مروان وبنى العباس الذين فتحوا الفتوحات وأعلوا كلمة الله فى الارض وان شق ذلك على جماعة في هذه الايام شغلوا أنفسهم بما لا طائل تحته من تفضيل وتضليل وجلسوا مجالس الحكم في هذه القضية من قبل أن يتحروا أوثق مصادرها والايام تسوق لهم كل يوم حديثاً عن سياسة دنياهم وقد صرف الله قلوبهم عن النظر فيها وأولى بهم ان يتناصحوا فى خيرها وشرها ولا يتركوا الناس أفذاذاً لا يعلم أحدهم بما يكون من عمل أخيه

اللهم ألف كلمة المسلمين ولم شعثها ووفقها لما تحبه وترضاه عنك وكرمك انك على كل شيء قدير

سيدنا عمرو بن العاص رضى الله عنه

هو الفاتح لاعظم ركن من أركان الخلافة الاسلامية . البلد الذى هو واسطة عقدها اموية . وعباسية . وتركية البلد لذى لم يتمصر قبله مصر. ولم يذكر قبل اهله حى . البلد الذي كانت اعمال اهله ولا تزال

ملاعب جنة لو سار فيها   سليمان لسار بترجمان

نقدمه على غيره لعلاقة السلطان . الذى بينه وبين هذا البلد واهله لانه اول فاتح اسلامى تولى فتحه بسيفه وحكمه بعدله . ولعلاقة الدين . لانه اول من شرح الله صدور اهله اليه على يده واطلع فى صدورهم نبراسه بواسطته. واول مسجد خشعت فيه الاصوات للرحمن وسجدت فيه الجباه للديان مسجده الذى اسس في مصر منذ فتحها ووقف على اقامة قبلته (اى على تحريرها) ثمانون رجلا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هو من اجلهم

هو سيدنا عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد (بالتصغير) ابن سهم بن عمرو بن هصيص (بالضم) بن كعب بن لؤى القرشى السهمي

اختلف الناس في وقت اسلامه فقائل قبل الفتح وقائل بين الحديبية وخيبر وقائل بأرض الحبشة . وعاش تسعين سنة ـ وكان يذكر ليلة ولد سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان ادعج ابلج قصير القامة عليه مهابة الامارة وسيماؤها . اخرج ابن ابى خيثمة من طريق الليث قال : نظر عمر بن الخطاب الي عمرو (رضى الله عنهما) يمشى فقال ماينبغى لابى عبد الله ان يمشى على الارض الا اميراً

وكان لسناً بادى الحجة يسد برأيه ثلمة السيف (وقد سدها) ويفل

بالروية حده (وقد فله) . قائل لم يقل بغير تفكير ولم يعمل بغير تدبير . قال ابراهيم بن مهاجر عن الشعبي عن قبيصة بن جابر : صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أبين قرآنا ولا أكرم خلقاً ولا أشبه سراً بعلانية منه

بلغ مقدار لحنه بحجته ودهائه في مايريد وما يراد منه ان سيدنا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين كان اذا رأي الرجل يتلجلج في كلامه يقول: أشهد ان خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد (يعنى خالق الاضداد)

وذكر الزبير بن بكار ان قريشاً بعثت لعمرو تناظره بعد ان أسلم فقال لرسولها : أنشدك الله ربك ورب من قبلك ومن بعدك نحن أهدى أم فارس والروم ؟ قال نحن أهدى . قال فنحن أوسع عيشا أم هم ، قال هم . قال فما ينفعنا فضلنا عليهم ان لم يكن لنا فضل إلا فى الدنيا وهم أعظم منافيها إصراً فى كل شئ وقد وقع فى نفسى ان الذى يقوله محمد من ان البعث بعد الموت ليجزى المحسن باحسانه والمسيئ باساءته حق ولا خير فى التمادى على الباطل

وكان شديد الحياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرفع طرفه اليه. وكان للمعضلات حلالا .وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقربه ويدنيه لمعرفته وشجاعته وولاه غزاة ذات السلاسل وأمده بأبي بكر وعمر وأبى عبيدة الجراح رضى الله عنهم وكان أميرهم وكانوا يصلون خلفه

وبعث اليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتنى فلما أتاه قال له انى أريد أن أبعثك على جيشى فيسلمك الله ويغنمك وأرغب لك من المال رغبة صالحة فقال يا رسول الله ما أسلمت من اجل المال بل اسلمت رغبة في الاسلام فقال يا عمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح

وأثنى النبى صلى الله عليه وسلم على ثباته إذ فزع اهل المدينة فزعا فتفرقوا

فنظر عمرو بن العاص الى سالم مولى أبى حذيفة فى المسجد فاذا عليه سيف ففعل مثله فخطب النبى صلى الله عليه وسلم فقال الا يكون فزعكم الى الله ورسوله ألا فعلتم كما فعل هذان الرجلان المؤمنان

ذاق لذة الحاضرة وعرف حال استيطان الريف وأدرك صعوبة جلافة البدو وماز جفاء الاعراب فلما ضرب الاسلام بجرانه واتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر ونزعت البوادى الى القرى وفشا التأدب لم يعجزه استكمال شىء دون استعماله مع أهله على الوجه الذى يحسن مسمعاً ويلطف من القلب موقعا

نظر الى دولة الروم ومملكتها نظرة اخترقت حجابها المستور وسبر تركيبها بمسبار الحكمة مع شدة احتفائهم وقتها بسياسة الخفاء فى مجامع رجال دولتهم المعروفة عند جماعة المؤرخين (بسوسيتيه سكريت) فتبدى له من أمر الدولة الفراق فى فراقها وأدرك أن قد آن وقت استباحة هذه المدن وتخضيد شوكة هذه الدولة عن مصر

فلما كانت سنة ثمان عشرة وقدم سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه (الجابية) قام اليه وخلا به وقال له فيما قال إئذن لى أن أسير الى مصر وحرضه عليها وقال انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم وهى أكثر الارض أموالا وأعجزهم عن القتال والحرب فتخوف سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه على المسلمين وكره ذلك فلم يزل به من تعظيم أمرها وتنبيه خاطره الشريف الى مزارعها ومنافعها ومحاصيل أرضها وبرها وخيرها وفيضان نيلها وحال أهلها حتى ركن لذلك وعقد له على ثلاثة آلاف وخمسمائة أو أربعة آلاف رجل وقال له سر وأنا مستخير الله فى مسيرك فساروا افتتحها

(وفى كونها فتحت صلحاً أو عنوة خلاف) ولم يخنه الرأى فى شىء مما قال ولم تعرف له كذبة فيما روى كانما نشأ الرجل بين أهل هذا المصر وربى فيه

كان نظره فى ذلك على الغيب (والبلاد فى عالم العماء والخلفاء) أثقب واصدق من نظر كثير من حكومات اليوم على الشهادة (والكرة الارضية ابسط من كف) فكم قدروا قوة اخصامهم واخطأوا وكم وطئوا بلادهم فضلوا حتى دفعوا في حروب انتهكتهم وظنوها فى اول امرها لعباً ولهواً

ثم وصفها لسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وصفاً يقصر عنه المخالط والعشير فمنه انه قال له عنها (بينما هى لجة بيضاء اذا هي زبرجدة خضراء نيلها عجب . وترابها ذهب واصراؤها جاب . وهى لمن غلب)

كيف يرى المصري الآن . هل قدر بعد ثلاثة عشر قرناً ان يفلتها من وصف عمرو بن العاص ام هى هي فهمها عمرو ليعلمها وعلمها ليحكم عليها . وكيف يرى الناظر مكان العظمة فى مقال هذا البدوى ومقدار العظة والاعتبار فيه مع انه لم يتحكك بعلوم اصول الكلام ولم يتحنك بفلسفة الحكماء ولم يشهر علمه بشهادات التدريس ولم يمل عليه الا نور بصيرته التى هى نتيجة حسن المنبت وطيب المغرس وصيغة الأدب الدينى الذى هو فردوس النفوس تنقد بواسطة الحقائق ويحكم عليها حكماً صحيحاً تؤيده الايام ويحققه المستقبل

وكان مع هذه الدنيا المقبلة والسعادة الخادمة والسلطنة القاهرة النافذة وقوله وهو على المنبر (لقد قعدت مقعدى هذا ومالاحد من قبط مصر على عهد ولا عقد إن شئت قتلت وإن شئت خمست وان شئت بعت) . اسبق الناس لحق وابعد الناس عن باطل فلم يعهد عليه اثناء ولايته عليها نقضه لعهد ولا

خفره لذمة ولا هتكه لعرض ولا نظره لما فى يد الناس من الاموال والثمرات والعروض ولم يستأثر لنفسه خيرا دون من يعول ويرعى

يستظهر على ذلك من تأنيه وتؤدته فى ارسال ما كان يحمل من مصر الى المدينة من الطعام ونظره في ذلك لطوق البلاد والعباد وكتاب أمير المؤمنين يلى الكتاب يطالب ذلك وهو يحتمل العتب منه ولا يحول عن سبيله وكما يؤخذ من جبايته لها أقل من جباية غيره . وقول سيدنا عثمان رضى الله عنه له (ان اللقاح بمصر قد درت ألبانها بعدك ياعمرو فقال له لانكم أعجفتم أولادها)

ثم أزال عن أهل مصر كثيراً من البدع وأذاقهم حلاوة الدين وحسبك بعروس النيل وبدعة الجبر من بدعة ومن ازالتها من حسنة

وحسبك من مناقبه الاسلامية الغراء رضاؤه بالحق عن نفسه واذعانه له . أخرج بن عبد الحكم عن أنس قال أتى رجل من أهل مصر الى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم قال عذت بمعاذ قال سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربني بالسوط ويقول أنا ابن الاكرمين فكتب عمر الى عمرو بن العاص يأمره بالقدوم عليه ويقدم ابنه معه فقدما فقال عمر أين المصرى خذ السوط فاضرب فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب بن الاكرمين ثم قال للمصرى ضعه على صلعة عمرو فقال يا أمير المؤمنين انما ابنه الذى ضربنى وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو (بم استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً)

وناهيك بهذه المنقبة الاسلامية من امير المؤمنين وعامله رضى الله عنهما وحسبك هذه الكلمة الطيبة خير شرعة يستقى منها جميع العالم معانى الحرية والمساواة والاخاء والعدل والاحسان

أفلا يأسف المصرى على نفسه اذا قايس بين ترقيها فى ذلك العهد وبين انحطاطها الآن . شتان بين نفس تسافر لوقتها من مصر الى الحجاز لتشكو ضربة من سوط وبين اخرى ترى حقها من جميع الوجوه مضاعا وهى مستأنسة بالظلامة لاتحس بالالم فضلا عن أن تهم بالشكاية منه

أفلا ينبغى للمتبجح بفضل الاجانب أن يقصر بعد هذا الفضل وأمثاله من مكارم الاخلاق عن الافراط فى الاطراء عليهم . أفلا يوجب عليه العدل أن يشرك قومه معهم ويضعهم فى طبقتهم فيذكرهم اذا هو ذكر (الكونت ميرابوه) أو (الجنرال دولافيت) أو (روبسبيير) أو (مارا) وغيرهم من الفرنساويين أو (كرومويل) أو (أوليفيه) الانكليزيان أو (واشنطون) أو (فرنكلين) الامريكانيان أو (جوردانولورونو) أو (جريبالدى) أو (كافور) التليانيين لان سعى هؤلاء فى تحرير أنفسهم ومساواتهم ببعضهم لم يكن بأشرف من المعنى الذى قصده أمراء الاسلام ولكن هؤلاء نشأوا بين قوم عرفوا فضلهم فاذاعوه وسمعوه فوعوه وفضلنا ضيعته أصحابه ولا حول ولا قوة الا بالله

هذا بعض الشىء من سيرة هذا الفاتح وبقى شىء لابد من ذكره والتنويه تذكرة لاخواننا القراء . قال ابن حجر فى الاصابة : « ان عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم واخباره عن طهارتهم واختياره لهم فمن ذلك قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وقوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) وقوله (لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم) وقوله (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه) وقوله

(يا أيهـا النبي حسبك الله ومن اتبعـك من المؤمنين) وقوله (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضـلا من الله ورضواناوينصرون اللهورسوله أولئك هم الصادقون) وقوله (لايستوى منـكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئـك أعظم درجـة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى) وجميع ذلك مع الاحاديث الشهيرة الـكـثيرة يقتضى القطع بتعديلهم ولا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله له الى تعديل أحد من الخلق على أنه لو لم يرد من الله ورسوله فيهـم شيء ممـا ذكرناه لاوجبت الحال التى كانوا عليها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده من الهجرة والجهاد ونصرة الاسلام وبذل المهج والاموال وقتـل الآباء والاولاد والمناصحة فى الدين وقوة الايمان واليقين القطع على تعديلهم والاعتقاد بنزاهتهم وانهـم أفضل من جميع الخالفين بعدهم والمعدلين الذين يجيئون من بعدهم » . ثم وجدت بين المسلمين طوائف من العجم والفرس ديدنهم التنـكر لـكل دولة ذاهبة ليحتلبوا خير كل دولة مقبلة أولئك أداهم هذا الضرب من النفاق الى الـكذب والبهتان فى حق خيار من سلف وخلقوا لهم صغائر وكبائر . وهـذا الفاتح الجليل ممن أصيب ببهتان كبير من هؤلاء وأدى فجورالـكاذب عليه ان يخلق له أفعالا ويختلق عليه أمورا ليمحى بسيئاته المـكذوبة حسناته هذه . وهيهات وقد أخذالناس ببهرج هذا القول وزورالـكلام المصطنع واغفلوا هذه المـكارم وماعلموا ان موقع الرجل من الملة والامة هو الموقع الذى تخطبه له هذه المحاسن وتوجبه له هذه المناقب . لا ماترميه به الاعداء . ولم يدركوا ان الامويين لم يشتموا الا لارضاء العباسيين وان الزاري بهم لم ينظر فى عمله

الى شيء من خدمة الحق أو اعلاء كلمة الدين وان الكل مابعد ذلك مقلدون

﴿سيدنا معاوية رضى الله عنه﴾

هو أبو عبد الرحمن معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الاموى

كان أبوه أبو سفيان أحد أشياخ مكة أسلم بعد الحديبية على ماحكاه الواقدى وقال غيره بل يومها وكتم اسلامه عن أبيه وأمه حتى أظهره يوم فتح مكة (وهو مثل الذى وقع للعباس رضى الله عنه إذ أسلم ببدر وكتم اسلامه الى قبيل الفتح)

قال أبو نعيم: «وكان من الكتبة الفصحاء وهو ممن كتب الوحى بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أمينه على وحى ربه جل وعلا»

وكان من اكابر العرب نسباً وقربا منه صلى الله عليه وسلم حاز شرف الاسلام وشرف الصحبة وشرف النسب وشرف المصاهرة المستلزمة لمرافقته له صلى الله عليه وسلم فى الجنة وشرف الحلم وشرف العلم وسودد الامارة والخلافة وكفى بنسبه فخراً قول النبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح «من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن». ميزه بذلك صلى الله عليه وسلم دون غيره زيادة فى اعلان شرفه ومجده

روى عن اجلاء الصحابة كأبى بكر وعمر واخته ام المؤمنين ام حبيبة وروى عنه اجلاؤهم وفقهاؤهم كعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وغيرهم فروى عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما روى مائة

وثلاثة وستين حديثا

كان عاقلا لبيباً عالماً حكيما داهية فى السياسة والكياسة وهو الذي قال « لوكان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت » قالوا وكيف ذلك يا أمير المؤمنين قال « اذا جذبوها أرخيتها وان أرخوها جذبتها »

حسن التدبير حكيما فصيحاً بليغا يحلم في موضع الحلم ويشتد فى موضع الشدة والحلم عنده أغلب . كريما باذلا للمال يكرم الوفدين ويحسن القرى ويقضى الحوائج اختلفت الناس فى حبه ولم تختلف فى فضله

مخايل فضل نشأت فيه وثبتت ونمت معه حتى صرن شمائل كمال وخلال خير وجلال . اخرج ابو سعيد المداينى قال نظر أبو سفيان الى ولده معاوية وهو غلام فقال ان ابنى هذا لعظيم الرأس وانه لخليق أن يسود قومه فقالت أمه (قومه فقط !! ثكلته ان لم يسد العرب قاطبة !!)

قال ابن عباس رضى الله عنه وكان من النقاد « ما رأيت للملك اعلى من معاوية رواه البخارى فى تاريخه أو قال : مارأيت أليق من أعطاف معاوية بالرئاسة والملك » وقال عبد الله بن عمر ما رأيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسود من معاوية بن أبي سفيان . قالوا وأين أنت من أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ؟ قال أولئك أفضل منه وهو أسود منهم

ووصفه عبد الملك بن مروان عند مامر بقبره فقال : انه كان ينطق عن علم ويسكت عن حلم . كان اذا أعطي اغنى واذا حارب أفنى»

نعم لقد كان سائس أمم ومربي دول . وراعى ممالك وكفى بقول سيدنا عمر بن الخطاب لجلسائه يوما : « تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية : » دليلا على انه سباق للعظائم من الامور

وكان يهون عليه كل شيء اذا انتظم أمر الملك وبدا صلاحه فابتكر فى الدولة أشياء لم يسبقه اليها أحد. منها الاسطول لحماية الثغور ووقاية فروج البلدان من تطرق الاعداء . والبريد لسرعة وصول الاخبار بمتجددات الاحوال وناهيك بها من نعمة عمت مزاياها الملل الان فمازالت ترقيها حتى كان من بعض خدامها تيار الكهرباء وأجنحة البخار . وديوان الخاتم وهو ديوان به نواب فاذا صدر توقيع من الخليفة بأمر من الامور ووصل التوقيع الى ذلك الديوان اثبتت فيه نسخة وختم عليها بالشمع وختم بختم ذلك الديوان لمضاهاته عند اللزوم لمراجعة الحساب

وفضائله كلها غرر منها ماروواه البخارى ان مولى لعبد الله بن عباس قال له انى رأيت أمير المؤمنين معاوية بن ابى سفيان اوتر بركعة فقال له « ان معاوية فقه »

ومنها ماروواه الترمذى وقال انه حديث حسن ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لمعاوية فقال « اللهم اجعله هاديا مهديا » ومنها ما أخرجه الحارث ابن اسامة من انه صلى الله عليه وسلم ذكر مناقب الاربعة الخلفاء ، وجماعة آخرين من اصحابه ثم قال : « معاوية بن ابى سفيان احلم امتى واجودها ». محا عنه بهذه الدعوة المباركة المقبولة مضائق النفس وثورانها ونزع عنه حب الدنيا الذى هو رأس كل خطيئة . ولا أحسن من هاتين الصفتين كما لا أقبح من الغضب والبخل . وأخرج مثله « المنلا » فى سيرته ونقله عنه المحب الطبرى فى رياضه انه صلى الله عليه وسلم ذكر مناقب الخلفاء الاربعة وجماعة من أصحابه ثم قال : » ومعاوية بن ابى سفيان أمينى وصاحب سرى »

ومنها انه دخل صلى الله عليه وسلم على زوجته أم حبيبة ورأس معاوية فى حجرها وهى تقبله فقال : « اتحبينه فقالت ومالى لا أحب أخي فقال صلى الله عليه وسلم ان الله ورسوله يحبانه »

ومنها مارواه الحافظ أحمد بن منيع قال قال النبي صلى الله عليه وسلم « عزيمة من ربي وعهد عهده الى أن لا أتزوج الى أهل بيت ولا أزوج بنتاً من بناتى لاحد الا كانوا رفقائى في الجنة »

ومنها بشارته بالخلافة فقد روي أحمد بسند حسن ان معاوية رضى الله عنه أخذ الاداوة [1] لما اشتكى أبو هريرة وسار بها الى النبي صلى الله عليه وسلم فبينما هو يوضىء رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع رأسه اليه مرة أو مرتين وهو يتوضأ فقال يامعاوية ان وليت امرأ فاتق الله واعدل

ولى قيادة الجنود فى الشام وثغور الروم فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب (وذلك بعد موت أخيه يزيد الخير الذى كان قائد هـذه الجنود فمرض فاستنابه منابه حتى مات فأقره سيدنا عمر بن الخطاب) وناهيك ببصيرته الفاروقية في الانتقاد والانتقاء لمثل الشام فى ذلك الوقت الملتهبة فيه قلوب أهل البلاد بنار الحقد على جماعة المسلمين إثر الفتوحات الاسلامية والمصاعب المكتنفة بذلك المقام فأقام فيها نحوا من عشرين سنة عاملا لسيدنا عمر ابن الخطاب وسيدنا عثمان بن عفان ثم أضاف اليها مصر ثم تسمى بالخلافة ومكث نحوا من عشرين سنة أخرى خليفة ولم يشك أحد من معاوية رضى الله عنه بل كانت الناس راضية عنه عاملا وهم فى عهد خلافته أرضى

---

(١) الاداوة المطهرة وهى اناء للماء من جلد يردف خلف الراكب وهو ما يعبر منه فى العرف (بالزمزمية)

ومن عجائب فراسته انه قال « ان أهل مكة أخرجوا رسول الله فلا تكون الخلافة فيهم أبدا . وان أهل المدينة قتلوا عثمان فلا تعود الخلافة اليهم أبدا »

مثل اذا شئت معرفة فضل سياسته وشخص ان أردت الوقوف على مقدار مدارك عقله ونبله الموقع الذي صارت اليه الامة الاسلامية بعد فتح الشام وثغوره والمقام الحرج الذى صار فيه قائدها وحاكمها وتأمل كيف كان حالها فى نظر أمة الرومان وجمهورية رومة أولا . ثم امبراطوريتها ثانياً . لاعتبارهم اياها أقدس مكان لانها وطن الانبياء ومكان المعجزات . وميدان الاديان . وبعد فتح مصر التى أقل وصف لها ما قاله الاسكندر المقدونى « ان مصر مركز للعالم بأسره اذا انبعثت منها أنصاف أقطارها تمر بجميع الامصار فيسهل على القابض عليها أن يصل منها الى حيث يريد ويختار » لا أشك فى انك تدرك مركز الشرق الاسلامى ازاء هذا الحال. ومركز الغرب إزاءه أيضا وتعتقد انه من أعسر المواقع وأحرجها

انشأ سيدنا معاوية رضى الله عنه فى سنة ٢٨ وهو عامل الشام فى خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه اسطولا سافر به في البحر فافتتح جزيرة قبرص وكان فى عمله هذا مصداق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأم حرام . أخرج البخارى عن أنس بن مالك عن أم حرام (بالفتح) بنت ملحان وكانت خالته ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من القيلولة) في بيتها فاستيقظ وهو يضحك فسألته فقال « عرض عليّ اناس من خيار امتي يركبون ثبج البحر الاخضر كالملوك على الاسرّة قالت فقلت يارسول الله أدع الله ان يجعلني منهم قال انت من الاولين » قال فتزوجها عبادة بن الصامت

فاخرجها معه فلما جاز البحر ركبت دابة فصرعتها . وقال بن الاثير وكانت تلك الغزوة غزوة قبرص فدفنت فيها [1] وكان امير ذلك الجيش سيدنا معاوية ابن ابى سفيان وضرب عليها جزية عظيمة

ثم فتح من الجزر إقريطش (كريد) وجزيرة (كوس) وجزيرة (رودوس) وجزيرة (ارواده) قرب القسطنطينية ومن البلاد لحد قيسارية (قيصريه)

انظر لعمله رضى الله عنه فى فتح هذه الجزر تجده ادرك ببصيرته المعنى الذى لاحظته دول اوربا فيها الآن واصبحت تتناطح عليها من اجله وان عمله في ذلك الوقت عمل الحكيم الحليم العاقل الحازم الذى قيل فيه

البس لكل حالة لبوسها   إما نعيمها واما بوسها

صان كرسى الملك بالابهة والعظمة وجلب اليه القلوب بحسن المجاملة وملكها بجميل المعاملة فهابه العدو وطمع فى كرمه الصديق وجيش المسلمين في ذلك الوقت لم يصل الى مائة الف مقاتل وجميعه منتشر فى البلاد من

(١) أم حرام لا أم هانىء كما زعم بعضهم) عند ذكر خبر المسجد الذى شيده مولانا السلطان فى قبرص) قالوا على قبر أم هانىء وأم هانىء لم تهاجر من مكة والدليل على ذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبها بعد هرب زوجها هبيرة الى اليمن وبقائه على كفره حتى مات فقالت له انى مصبية فأخاف أن يؤذوك يارسول الله فاثنى عليها فقال (خير نساء ركبن الابل صوالح نساء قريش احناه على ولد وأرعاه على زوج فى ذات يد) ثم لما نشأ بنوها عرضت نفسها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اما الآن فلا فقد أنزل الله قوله تعالى (انا أحللنا لك أزواجك اللاتى أتيت اجورهن وما ملكت يمينك مما افاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك) فام هانىء ماهاجرت مع الرسول فضلا عن الذهاب لقبرص

الشام الى ارمينيه ومنها الى مصر وغيرها من الجزر القصوى والاراضى
التى افتتحت من بلاد العرب الى الصين

كانت الدولة في عهده بدوية حضرية فكان اجتماعها وتعاونها في حاجاتها
بالمقدار الذى لايورث الرفه والدعة والترف البالغة مبالغها فى عهد المعاش
والمسكن فكانت الامة مقبلة على الدنيا بالمقدار الضرورى فقط. محافظة
على البعد من الانغماس فى الترف واسباب الشهوات التى لاتوجد دواعيها
الا فى نهاية العمران والحضارة اللذين هما نهاية الشر والبعد عن الخير

ثم انفرد له الامر فحارب الروم بحرا وغزاهم برا واغرق من سفن
قسطنطين الثانى جزأ عظيما فى خليج (الصيالوق) بسواحل اقليم (ليسيا)
من الاناضول في سفح جبل (فينكس)

ثم زاد فى مقدار اسطوله وسيره فى زمن الربيع حتى بلغ به سواحل
مرمرا فنزل غرب القسطنطينية وحاصرها ست سنين يؤخر فى كل سنة
(فى تشرين الثانى) الموافق (نوفمبر) أساطيله الى مينا (سيزنقه) التى كان
استولى عليها ثم يعود للحصار زمن الربيع

ثم سير جيشه الكثيف وأمر عليه سيدنا سفيان بن عوف وأمر
ابنه يزيد بالغزاة معه فتثاقل واعتل فأمسك عنه ثم أصاب الناس فى غزاتهم
جوع ومرض شديد وسمع عن يزيد بيتين وهما

اذا جلست على الانماط مرتفقا   فى دير سمعان حول أم كلثوم
فما أبالى بما لاقت جنودهم   بالفرقدونة من حمى ومن نوم

فعلم انه أراد بتثاقله اتمام لذائذه فاقسم ليلحقن بسفيان بن عوف في
ارض الروم ليصيبه ما أصاب الناس وسار وكان فى الجيش سيدنا أبو أيوب

الانصاري فاقتتل المسلمون واشتدت الحرب بينهم وتوفي أبو أيوب عند القسطنطينية بالقرب من سورها وهو ممن شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفين مع «على» وغيرها من حروبه

وفى تشديده على يزيد فى اللحاق بالجيش مالا يخفى من انه لا تأخذه فى الحق لومة لائم ولا يعرف فيه قرابة ولا رحماً ولا يصون نفسه ولا أولاده عن الجهاد فى سبيل الله ومقاسمة المسلمين فيما هم فيه من خير ومن شر ثم استمرت الغزوات براً وبحراً وقواده فيها (بسر بن ارطاه) و(سفيان بن عوف) و (فضالة بن عبيد الانصارى) و (مالك بن عبد الخثعمى)و (عمرو بن يزيد الجهنى) حتى فتحوا من البلاد فى مدة وجيزة مالو أردنا ذكر خبرها لا ستلزم أسفاراً ضخمة

اختصوا بالعناية الاهلية فحالفتهم القوة واحتضنتهم السعادة فلم ينحرفوا عن سنن الاعتدال ولم يغلب الرجل منهم على رايه غالب . ولم يلفته عنه أدنى الرضا وأدنى السخط وثقوا من أنفسهم فوثقت بهم الامة وأصبحوا متحدين فى آرائهم غير مختلفى الاهواء

والى هنا يحق للقلم ان يقف دون وصف غرابة هذا المشهد الذى تفاوتت فيه مراتب الهمة والعزيمة الى أعلى ما يمكن من منازلها الرائعة . يحق له ان يقف دون العجب من هذا الحال الذي فات سعة العلم وتعدى قوة العقل واصالة الحكم وذهب بكثير من الناس الى ماوراء عجب المحسوسات وعلا بهم فوق ما تتخيله الافكار . ألا عارف يخبرني كيف كان ذلك : مقام الخلافة يحفظ . ومعظم جزر البحر المتوسط تؤخذ . وبلاد الى حدود الصين تفتح . والروم تهدد وتحصر وجيش الدولة لا يبلغ مائة ألف نفس على الاكثر

منتشر فى الجهات كما ذكرنا وعلى فرض اجتماعه فهو جزء من ثمانين من الثمانية ملايين الذين تحت حكومة هولاندا من مسلمى الجاوه الآن فضلا عن بقية الملايين المنتشرة على وجه الارض

مابالهم تعددوا بعد توحدهم وتفرقوا بعد تجمعهم : أين التناصح بالحق والتواصى بالصدق والاعتصام بالصبر ؟ أين الحق الذى فرض على كل مسلم القيام به لدينه ونفسه وأهله . وبلده ووطنه ؟ اللهم اما ان أولئك كانوا ارتقوا عن أفق الانسانية الى عالم سماوى أو تكون هذه الملايين انحطت عن افقها الانسانى الى أفق العجماوات

اذا كان لابد من مذكر بالخير ومشير بالرأى فليحقق لمن هو مطلوب منهم الاصلاح وموكول اليهم أمر الامة وهم المسئولون عن كل صغيرة وكبيرة تلامسها بين يدي الخالق والمخلوق . ان البدع والتعاليم الفاسدة التى فرطوا في منعها جعلت المسلمين شيعاً وأذاقت بعضهم بأس بعض حتى صار الكل غرضا لسهام مظالم الاعداء . ولا تزال الامة تزداد تفريقا حتى تزعزعت عقائدها وفسدت آدابها وتجرأت الناس على استباحة المحظورات وأصبح لها أقبح الاثر في العوائد والاخلاق

ان باب هذه الفتن انما فتح على الامة بانصراف كبرائها عن الجادة المستقيمة وان الله لمطلع على أحوالهم عالم بما أضاعوه من أمر عباده ولقد كان لهم سوء الاثر فى تضليل هذه العقول وفساد الاخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم فليتقوا الله في هذه الامة ولتعلم هى انها أسرفت على نفسها وان هى أفاقت اسفت كل الاسف على مافرطت وندمت وان كان الندم لاينفعها على مافات فربما ينبهها الى ماهو ات

هذا بعض الشيء من هذه السيرة الجليلة سيرة هذا الفاتح واصحابه ورجال دولته الذين جمعوا امرهم بعد الشقاق عسانا نتعظ بها فنلم شعث الفرقة وقد نبع قوم ينتقصون فعله وينالون منه وهم اقل من ان يعدوا فى مصاف الرجال (وإن يسلبهم الذباب شيأ لا يستنقذوه منه) ولكن اهل السنة جميعاً على حب اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ودفع التأثيم عنهم كالشأن فى المجاهدين لان الله امتن عليهم بمنة لم يشاركهم فيها أحد وهى حلول نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم وامداده لهم بما قطع غيرهم من اللحوق بهم فى باهر فعلهم وكمالهم وعظيم استعدادهم وسعة علومهم وحقيقة شرفهم فاللهم ارض عنهم واحشرنا معهم واجزنا بمحبتهم خيراً واهدنا لبعض عملهم هذا . آمين يارب العالمين

﴿ الوليد بن عبد الملك ﴾

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاصى بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أبو العباس الاموي بويع له بعهد أبيه يوم الجمعة النصف من شوال سنة ست وثمانين وهو ثانى الخلفاء المروانيين

أى بلاد فتحت وأى مساجد عمرت واى آية للحضارة والعمران ظهرت في عهد هذا الخليفة المجاهد المقدام الفاتح ابى الايامى وثمال اليتامى وملجأ العجزة والمساكين الذى شرح القلوب المحزونة ببره وفتح البلاد المستحكمة بسيفه وعدله شبيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه في فعله وفتحه وانتشار الاسلام بفضله حتي قالوا وايامه كايامه

كائنا كان في فعله متحريا مكان الوجدان من القلوب ومقر التصديق من العقول . لذلك تجد الذى عمره من المساجد وشيده من مواضع العبادة من انفس ما يتقرب به الى الله العامل العابد وما فتحه من البلاد والممالك من اشرف مايفتخر به الانسان الفاتح القائد . فتراه مثلا يجدد فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المشرق ويفتح الاندلس للمسلمين بالمغرب ان ذلك لمن اعظم نتائج الفطنة وثمرة العقل . ولذلك كان عصره من ارقى العصور مدنية وأغزرها فتحاً واتساعا وعمرانا واجلها عظمة وابهة لاشتراك الامة في اعمال الخير وانصرافها فى سبيل المجد والاجتهاد وتوجه سعيها في التغلب على الغير والذب عن الحوزة

ولى الخلافة في اواخر سنة ست وثمانين كما قدمنا فما دخلت سنة سبع وثمانين عليه الا وهو مقسم اوقاتها بالفكر والخيال جاعل ايامها وساعاتها ينابيع سعادة ووسائل ارتقاء

بدا بتعيين عماله في البلاد التابعة للخلافة الاسلاميـة بانتقاء وانتقاد يفوقان حد الوصف ويتعديان موضع التحرى وحسبك انتقاء مثل سيدنا عمر بن عبد العزيز اميراً على مكة المكرمة والمدينة المنورة فقد جمع بين المسجد وحمامته وخلى بين الخطيب ومنبره

ثم شرع في بناء جامع دمشق الذى هو احدى عجائب الدنيا جمع فيه مائة الف ماهر من الصناع وحمل اليه اربعين حملا من الفسيفساء هدية من ملك الروم ثم اتت وفوده لمشاهدته فصرعتهم عظمته واستفزتهم ابهته وناهيك بهيبة مكان سلاسل قناديله من اللجين المسبوك . ثم كتب للجهات بتوسيع المساجد وبنائها فكتب بادخال حجر رسول الله صلى الله عليـه

وسلم فى مسجده وتوسعته بمائتى ذراع وهكذا جدد المسجد الحرام ومسجد قبا ومسجد مصر

ثم والى الفتوح وسير قبيبة بن مسلم الباهلى من اكابر قواده ففتح خوارزم وسمرقند وسردينيا

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين فجهز مسلمة اخاه والعباس ابنه لغزو الروم فجمعت خمسون الفاً فلما التقى العسكر ان غلبت الروم وفتحت بلاد كثيرة من مملكتها

وفي سنة تسع وثمانين فتحت جزيرتا (منورقة) و (ميورقة) من من جزر بحر الروم شرق الاندلس . وفى سنة تسعين فتح عسكر الاسلام (نسف) ومدائن اخرى وحصونا من ازربيجان كثيرة وفتح محمد بن مروان جهة دربند (١) وحصونه ودان له ماوراء باب الابواب (١) وفتح الحجاج بخارى ووصل محمد بن القاسم لارض الهند ودخل قتيبة (قشغر) اول مدن الصين وافتتحها بعد حرب عوان لاقى فيها ابن أخت ملك الصين فى مائتى ألف مقاتل

ثم دخلت سنة اثنين وتسعين وكان موسى بن نصير أمير المغرب وعامله على افريقية وكان استنزل يوليانوس لطاعة المسلمين بعد حروب كثيرة وعرف منه السبيل لفتح الاندلس فارسل خيرة القواد طارق بن زياد الليثى لفتحها فجاز طارق البحر في (٣٠٠) فارس من العرب واحتشد معهم من البربر نحوا من عشرة آلاف وصيرهما عسكرين ترأس على احدهما

---

(١) راجع دائرة المعارف وجغرافية ملطبرون فى الكلام على هذين الموضعين تجدما يدل على ان دربند أوباب الابواب هو سد ذى القرنين عليه السلام

ونزل به جبل الفتح الذى سمى باسمه والآخر رأس عليه طريف بن مالك النخعى فلقيهم رودريك فى نحو من اربعين ألف فارس فهزموه وافتتحوا البلاد وغلبوهم على مابأيديهم مع كثرتهم وقوتهم لانهم مقبلون بقلوبهم متحدون بوجهتهم

فلما بلغ خبرهذا الانتصارموسى بن نصير استخلف على القيروان ولده عبد الله ونهض في سنة ثلاث وتسعين فى عسكر عظيم ودخل الاندلس وأتم الفتح الى برشلونه في الشرق وأربونه في الجوف وصنم قادس فى الغرب

أصبحت الاندلس وهى المملكة المعدودة فى الرتبة السادسة بين الممالك الاورباوية داخلة تحت حكم مملكة العرب وجناح الاسلام يرف فوقها غربا وفوق قارة اسيا شرقا

انظر لعزيمة هذا الفاتح الجليل ومضاعفة الدين واليقين لقوته. أجمع رأيه أن يأتى الى المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز الى الشام خائضا ما بينهما من أمم الفرنجة والاعاجم وغيرهم يعنى انه يخترق مملكة فرنسا من شمالها فيدخل فيها ثم يعرج من غرب أرض سويسره أو مملكة جرمانيا ثم يدخل في مملكة استوريا ثم الى الروملي الى القسطنطينية الى الاناضول فدمشق أوماحوالى ذلك . وكاد يكون ذلك لولا حرص الوليد على جماعة المسلمين وقلقه عليهم وموالاة كتبه لموسى بن نصير بالعودة ولزوم طاعته فقفل راجعا وولى ابنه عبد العزيز عليها وأسكنه قرطبة ومن هنا اتصلت العرب بأراضى الفرنجة وتوغلوا فيها ثم دخلت سنة ثلاثة وتسعين ففتح فيها مدينة أردبيل والكرخ والبيضاء وخوارزم وفتح فى سنة أربع وتسعين كابل وفرغانه والشاش وفتحت أقاصى جهة

الباب ومدينة طوس فى سنة خمسة وتسعين

ثم دخلت سنة ست وتسعين التى أراد الله أن يتقاص ظل هذا الخليفة العادل عن الدولة فيها ولا معقب لحكمه ولا رب سواه فقضى رحمه الله بدير مران وحمل على أعناق الرجال ودفن بدمشق وتولى دفنه سيدنا عمر بن عبد العزيز فودع الدنيا مصافحا لخير أهلها . وكانت مدة خلافته تسع سنين وثمانية أشهر استقر فيها نصاب الدولة فى مقر عزه من السلطان والقدرة وكمال الفضيلة ولولا ان عاجله الفناء لاقتطع من الممالك الاوروباوية ممالك عظيمة وشيد لخلافته ومهد لعصابته ماهو أجل وأفخم مماشاده وبناه وقد رزقه الله حظا فى نفسه وذريته وأهل بيته فولد له من الذكران أربعة عشر ومنهم ولده عمر فحل بنى مروان الذى كان يركب فى ستين من صلبه

اتسعت ممالك الاسلام فى دولته اتساعا لم يمهد له مثيل وجبى من الاموال شيئاً كثيرا وكانت الدولة في عهده فى غاية الثروة وكان في بيت ماله ما يكفى الحاجات وذوى الحاجات ستة عشر سنة وحث الناس على الابنية والعمار وبناء الضياع وأصلح الله به وبهم الارض فاحالوا القفار حواضر وتهيأت الامة واستعدت لقبول كل خير وكان مع اتساع هذا الملك وزيادة عمرانه يقظا فى أمر دولته لا تفوته الذرة ولا تكاد نفوس أعدائه تحدث سرها بمخالفته وكانت له عيون تطالعه باخبار الناس منبثة فى كافة أرجاء ممالكه ليقفوا له على متجددات الاحوال . من ذلك مايحكى ان الهيصم بن جابر أحد الخوارج عليه اختفى وهرب الى المدينة لما أحس بشدة التضييق عليه والطلب له ثم أطال شعره واختضب وغير من شكله وهيئته ودخل فى غمار الناس ولم يعرفه أحد ثم بلغ الوليد ان أمره هذا

قد أعيى الحجاج فنقب عليه مرة فعلم ان الرجل بالمدينـة على الهيئة التي ذكرناها فكتب الى عثمان بن حيان بالمدينة ينبئه بأن الرجل عنده ويصف له من أمره وحاله ماهو عليه فقرأ عثمان الكتاب على الناس والهيصم جالس فنظر اليه رجل كان بجانبه وقال له ما أنا بمخليك وقبض عليه وأتى به عثمان بن حيان وأقر أنه الهيصم

ومن فضائله انه كان يختم القرآن فى ثلاث وكان يبر حملته ويقضى عنهم ديونهم وكان محباً للخير محبوباً عند الناس ساهراً على ما فيـه سمو مقام الخلافة وهو أول من حمل الطعام الى المساجد

ومن غرر أعماله التى سبق بها من جاء قبله وأتعب بها من جاء بعده انه حبس المجذومين والعميان والزّمنى وأجرى لهم الارزاق وبنى لهم البيمارستانات وحشر اليها المرضى وأعطى كل مقعد خادما وكل ضرير قائدا وشيد التكايا وجمع فيها المعوزين وقال للمحتاجين لاتسألوا

هو أول من لاحظ أمر الصحة بأشرف معانيه فقطع بين أصحاب العلل والاصحاء ووصل بينهـم وبين النعمة والاحسان فمنع تلك الوجوه المحتاجة من الخروج للطلب فى الاسواق وكلف القادر الصحيح بالخدمة والعمل فحقق انصافه بين الرعية بالعدل لان فى انزواء المقعد ظهور القادر الذى وفقه الله للعمل يتميز بعمله منهم ويربأ بنفسه أن يرى عالة على الناس.

وتناهى فى الاعتناء بأمر الصحة حتى كان من عوائده سؤال الاطباء عن أهوية البلدان ونفعها للامراض فلما سمع منهم ان هواء دمشق ينفع المجذومين أسس هناك بيمارستاناً للمجذومين لا تزال آثاره باقيـة خارج المدينة للآن

وهو أول من وضع المنار في الطرقات وناهيك بها من نعمة تحقق الأمن العام وتستدعى زيادة العمران

وهو أول من وضع علامة الاميال فى الطرقات مابين المدينة والشام وغيرها ورقم عليها أعداداً ليعلم المسافر القدر الذى قطعه والباقى عليه من سفره

وهو اول من حفر الآبار من الشام للمدينة ومن المدينة لمكة يشرب منها الوارد والمتردد

أفلا ينبغى لنا ان نذكره بالخير اذا رأينا الآن اهتمام الممالك والجمعيات بأمر الصحة العمومية وجمع الاعانات لها وعجزهم على كثرة مواردهم عن القيام بما كان قائماً به الوليد

أفلا ينبغى أن نذكره بالخير اذا رأينا الآن عدد الكيلومترات على جانبى السكة الحديدية وهي العلامات التى كان هو أول من وضعها بالفوائد التى بيناها ولضبط مواقع الوقائع من خير أو شر . نعم ينبغي لنا ذلك لنعرف للمبتكر حقه فى الفضيلة وللمخترع قدره فى الاحسان . وبالجملة فقد كانت الدولة والأمة في مدته آية فى العمران والحضارة وتشييد مواطن الخير والبر والاحسان فلا تجد بقعة الا وفيها شى من ذلك

كثرت فى عهده الخيرات ولم يعهد عليه فيها شيء من أبواب الظلامات كتسخير الرعايا بغير حق أو اغتصاب شيء من معاشهم ومكاسبهم من اعمالهم ولم يدخل الضرر على أحد بانتقاص عمرانه أوتخريب جداره لغاية له . ولم يتسلط على أموال الناس بشراء مابين أيديهم بأبخس الاثمان ولم يجنح الى المكوس وزيادتها والتناهى فيها للحد الذى لايجيزه دين ولا شرع

ولا عقل ولا طبع كما رأينا وسمعنا به . وهذا مصداق ما قاله الموبذان (لبهرام) ملك الفرس من أن الملك لايتم عزه الا بالشريعة وهي بحبوحة العدل والخوف من الله وهو رأس الحكمة (لانه لاشيء بعد القيام بطاعة الله والتصرف تحت أمره ونهيه) ثم لاقوام للشريعة الا بالملك ولا عز للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل للمال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الله وجعل الملوك قيمة عليه

هذا حال الدولة وهي في نشأة الحياة تسري روح العدل فيها من السلطان الى أهله الى حاميته الى جنده الى أمته الى جميع رعيته بالتشبه والاقتداء فتجد الكل سواء في الملابس والشارات والعوائد والاخلاق والاحوال والتماثيل في الجدران والمصانع والبيوت وهذا معنى قولهم « الناس على دين ملوكهم » لان الملك غالب والرعية مقتدون لاعتقادهم الكمال فيه. أما حالها وقد صارت الى غير ذلك فالتكاسل والاستعباد حتى تصبح الامة عالة على غيرها، يقصر الامل فيها ويضعف الاعمار ببطلان النشاط واختلال القوي وتتلاشى المكاسب والمساعي لعجز الناس عن المدافعة عن أنفسهم وعما في حوزتهم وتنقبض الايدى عن العمل فيصبح طعمة لكل آكل ثم يذهب ما للملك من الابهة والجمال وتغشى الناس أخلاق الحقد والحسد فاذا تم ذلك والعياذ بالله عمت النكبات والمصادرات وضعفت الشوكة الخارجة وأصبح سهم القدرة لا يتعدي الامة وأصبحت هي معرضة للهلاك والله أعلم

سليمان بن عبد الملك

هو سليمان بن عبد الملك أبو أيوب من خيار خلفاء بني مروان . ولى الخلافة بعهد من أبيه بعد أخيه في جمادى الآخرة سنة ست وتسعين. وتوفى فى سنة تسع وتسعين . فكانت مدة خلافته ثلاث سنين وثلاثة أشهر بدابق • بين حلب وعنتاب . كان طويلا جميلا فصيحا لسناً أديباً متورعا عن الدماء مؤثرا للعدل محباً للغزو . روى قليلا عن أبيه وعبدالرحمن ابن هبيرة وروى عنه ابنه عبد الواحد والزهرى كان حسن السيرة يرجع الى دين وصحبة للحق واتباع للقرآن واظهار للشرائع الاسلامية . وهو أسخى بنى أمية وبني مروان بالدرهم والدينار

استكتب يزيد بن المهلب والفضل بن المهلب وعبد العزيز بن الحارث ابن الحكم . وكان خطيباً فمن خطبه الموجزة :

« أيها الناس اتخذوا كتاب الله اماماً وارضوا به حكما واجعلوه لكم قائدا فانه ناسخ لما قبله ولن ينسخه كتاب بعده »

كان وزيره سيدنا عمر بن عبد العزيز صفوة أهل زمانه فكان يمتثل أوامره فى كل خير وكلها خير فأصبح جميع ما أسرف فيه الحجاج منسوخا : عزل عماله وأخرج من كان في سجن العراق ورد المنفيين وأحيا الصلاة لاول وقتها . ثم استخلف عنه سيدنا عمر ففتح أعماله بخير وختمها بخير فسموه مفتاح الخير

لم يقصر فى مدته على قلتها من التوسعة على المسلمين بل كانت أيامه ذات فتوح متوالية وكان غيوراً شديد الغيرة فامتدت الدولة فى مدته الى

آخر بلاد الاندلس واستتب له الامر فيها وفتحت مدن الصقالبة . وحصن الحديد وسردا . وشفا . وجرجان . وطبرستان . وناهيك بهما وهما مما أعيي سابور ذا الاكتاف وكسرى قباذ . وكسرى بن هرمز . بل مما أعيى عمر وعثمان ومن بعدهما من خلفاء الله تعالى رضى الله عنهم

كانت الطريق قبل فتح جرجان مخوفة يتوسطها الاشقياء فيقطعون السابلة ويفسدون في الارض . فكان بهذا الفتح إسبال ستر الامان على كل قاصد لتلك الجهات للانتفاع من خيراتها التى كانت محجوبة بيد هؤلاء الاشقياء

حج بالناس سنة سبع وتسعين ومعه سيدنا عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه ففرض لاهل المدينة أربعة آلاف فرض لقريش خاصة ليس فيهم حليف ولا مولى . فدخل جماعة من قريش عليه وقالوا له : انما جعلناذلك لموالينا . ففرض سليمان أربعة آلاف أخرى

ثم بعد قضاء الفريضة على أكمل أوجهها عاد الى مقر خلافته وندب أخاه مسلمة وقطع معه البعوث على أجناد الشام والجزيرة وجمع آلات الحرب للصيف والشتاء والمجانيق والنفط وغير ذلك من أدوات زمانه . وعقد له على الجيش برا وبحرا وخرج معهم بهيئة الخلافة وهيبتها ومعه جماعة من الفقهاء حتى نزل « دابق » وجاءته الاجناد من كل ناحية فأتم أمر الجيش

رحل « مسلمة » أخوه بالجيش فسلك طريق مرعش وافتتح مدينة الصقالبة كما ذكرنا وشتا حواليها ثم سار لطلب القسطنطينية حتى نزل عمورية وبطريقها « ليون » بن قسطنطين المرعشى فوادعه مسلمة وأعطاه رهنا وأخذ

منه مثله وتعاهدا على المناصحة والمظاهرة على أهل القسطنطينية وحلف «ليون» أن يكون عوناً له . ثم أخذ ينتقل به الحال حتى دخل القسطنطينية و«تيدوس» حاكم عليها فما زال يلعب بكرة الاروام مرة وبصولجان المسلمين أخرى حتى دس لتيدوس من قتله وتفرد بالملك من غير منازع ثم غدر بمسلمة ونقض عهده وأغراه بحرق ذخيرته في كلام طويل يطلب في مظانه من كتب التاريخ (١) ولاقت المسلمون من الاذى والشدة مالم يلقه أحد وأكلوا الدواب والجلود وأبلوا في سبيل الله بلاء حسنا . وكل ذلك سببه سلامة النية وصدق الوعد والبقاء على العهد ولا حول ولا

كل خليل كنت خاللته ما ترك الله له واضحه

فكلهم أروغ من ثعلب ما أشبه الليلة بالبارحه

هذا وسليمان مقيم بدابق لا يقدر على إمدادهم بشيء من الازواد لكثرة البرد والثلج الذى قطع بينه وبين جيشه العظم الذى يبلغ نحوا من مائة ألف مقاتل وقواده ابنه داود ومسلمة بن عبد الملك أخوه وجماعة من أهل بيته وعمر بن هبيرة

مرض بالحمى فأقسم أن لا يعود الى مقر خلافته حتى يأتيه خبر فتح القسطنطينية أو يموت حيث هو فلما اشتد عليه المرض سأل «رجاء بن حيوة» — وكان وزير صدق لبنى أمية — فى أمر العهد فقال له «ان مما يحفظ به الخليفة في قبره أن يولى على المسلمين من بعده الرجل الصالح» قال «كيف ترى فى عمر بن عبد العزيز ؟» فقال «أعلمه والله خيرا فاضلا مسلما» فقال «هو والله على ذلك» وأشار على «رجاء» أن يجعل يزيد بن عبد الملك أخاه ولى

---

(١) راجع ان شئت نبذة من عيون الحقائق مطبوع فى ليدن تجد هذا مفصلا

العهد بعد سيدنا عمر بن عبد العزيز فكتب كتابا وختم عليه ودعا الناس الى بيعته مختوما وقال له « اخرج الى الناس فليبايعوا على مافيه » فبايعوا . ثم مات سليمان وفتح الكتاب فاذا فيه العهد لسيدنا عمر بن عبد العزيز . فتغيرت وجوه بنى أمية ثم لما سمعوا بعده اسم يزيد بن عبد الملك أخيه تراجعوا فأتوا عمر فسلموا عليه بالخلافة

اللهم لازراية [1] على السابق ولا تذرية [2] للاحق . ولكنها فعلة فاتت الجميع حتى الولى والوصى . فلم يعهد فى جاهلية ولا اسلام عهد عهد رعاية للورع والصلاح والاهتمام بأمر المسلمين أجل من هذا

لم يمت سليمان بن عبد الملك رضى الله عنه عن غير عقب بل عن أربعة عشر ولداً من الذكور ومنهم داود قائد جيشه فى حرب القسطنطينية وغيرها ولا عن غير قرابة . فاخوانه كثيرون ومنهم مسلمة الذى أبلى في حروبه وفي حصار القسطنطينية وغيرها فى عهده وعهد الوليد أخيه بلاء حسناً. ولكن رأى ان حقوق هؤلاء من جهة لحمة نسبهم به وقرابتهم اليه أقل من حق جماعة المسلمين الذى جعله الله فى عنقه فسلم الخلافة لخير أهل زمنه فخرج من عهدتها طاهر الذيل . وناهيك بكلمات وزيره « رجاء بن حيوه معه في هذا الموقف الحرج

يدلنا هذا الحال على ان العلماء فى كل زمن هم بمنزلة العقل المدبر والروح المفكر من الامة فصلاح حالها بصلاحهم وفساده بفسادهم ولقد ابتلى الله المسلمين فى أزمنتهم الاخيرة ببعض علماء لايعرفون من دنياهم شيئاً الا نصب هيا كل الاطراء ورفع تماثيل المدح لكل رئيس من الرؤساء

(١) زرى عليه زريا وزراية عابه (٢) ذريته تذرية مدحته

وعظيم من العظماء فضلا عن خليفة من الخلفاء

فسدت أخلاق العامة بالزور والرياء والنفاق والكذب والمحاباة والمصانعة والمداجاة بل تزعزع اعتقادهم بسبب ذلك وأخذوا ينتصرون لهوى نفوسهم الخبيثة وأهوائهم الباطلة والعلماء لا يصدونهم عن هذا بشرح الحقائق والترجمة عن السجايا الجميلة والاخلاق المرضية

سأل سليمان بن عبد الملك رضى الله عنه « أبا حازم » وكان زاهداً فقال له « كيف القدوم على الله تعالى ؟ » قال « أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله مسروراً وأما المسىء فكالعبد الآبق يعود الى مولاه محزونا » قال سليمان « فما بالنا نكره الموت ؟ » قال « لانكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم النقلة من العمارة للخراب »

ياغوثاه من هذه الكلمات !! كيف تقال في وجه خليفة جمعت خلافته بين أوصال المشرق والمغرب وتحت رايته الجيوش الجرارة وآلات الحرب والضرب وأمره نافذ فى قارتى آسيا ومعظم أوروبا ومابينهما . فان لم يكن هذا الزاهد من خير علماء الآخرة إذ قالها وهذا الخليفة من خير خلفاء الدنيا إذ اتعظ بها فمن ؟

ومازالت الدول الاوربية المتمدنة توحى للمسلمين بتمدنها حتي اعتقدوا كما برهنت لهم ان الدين حائل دون الارتقاء وقيد ثقيل لا يمكن الانسان من الوثوب الى معالى الامور ثم سلكت بهم سبيل الترقى والسيادة الذي هدتهم اليه وملكتهم مقاليد العز والسعادة التى مكنت يدهم منها ولم تمض الايام وتتصرم الليالى حتى انكشف السر وظهر الصبح لذى عينين ورأوا أنفسهم يرسفون فى قيود الذل وان تلك الامم المتمدنة كانت ترمى لغرض

آخر تفننت فيه بحسب أطماعها وليس الغرض منه الا ترك هذه الشعوب لآداب دينهم وعوائدهم وتقاليدهم وادخالهم مضايق دون الاستصباح لها حتى يمسون ويصبحون مضغة للآكل . وكان كذلك

ألا نظرة صادقة من هذه الأمة المسكينة لما كانت فيه ونظرة لما صارت اليه لتعلم انها مخدوعة فيما يبهج الناس منظره ويسر القوم رؤياه فتنتبه لمصابها وتعلم بعلتها فلا تحيد عن الهدى الصحيح والطريق المستقيم حتى تخرج من درك الشقاء ولا تنتهي الى شر المسير

انما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

﴿ سيدنا عمر بن عبد العزيز ﴾

ماذا تسع هذه العجالة من وصف هذا الخليفة العالم الورع الزاهد الخاشع الدين اللين السهل القريب الذي ملأ الارض عدلا وجاء مصداقا للخبر المأثور : « ان الله يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها »

ماذا تسع من وصف من أفرد أكابر المؤلفين المؤلفات فى أخلاقه وصفته وفضائله وخصائصه وضرب المثل بعدله وشاكل بفعله الجميل أفعال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى قيل : « عدل العمرين »

هو أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاصى ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الاموى . وأمه أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه

هو التابعى الجليل الذى روى عن أنس بن مالك وعبد الله بن أبى طالب وسعيد بن المسيب والسائب بن زيد ويوسف بن عبد الله وخلائق كثيرين

ولد بحلوان المعروفة (من قرى مصر) سنة احدى وستين وكان يقال له أشج بنى مروان : ضربته دابة في جبهته وهو غلام فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول : « ان كنت أشج بنى مروان انك لسعيد » قال ذلك لان سيدنا عمر ابن الخطاب كان يقول . « من ولدى رجل بوجهه شجة يملأ الارض عدلا »

ولى الخلافة وبويع له يوم مات ابن عمه سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين عن عهد منه اليه (كما قدمنا فى ترجمته) من غير علم منه فظهرت عليه علامات الاستياء من ذلك . قام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أيها الناس انه لا كتاب بعد القرآن ولا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم . ألا وإنى لست بقاض ولكنى منفذ ولست بمبتدع ولكنى متبع ولست بخير من أحدكم ولكنى أثقلكم حملا . وان الرجل الهارب من الامام الظالم ليس بظالم . ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »

بدت عليه مخايل الورع والدين والصيانة والزهد والنزاهة من أول حركة بدت منه . كان شديد التنعم والاختيال فى مشيته فخرج عن جميع ما كان فيه من ذلك النعيم والمأكل والملبس والمتاع حتى النساء . ورد ما كان لزوجته وهى بنت عمه عبد الملك بن مروان الى بيت المال . وكان دخله أربعين ألف دينار فرد ذلك كله وخصص لنفقة يومه درهمين . ثم صار يلبس القميص الغليظ ولم يتعد الواحد فكان اذا غسلوه مكث حتى يجف . ويأكل الغليظ من الطعام ورد جميع المظالم حتي انه رد فص خاتم كان في يده قال اعطانيه

الوليد من غير حق

حدثت زوجته انه يكون فى الفراش فيذكر الشئ من أمر الآخرة فينتفض كما ينتفض العصفور في الماء ويجلس ويبكى وهى تقول : « ياليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين »

علم الناس انه مؤثر دينه على دنياه فآثروا حبه على نفوسهم . أعرض عن ركوب خيل الخلافة والاجتزاء بمركبه الخاص وهجر مكان حكومتها ولازم بيته

وكانت خلافته سنتين ونصفا على الاكثر ازدان دست الخلافة فيهما به

فاذا الدر زان حسن وجوه　　كان للدر حسن وجهك زينا

لم يكن هذا الزهد والتقشف من الجنس الذى رأيته أنا وأنت عبارة عن لزوم الرجل كسر الحائط وهو غريق فى لعابه خارج عن بعض ثيابه جامد الفكر لا يتعدى إبصاره موضع قدميه فهو الى منزلة البله والعته أقرب كلا . بل كانت الدنيا عنده فى كفة والآخرة فى كفة يزن من هذه لهذه ويزرع فى دنياه ما يجزى بخيره فى آخرته

كان أول ما بادر اليه رضى الله عنه أن بعث الى ابن عمه مسلمة بن عبد الملك بن مروان يأمره هو ومن معه من المسلمين بأرض الروم بترك حصار القسطنطينية والقفول الى منازلهم لما يعلمه من اشتداد الحال عليهم كما تقدم البيان في (ترجمة سليمان) وبعث لهم بالطعام الكثير والخيل العتاق

ثم وجه حاتم بن النعمان الباهلى للقتال عن أذربيجان وقد أغير عليها فطرد عنها القوم وأزال عنها الخوف وألبسها لباس الامن

انظر لعلو رأيه وصائب فكره في عمله وخبرته برجاله : ولى عدى بن

أرطاة الفزارى على إمرة البصرة وناهيك به . واستقضى عليها الحسن البصرى رضى الله عنه فاستعفاه فأعفاه واستقضى مكانه اياس بن معاوية الذكى المشهور

والالمعى الذى يظن بك الظـــن كأن قد رأى وقد سمعا

وبعث على إمرة الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب . واستقضى عليها عامر الشعبى وجعل على إمرة خراسان الجراح بن عبد الله الحكمى . وكان نائب مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد . وعلى إمرة المدينة أبا بكر محمداً بن عمرو بن حزم

وقد حج بالناس . وأرسل الوليد بن هشام المعيصى وعمر بن قيس الكندي للغزو . وولى عمر بن هبيرة نيابة الجزيرة ثم أخذ فى فحص الاعمال فناقش اليزيد بن المهلب الحساب وحبسه لانه طالبه بما قبله من الاموال التى كتب الى سليمان بن عبد الملك انها حاصلة عنده فقال انما كتبت بذلك لأرهب الاعداء ولم يكن بينى وبين سليمان شىء فغضب عمر لضياع مال المسلمين ثم أمر بأن يلبس جبة من صوف وينفى الى جزيرة دهلك التى كان ينفى اليها الفساق ثم شفع فيه فبقى فى سجنه . وعزل الجراح بن عبد الله الحكمى عن إمرة خراسان بمدة ستة اشهر أو خمسة لانه أخذ الجزية ممن أسلم من الكفار وكان يقول لهم أنتم انما تسلمون فرارا منها (حبذا العدل والفضل)

ثم دخلت سنة واحد ومائة وكانت بدأت الدعوة لبنى العباس فبقي في مقر الخلافة وحج بالناس أبو بكر محمد بن محمد نائب المدينة واشتغل سيدنا عمر رضى الله عنه بتبريد البريد من والى المدينة والشام

وفي هذه السنة مات كثير من الصحابة والتابعين لاتحاد ساعات آجالهم وتقارب أعمارهم نذكر منهم الصحابى الجليل سيدنا الليثي الكنانى وهو

آخر من رأى النبي صلى الله عليه وسلم ورآه بالاجماع · وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يستلم الركن بالمحجنة . وذكر صفته عليه السلام . وهو آخر من مات من الصحابة مطلقا بالاجماع فى جميع الارض . اجتمع عنده مائة ألف أسير من الروم فساوم دولتهم على ردهم وأخذ «ملاطيه» ومازال حتى أقنعها واشترى هذه المدينة بهؤلاء الاسارى وبناها وأصبحت من المدن المهمة

وفضائل عمر كثيرة أعظم من أن تحصى وتستقصى فمنها انه أبطل الكلام فى على رضى الله عنه وقرأ على المنبر (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) واستمرت الخطباء على قراءة هذه الآية ومنها انه جمع القرآن وهو غلام صغير · قال الزبير بن بكار ان أول ما استبين من حرصه على العلم ورغبته فى الادب انه طلب من أبيه رحلته الى المدينة وقعد الى مشايخ قريش وتجنب شبابهم فتأدب بأدبهم واشتهر ذكره فلما مات أبوه أخذه عمه عبد الملك بن مروان فخالطه بولده وقدمه على كثير منهم وزوجه بابنته فاطمة [1]

---

(١) نبذة تاريخية . فاطمة هذه بنت خليفة وجدها خليفة وأخوها خليفة وزوجها خليفة وأغرب منها أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك ابن مروان وأم ابنه يزيد . ابوها خليفة وهو يزيد وجدها خليفة وهو معاوية وأخوها خليفة وهو معاوية بن يزيد وزوجها خليفة وهو عبد الملك وعمها خليفة وهو مروان وابنها خليفة وهو يزيد وابن ابنها خليفة وهو الوليد بن يزيد وأولاد زوجها خلفاء وهم الوليد وسليمان وهشام ويزيد أولاد عبد الملك وكل هؤلاء محارم

قال عمر بن ذر : لما رجع عمر من جنازة سليمان بن عبد الملك قال له مولاه . مالى أراك مغتما ؟ قال لمثل ما انا فيه فليغتم . ليس أحد من الامة الا أنا أريد ان أوصل اليه حقه غير كاتب الى فيه ولا طالبه منى

ولا عجب فى ذلك . فانه كان يتفكر في الفقير الجائع . والمريض الضائع . والعاري المجهود . والمظلوم المقهور . والغريب الاسير . والشيخ الكبير . وذوى العيال الكثير والمال القليل . وهم فى أقطار الارض وأطراف البلاد ويعلم ان الله سائله عنهم

كان لا تأخذه فى الحق لومة لائم . دخلت عنده أشراف بنى أمية يسألون لهم عملا . فقال لهم أتحبون ان أولى كل رجل منكم جندا : ترون بساطى هذا ؟ انى لاعلم انه صائر الى فناء وبلاء وانى أكره ان تدنسوه بأرجلكم فكيف أوليكم دينى ! أوليكم أعراض المسلمين ! هيهات ، فقالوا مالنا قرابة ؟ أما لنا حق ؟ قال ما أنتم وأقصى رجل من المسلمين عندى فى هذا الامر الا سواء !!

كان محبا للعدل والقسط يبغض الجور والعسف . لا يرى عنده شيء أفضل من الحق ومن كلامه : « ان كانت الناس لا يصلحها الحق فلا أصلحهم الله » وكان يقول « عاقبوا الناس على قدر ذنوبهم لا على قدر أجسادهم » بلغ الناس أن يقولوا « ان الغنم والاسد والوحوش كانت ترعى مع بعضها فى مرعى واحد فى عهده »

كتب اليه الجراح بن عبد الله « ان أهل خراسان قوم ساءت أخلاقهم وانه لا يصلحهم الا السيف والسوط فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن فى ذلك فعل ورأيه الموفق » فكتب اليه عمر « اما بعد فقد بلغنى كتابك

تذكر به ان اهل خراسان قد ساءت اخلاقهم وانه لا يصلحهم الا السيف والسوط فقد كذبت بل يصلحهم العدل والحق فابسط ذلك فيهم والسلام »

كان اشد الناس حرصاً على العمل بسنن من قبله من الاصحاب .
قال الزهرى : كتب عمر بن عبد العزيز الى سالم بن عبد الله يكتب له بسيرة عمر بن الخطاب فى الصدقات . فكتب اليه بالذي سأل ثم كتب اليه « انك ان عملت بمثل عمر في زمانه ورجاله في مثل زمانك ورجالك كنت عند الله خيراً من عمر »

يزعم الاوروبيون ان الشرقيين يعاملون من حكامهم معاملة الانعام البهم لا يقوّمون الا بالسياط وانهم هم الذين رفعوا عنهم سوط العذاب وادنوهم من شرعة العدالة وكشفوا عن عقولهم غمة الوهم . الا إنّ هذه الدعوى مما تستخزى النفوس بعد ان اجتث الدين الاسلامى كل جذور الجهل واخرج الآخذين به عن كل عقيدة باطلة ودعا الناس الى اصول الفضائل التى اتى عليها وامهات المحامد التى احياها وقواعد العدل التى اسسها وسد ينبوع الفساد وقطع ذرائع كل محرم فهذا عدل خليفة من خلفاء الاسلام على رأس القرن الثانى من الهجرة . كانت أوروبا فيه فى قطع من الظلمات فى كل شيء فان لم ينفرد المسلمون بسوي السابقية فى العدل لكفاهم فضلا

وثبت من غير وجه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال ما صليت وراء امام قط أشبه بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الفتى حين كان على المدينة . قالوا كان يتم الركوع والسجود ويخفف القيام والقراءة

وكان سعيد بن المسيب رضى الله عنه من خيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهو أول من سمى حمامة المسجد) لا يأتى أحدا من

الخلفاء وكان يأتي الى عمر بن عبد العزيز وهو بالمدينة قال مجاهد أتينا عمر نعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه . قال ميمون بن مهران كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة وهو معلم العلماء . قال سيدنا سفيان الثورى رضى الله عنه : الخلفاء خمسة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهم . وأجمع العلماء قاطبة على انه من أئمة العدل وأحد الخلفاء الراشدين والائمة المهديين وقال مالك بن زياد : يقولون : « مالك زاهد : مالك زاهد : أى زهد عندي ؟ انما الزاهد عمر : أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها » ومن عجائبه مايروى انه وقف على راهب فقال له عظنى فقال عليك بقول الشاعر

تجرد من الدنيا فانك انما ... خرجت الى الدنيا وأنت مجرد

ودخل يوما على امرأته يسألها ان تقرضه درهما يشترى به عنبا فلم يجد عندها فقالت له انت امير المؤمنين ولا تقدر على هذا ؟ قال « هذا الحرمان أيسر من معالجة الاغلال غداً في جهنم »

انظر لحكمته فى سياسته ولتحريه قطع ذرائع الرشوة واستقامة العمال. كان يوسع على العامل فى نفقته فيعطيه فى الشهر بحسب عمله من مائة دينار الى مائتين الى ثلاثمائة (هذا مال كثير فاننا اذا اعتبرنا الدينار نصف جنيه انكليزى مثلا كانت الثلاثمائة دينار مما تعرب من مرتبات كبار الحكومة المصرية الآن وكانت الحاجات غير الحاجات والضرورات أخف منها في هذه الاوقات بكثير كما لايخفى على بصير) ويتأول انهم اذا كانوا في كفاية تأملوا لاشغال المسلمين وكان يقول فى دعائه « اللهم ان كان عمر ليس بأهل أن ينال رحمتك فرحمتك أهل لان تنال عمر » وكان يقول « اللهم اصلح من كان فيه صلاح أمة محمد صلى الله عليه وسلم »

اما موته فقد قيل فيه اقوال كثيرة (وما آفة الاخبار الارواتها) فمن ذلك انهم قالوا ان بنى امية علموا انه اذا امتدت ايامه اخرج الامر عن ايديهم لانه لا يعهد بعهده الا لمن يصلح الامر فعاجلوه

قيل ان مولاه دس له سما فى طعام اوشراب واخذ الف دينار فمرض فأخبر انه مسموم ثم استدعى مولاه وقال له ماحملك على ماصنعت فقال ألف دينار فقال هاتها فاحضرها ووضعها فى بيت المال وقال لمولاه اذهب فلا يراك أحد

قيل له هؤلاء بنوك (وكانوا اثنى عشر) ألا توصى لهم بشىء فانهم فقراء . قال ان وليى الله الذى لا إله الا هو وهو يتولى الصالحين والله لا أعطيهم حق احد . وهم بين رجلين : اما صالح فالله يتولى الصالحين واما غير صالح فما كنت لأعينه على فسقه . ثم استدعى بهم فودعهم وقال لهم هذا الكلام ثم قال انصرفوا عصمكم الله واحسن الخلافة عليكم

قالوا انه لما احتضر صرف من حوله فخرجوا وجلس مسلمة بن عمه وفاطمة زوجته على الباب فسمعاه يقول « اهلا بهذه الوجوه ليست وجوه إنس ولا جان » ثم قرأ « وتلك الدار الآخرة » الآية ثم انخفض الصوت فدخلوا فاذا به قضى رضى الله عنه



﴿ هشام بن عبد الملك ﴾

هو هشام بن عبد الملك بن مروان ولى الخلافة سنة خمس ومائة لما مات أخوه يزيد بن عبد الملك بعهد منه . كان بالرصافة فجاءته بشرى الخلافة على البريد فركب من ساعته وسار الى دمشق وبويع فيها بالخلافة وكان متنعما . قالوا لم يكن فى بنى مروان أعطر ولا ألبس من هشام . يقال انه خرج حاجا فتحملوا ثيابه على ستمائة جمل

كان محباً للعمران . مستجداً فى أدوات الزينة . متناهياً فى تربية الخيل . متباهياً بها وهو الذى أقام الحلبة وجمع فيها أربعة آلاف فرس . قال المسعودى « وذلك مالم يتفق لاحد من الناس لا جاهلية ولا اسلاماً »

ولع بجودة السلاح وعدد الحرب ولاماتها . شغف باصطناع الرجال وتقوية الثغور وهو الذى شاد المعاقل صيانة للبلاد واتخذ القنى والبرك بطريق مكة وغيرها رحمة بالعباد

كان حازماً سديد الرأى غزير العقل عالماً بالسياسة . قال الهيثم بن عدى والمدائنى وغيرهما ان السواس من بنى أمية ثلاثة . معاوية رضى الله عنه وعبد الملك وهشام

اشتدت فى أيامه الدعوة لبنى العباس وثارت روح العصيان فى الاحزاب المرشحة للخلافة واستمرت حروب أخرى وقوى الله المسلمين عليها فانتصروا وغنموا أشياء كثيرة وفاز عسكر أسد بن عبد الله القسرى في غزواته وقتل خاقان الترك ودخل بلاد فرغان وخوقند بعد التعب والنصب والجهد الجهيد وقتل الكثير وغزا عامله أيضاً نصر بن سيار بلاد « ماوراء النهر »

ففتح وغنم منها خيراً عظيما

فتحت فى أيامه قيصرية الروم بالسيف وغيرها على يد « البطال » الشجاع المشهور وغزا مروان بن محمد بن مروان عامل الجزيرة وأرمينيه (بلاد صاحب السرير) ورتب عليه الجزية

تولى الخلافة والفتن ببلاد المغرب على قدم وساق منتشرة فى أرجاء البلاد وكان البربر قتلوا عامله بشر بن صفوان فولى عليها بعده عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ثم رأى انه ليس برجل زمنه فولى مكانه عبيد الله بن الحبحاب وكان رئيساً نبيلا وأميراً جليلا وخطيباً مصقعاً فاستعمل على الاندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى

كان عبد الرحمن هذا من أصحاب الهمم العالية فتقدم للغزو فى بلاد (الغاله) [1] وانتصر فى غزوات كثيرة رجع منها منصوراً غانماً وتقدم حتى وصل الى مدينة (بردال) أو (برديل) [2] بفرنسا ودخل كثير من تلك البلاد فى الاسلام وعزم على فتح بقية بلاد (الغاله) فقطع جبال (البرانات) [3] وفتح الحصون والمدن وامتدت عساكر الاسلام فى بلاد (اكيتانية) و (بورغونية)

دهم (الغاليين) ما دهمهم من هذه الجيوش الجرارة واشتد بهم ماحل بالبلاد من الخراب والدمار فانتخبوا فارساً منهم يقال له (كرلوس) من حاشية

---

(١) الغالة القبائل الاصلية الفرنساوية

(٢) (بردال) هى بوردو الفرنساوية المعروفة

(٣) البرانات هي جبال فى الشمال الشرقى للاندلس معتبرة الآن حداً بين اسبانيا وفرانسا وتعرف بجبال البيرينيه

الملك كان مقداما ذا دهاء وفطنة محبوبا عند أصحابه وهو المسمى فى كتب العرب (قارله) وعند الفرنج (شارل مارتيل) . جمع الاهالى وأمرهم أن لا يعترضوا العرب ولا يعارضوهم ولا يخاطروا بأنفسهم وخطب فيهم خطبة لو وجدت لها من العرب والمسلمين فى ذلك الوقت اذنا صاغية لكانت ثمنا لكل ما خسرته الامة الاسلامية للآن

خطب فى قومه بما معناه : « الرأى عندي ان لا تعترضوا العرب فانهم كالسيل المنحدر يجرف مايصادره وانهم فى اقبال أمرهم عقدوا نيتهم وجمعوا أمرهم فأصبح الرجل منهم يغنى عن كثرة العدده واتحدت قلوبهم فصارت أشد من حصانة الدروع . فأمهلوهم حتى تمتلئ الايدى من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا في الرئاسة ويستعين بعضهم على بعض فاذا كان ذلك فانكم تتمكنون منهم بأيسر ما يكون

كانما كان منطقه موكلا ببلاء ظهور الفتنة التى طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمضرية واليمانية واستعان المسلمون على بعضهم ببعض بل على بعضهم بمن يجاورهم من الاعداء

نظر هذا الرجل الحكيم فرأى أن الخصال التى تحيط الامة بالكوارث (كالترف والاسراف والتبذير والانغماس فى النعيم الذي أباد الامم والحضارة التى تؤدى الى فقد العادات الشريفة وتعين على الاضطراب وتفريق القوى الجامعة وقطع الصلة وتجديد الخصومات والحسد الذى هو مقام الحدود الحاجزة بين النفوس وبعضها) حائمة بين جيوش العرب وجموع المسلمين فقال اصبروا حتى تتم ويتم له بالحيلة مالم يتم بالحرب والقوة

فلما لم يحترز المسلمون من تدرج خصال السوء بينهم وساروا بحسب

أهوائهم ولم يقتدروا على تقويم المعوج اصلاح الخلل ومداواة العلل والظهور بمظهر الترقى الذي أتوا فيه بالعجب العجاب وثبت له انهم فارقوا أدب الدين فاجأهم هذا القائد بغتة وحاربهم بتفرقهم . باختلاف كلمتهم . بسوء رأيهم باضاعة حزمهم وحرمة دينهم

جمع شارل جنوده مع ما انضم اليهم من جنود جرمانيا التى باتت مهددة بما وقع لجارتها (فرنسا) وتقابل بجيشه مع العرب بين مدينتى (طوروبواتييه) بغتة فتلاقى الجيشان بل اشتبك الشرق والغرب وتحاربا سبعة أيام انجات فيها الحال عن هزيمة العرب وقتل عبدالرحمن وانتشر خبر هذا الانتصار فى كل أوربا فتهللت الوجوه واطمأنت القلوب وقطع هذا الانكسار على العرب فتح فرنسا الذى كانت تفكر فيه زمنا طويلا

فعلت أوروبا مع هذا القائد خلافا لما كان ينبغي أن يعمل مع أمثاله فان انتصاراته كما قال صاحب (ألف ليله) مما يكتب (بالابر على آماق البصر) ولكن حالة جهلها فى ذلك الوقت وبلوغها في الظلم والجهل مبلغا لا يقدّر قدر عليها ان كارلوس هذا صاحب الدهاء والسياسة لم ينل شكراً على عمله بل حكموا عليه بالهلاك واهانوا اولاده من بعده لانه استخدم في هذه الحرب أموال الاساقفة والكهنة (فتأمل)

(عود) ومن فضائل هشام انه كان لا يدخل بيت ماله مالا حتى يشهد أربعون انه قد أخذ من حقه وأعطي منه كل ذى حق

وبنى فى عهده جامع الزيتونة بتونس وهى دار العلم بها للآن (أدامه الله كذلك)وهو الذي أقام بها (دار صناعة)[1] (لانشاء المراكب الحربية

---

(١) دار صناعة (أى ترسخانة) المستعملة الآن وهى محرفة من تلك

وتم ذلك وغزت المراكب جزيرة صقلية وضرب على أهلها الجزية

ذهبت جنوده غازية الى الجنوب حتى جاوزوا السوس الاقصى ودخلوا بلاد السودان ورجعوا منها بالغنائم الوافرة. وهو الذى بنى الرصافة وابتنى فيها قصراً وزاد فى عمرانها وحضارتها

ظهرت فى عهده بدعة الخارجية فى البربر وتلقنها رؤوسهم عن عرب العراق الساقطين الى المغرب. نزعوا بها الى الاطراف داعين أغمار الامم اليها عسى أن تكون لهم دولة فاستحكمت صبغتها فى طغام البربر ووشجت فيهم عروقها فكان ذلك من أقوى البواعث والاسباب فى خرق حجاب الهيبة على الخلفاء وانتقاض البربر على العرب ومزاحمتهم لهم فى سلطانهم ولما بلغ الخبر بذلك الى الخليفة هشام عزل عبيد الله عن المغرب وكتب اليه بالقدوم وعين كلثوم بن عياض ووجه معه جيشاً كثيفاً لقتال الخوارج يبلغ ٨٠ ألفاً من المقاتلين وبعد قتال شديد مع البربر هزم جيش الخليفة وتفرق أيدى سبا فقامت القيامة ووجه حنظلة بن صفوان الكلبي والياً على المغرب والتقى مع العصاة بظاهر القيروان بمكان يدعى الاصنام فهزمهم بعد قتال أبلى فيه بلاء حسنا وكتب الى الخليفة بذلك ففرح فرحا شديداً ثم ولى حنظلة بن الخطر حسام بن ضرار الكلبي من قبله واليا على الاندلس فاستقام له بها الامر حينا من الدهر ولم يزل حنظلة على المغرب فى أحسن حال الى أن تطرق الخلل الى الخلافة بالمشرق وخفت صوتها لما حدث فى بنى أمية من فتنة لوليد وما كان من أمر الشيعة مع مروان آخر خلفائهم والله أعلم

يرى القارىء أن بلية الامة الاسلامية فى هذا العهد من أبناء جنسها وملتها أشد من بليتها من أعدائها . مؤن الجيوش المقاتلة التي جهزها هشام

لقتال رعاياه الخارجة عليه أكثر مما جهزه لفتح البلاد المناوية له ولا شك ان الاستظهار على الخليفة ومقاتلة جموعه وجيوشه لا يكون الا من فساد القلوب والنيات ومفارقة أدب الدين من أمثال هذه العصائب الخارجة

قلنا ولا نزال نقول ان الصبغة الدينية تذهب بالتحاسد والتنافس وتفرد الوجهة الى الحق والاستبصار بالامور والتساوى فى الطلب والاستماتة على العهد . تفنى فى جانبها الاغراض المتباينة ويمحق الباطل ويخذل وذلك من شدة تقوى القلوب وسلامة الصدور ونقاوتها ولذلك لم يقف للعرب فى أول أمرهم أحد ولم يغلبوا على ما بأيديهم لان الاجتماع الدينى ضاعف قوة عصبيتهم

لا تجد ضعفاً فى دولة الاسلام إلا وسببه فساد العقيدة . يدخل هذا الفساد بين العصابة وكان سعيها واحداً في الذب عن الحوزة بأقصى مرامى العز والصولة فما تلبث الا وقد فشل ريحها ورئمت للمذلة والاستعباد ثم يتمادى هذا الطغيان حتي تكثر ألوان الشر والسفسفة وتذهب خلال البر والخير

ان الذي يريد بالملة الاسلامية خيراً لا يدعوها لشيء من العمل قبل رجوعها الى أدب الدين فانه علاج لهذه الامراض المزمنة وهو الذى يرد الشيء الى جنسه وصنفه ويخلع عليه مقدار عظمته وقوته فمن لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله

الامير موسى بن نصير ومولاه الفاتح طارق بن زياد

الاميرموسى بن نصير هومولى عبد العزيز عم الوليد بن عبد الملك . كان والده نصير على جيوش معاوية رضى الله عنه ويقال انه بكرى من بكر بن وائل ويقال انه لخمى

كانت ولادته فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ويقال انه تجهزمع أم البنين حين ابتنى بها الوليد فأنمت كانه عنده الى ان بلغ ما بلغ برأيه وإقدام مولاه طارق بن زياد

كان موسى بن نصير رجلا عاقلا كريما شجاعا ورعا تقياً تولى أفريقيا وغزا الغزوات العديدة فلم ينهزم له جيش قط وكان كثير المغنم حتى قالوا لم يسمع فى الاسلام بمثل سباياه قط وكان طارق مولاه هماما مدبراً مقداما يحمل على مناويه برويته وتدبيره فيفل من عزمه ويبيد من قوته

هما من أشد قوادم أجنحة دولة بنى أمية التى طارت بها الى الفتوحات العظيمة شرقاوغربا يليق بهما أن يشاطرا الخلفاء (الوليدوسليمان وهشام) الشهرة ورفعة الصيت والتقدم العصرى . فانما الدولة برجالها

هما هما اللذان امتدت بعنايتهما سطوة الاسلام فى أفريقيا وشهرته فى المغرب . وفيما فتح الله من بلاد الاندلس يكفى الدلالة على فضلهما

ان الامير موسى بن نصير ماولى أفريقية فى سنة سبع وثمانين حتى أخذ في رتق الفتق ولم الشعث وأصبح ما خلف مصر الى البحر المحيط بين برّى البربر والاندلس تحت تحدثه ينظم أحوالها ويؤسس نظامهاويقيم قسطاس العدل بين أهلها وينير نبراس الحق فيها حتى أحبه الناس وآثروه على أرواحهم وافتدوه بها

وان طارق بن زياد بنى بفتوحه لخليفته من المجد المشيد والذكر المخلد مالا يبلغه الليل والنهار ولا تعفى جديده الاعصار

جمعنا سيرتهما فى هذه السطور من غير افراد لانه لا تفترق يمين عن شمال وإن كنا ألمعنا بشيء من تاريخهما فيما سبق من ذكر خلفائهما

تقدم الامير موسى بن نصير الى مدينة سبتة بعد تمهيده الامر مع صاحبها (جوليان) الغوطى فصانعه بالهدايا حتى اذعنه للجزية ثم أقره عليها واسترهن ابنه وابناء قومه على الطاعة فما رأى بقية البربر ذلك حتى استأمنوا جميعاً لموسى فقبل منهم

ثم نظر نظرة فى أمر بلاد الاندلس فأدرك عظمتها وفكر فى فتحها وأومأ به الى مولاه طارق بن زياد فما هو الا ان خاضها بالسرايا وعلم عوراتها وفروج ثغررها وتعاريج شطوطها وطالعه بها فجهزه وأمره بفتحها فعبر الاندلس بثلاثمائة عربي واثنى عشر ألفاً من البربر من سبتة الى الجزيرة الخضراء فجمع « روديك » أكابر دولته وشاورهم واستقر رأى القوم على محاربة العرب فلاقوهم فى مائة ألف نفس فهزموهم ودخلوا البلاد

يقول قوم ان السبب فى هذا الانتصار حقد (جوليان) الغوطى صاحب سبتة على (رودريك) ملك الغوط لانه غشى ابنة له على غير حل مستكرها لها غير ان هذا لا يقوله عارف بالخبر . والغالب ان هذه الدعوى فرية مفترى لان فتوحات العرب توالت وتعددت ولا يمكن ان يحتمل لكل فتح جليل فتح جميل . وماذا الذى يظن القائل بهذه الفرية ان يبلغه (جوليان) بالعرب من الخير أو الشر . هب انه بين لهم مداخل عدوهم وأرشدهم الى مكامنه وأظهرلهم عورات جيشه فماذا يفيدهم والعرب عشرة آلاف نفس

تقابل مائة ألف أو يزيدون وهم فى بلادهم يصدون عدوهم عنهم

ان الذى بلغ بأمـة العرب ما بلغ هو اليأس الذى يدفع الانسان الى كل عمل كما فى هذه الحادثة . أو شدة الاستمساك بالدين والتحقق مما ادخره الله للمجاهدين كما وقع فى حرب فارس وملوك الهند وخاقانات الترك وغيرهم من الاقاصرة والاكاسرة الذين هم أشد منها بأساً وأكثر عدداً

ان اليـأس من أشد العوامل في النفس حتى قال حكيم من حكماء اليونان « اذا كان لك عدو فلا تيئسه لانه يفعل بك ما يشاء »

رأى طارق بن زياد جيوش « رودريك » وانتظامهم وحسن ملابسهم وكمال عدتهم ووفرة عددهم وجودة سلاحهم وما على رؤوسهم من الخوذ وعلى أجسامهم من لامات الحديد السابغة فهاله الامر وخاف على جيشه القليل فأراد أن ييئسه ويقطع عن قومه كل أمل فى العودة فأمر بالسفن فحرقت ثم قام بينهم خطيباً

فحمد الله وأثنى عليه بمـا هو أهله ثم قال : « أيها النـاس أين المفر ؟ البحر وراءكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر

واعلموا انـكم فى هذه الجزيرة أضيع من الايتام فى مأدبة اللئـام . وقد استقبلكم أهل البلاد بجيشهم وأسلحتهم وأقواتهـم موفورة وأنتم لاوزر لكم الا سيوفكم ولا أقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيديهم وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً فشلتم وذهب ريحكم واستعاضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هـذه الفاقة بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به اليكم مدينته الحصينة وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لانفسكم

بالموت . وانى لم أ حذركم أمراً أنا عنه بنجوة ولاحملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس ولم أبدأ فيها بنفسى واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأقوى من حظى . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الابطال عربانا ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهاراً واختانا ثقة منه بارتياحكم للطعان واسماحكم بمجالدة الابطال ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم والله تعالى ولى انجادكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين

واعلموا انى أول مجيب الى مادعوتكم اليه وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على (لزريق) كبير القوم فقاتله ان شاء الله فاحملوا معى فان هلكت بعده فقد كفيتم أمره ولم يعوزكم لبطل عاقل تكلون أموركم اليه وان هلكت قبل وصولى اليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا القوم بقتله فانهم بعده يخذلون »

ثم حمل وفتحت البلاد وكان فتحها من أعظم الفتوح الذاهبة بالصيت فى ظهور الملة الحنيفية واعلاء الكلمة الاسلامية

التقى مع جيوش (الغوط) ودارت رحى الحرب ساعة انقضت فيها ابطال العرب وكانوا ثلاثمائة على صناديد البربر وكانوا عشرة آلاف فبددوا شمل جيش (الغوط) وترك (رودريك) مركبته وكانت من العاج الناصع ولم يعلم أين ذهب .

وجد طارق ان هذا النصر المبين فرق عسكر (رودريك) وأهلكه

وبدده وأصبح الشعب فى وجل عظيم فبعث رجاله وافتتح « قرطبة » بعد حصارها ثلاثة أشهر «وطايطلة» بعد حصارها والتضييق عليها وعقد مع أهلها صلحاً أباح فيه حرية الخروج لمن أراد من السكان وترك لاهل الكتاب كنائسهم وبيعهم ومتعهم بحرية دينهم وشرائعهم وأبقى لهم قضاتهم ثم تقدم نحو الشمال وفتح مامر به من المدن بجهات « قسطيلة » وما زال سائرا حتي وصل فى مسيره الى جبال أسطوريا أى بعد مسافة سبعمائة ميل من الجبل المدعو باسمه ووقف عند مدينة جيجون قرب خليج باسكاليا حيث الاقيانوس ورجع من هنالك الى طوليد ليلتقى بالامير موسى بن نصير

جاء الامير موسى وألقى العصى وسار معسكره الضخم يكمل ماابتدأه طارق ويوفق للناس ماعاهدوه عليه حتى صفا القطر وطمن نفوس من أقام على سلمه ووطأ لاقدام المسلمين في الحلول به

أخذ الامير موسى بناء على اشارة « جوليان » فى محاربة بعض القوط الذين لم يخضعهم طارق فتقدم طارق وتبعه الامير بعسكره وسار الى (غديانة) وحصرها وأعجب باعمال الرومان فيها كالجسر ومصانع المياه وأبنية الملاعب الموجودة فى « لستيانة » ثم فتحت « سرقسطة » واتصل الرعب بأهالى البلاد وأدى مادهمتهم به جيوش المسلمين الى ان هذين الفاتحين صار الايمان بموضع الافتتحت لهما أبوابه حتى انتهوا الى وادى (ردونه) ودوخ جيش طارق وسراياه البلاد التى لم تخضع لسلطانه

كان الامير موسى بن نصير مع تقدمه فى السن وما علاه من وخط الشيب مقداما يعشق المجد ويصبو لافتتاح البلاد حازما عاقلا ذاسياسة جليلا . كان في نيته ان يتقدم فيفتتح بلاد فرنسا (المعروفة ببلاد الغالة)

وايطاليا المعروفة ببلاد (اللنباردو) ثم يمر بجانب (جرمانيا) الى(هونكاريا الى الاستانة الى أسيا الصغرى ويصل لمقر الخلافة

لم يكن يبنى هذه الصروح على الهواء لان سطوته في هذا الوقت كانت امتدت الى أعماق القلوب وعدوى الخوف والفزع من جيوش العرب عمت، جميع أولئك السكان وسرت من بلد الى بلد ولكن أتاه رسول الوليد يأمره بالحضور وكان قد فتح جميع البلاد ولم يبق فى الاندلس بلد لم تدخله العرب الا « جليقلة »

أطاع هذا الفاتح أمر خليفته وترك ما بيده وابى أمره بعد ما ملك بلادا مثل بلاد الاندلس وألقى بينه وبين مقر الخلافة البحر الزخار وأصبح في ملك لاتناله الاقدام والحوافر الا بشق الانفس

ترك بلادا هو مفترعها ورجالا هو مستملكهم لا يعرفون غير خيره ولا يخافون غير شره وفى يده من الذخائر والاعلاق والاموال والمعاقل والرجال مالو أظهر الامتناع به لنال المرام . فتأمل لمثل هذا الاخلاص . وتحدث بمثل هذه الطاعة

سار الامير موسى الى مقر الخلافـة وولى ابنه عبدالعزيز على بلاد الاندلس وهو أول من اتخذ له سرير ملك فيها وكان باشبيلية . لان طارق والامير موسى لم يتخذا سريرا للسلطنة فيها

عقد عبدالعزيز لاربع خلت من شهر رجب من السنة الرابعة والتسعين من الهجرة بمحضر أربعة شهود من المسلمين عهدة صلح مع الامير (طودميرس) على المدن السبع التى كانت له بان يعطى (لطود ميرس) الامان ولا يعارضه فى عمله ولا يعتدى عليه فى ماله ونفسه وعرضه وأولاده

وكنائسه على أن يسلم له المدن السبع وأن لايقبل ولا يساعد أعداء الخليفة ولا يكتم من نيتهم شيأ وأن يدفع فى كل سنة عنه وعن كل رجل من (الغوط) ديناراً واحداً وأربعة كيلات حنطة ومثلها شعيراً وقدراً من . الزيت والعسل وأتباعهم نصف ذلك

ثم أخذت البلاد فى النمو وسمح الامير موسى وطارق لاخوتهما العرب فى أفريقيا ومصر بالانتقال فانتقلوا الى (لسبونه) و (موركه) وفى أقل من قرن واحد بلغت واردات البلاد من الزراعة والتجارة والصناعة ما لا ابداً فضلا عن الجبايات وأموال الفتوحات

قدر ال العرفان ان ما كان يجبى من الاندلس في ذلك الوقت يعدل مداخيل أوروبا وهذا النمو انما هو من نتائج الحرية وعدم التعرض لاحد فى ماله وعرضه ونفسه وقد أيقظ اجتهاد العرب بعد فتح تلك البلاد كثيرين الي العلوم والصنائع وظهر فضل أولى النباهة والذكاء وأحب أهل اسبانيا العرب فآخوهم وارتفعت الخلافات من بينهم حتى كانوا يختتنون مثل العرب ويمتنعون عن المحرمات المحرمة عندهم فدعاهم من شذ عنهم من المجوس (مازارابى) أى انصاف عرب

رزق الله بنى أمية بالفاتحين من الخلفاء وبالخيرة من القواد ففى تلك الازمان امتد حكمهم مسافة مائتي يوم من المشرق الى المغرب وكانت آى القرآن تقرأ في سمرقند كما تتلى فى قرطبة ويتلاقى الهندى مع السودانى في مكة للحج وكلاهما يدين لبنى أمية. وظهرت على كل الممالك قدرة وغنى. وكانت كلمة الدولة نافذة فى ثلاثة أقسام من الارض : آسيا وأفريقا وأوروبا ملكوا من برارى جبل الطور الى قفار ما وراء النهر ومن وادى كشمير

الى منحدر جبل (طوروس) على البحر الابيض وأطراف الاناضول وسائر مملكة الاكاسرة وماعجزت عنه الا كاسرة . ومن الجزر قبرص واقريطش ورودس وجزائر بلياره وشمال افريقيا والبلاد الممتدة من بوغاز جبل طارق الى برزخ السويس . وقسموا سواحل البحر الابيض الي حكومتين احداهما بالمغرب تشتمل على الاقاليم القديمة اليونانية والاخرى بالمشرق وهى عمالة مصر وبرقة البحرية . وأخذت الجزية التى قررها سيدنا عمرو ابن العاص من بلاد النوبة . كما أخذت من الهند والصين كما قدرها مسلم ابن قتيبة الباهلي . وكل ذلك على قواعد العدل وقسطاس الحق حتى صارت دمشق فى نظر المسلمين كأنما هى روميا فى نظر المسيحيين

كانت دمشق ثانى مقر للخلافة الاسلامية بعد المدينة المنورة . وكما كانت تتيه على البلدان بمياهها وأشجارها ورياحينها كذلك كانت تعتز بمقام الخلافة فيها

فيها بقية آثار الملوك الكنعانيين والروم وآل جفنة من العز والعمارة فكانت زينة الدنيا وأهلها أحسن الناس خلقاً وخلقاً جمعت بين العمال والمجان والزهاد وفيها لكل شيء من ذلك سبب

وجامع الوليد المعروف بالجامع الاموى قائم فيها وهو أفخر مأثرة لملوك بنى أمية الى غير لطائف البلاد الطبيعية ومحاسنها الوهبية التى لا يحصيها لسان ولا يصفها بيان

هذا وقد كدنا أن نخرج بهذه الاوصاف وغيرها عن معنى الترجمة التى قصدناها وانما أردنا أن نبين للقارىء كيف كان مقام الخلافة فى الشام الى عهد هشام

فهرست الجزء الاول من كتاب حماة الاسلام

صحيفة

حماة الإسلام

تأليف

المرحوم مصطفى بك نجيب

(الجزء الثانى)

(الطبعة الثانية على نفقة)



صاحب المكتبة الأزهرية

بمصر بالسكة الجديدة

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

نبذة تاريخية

قد أتينا فى الجزء الاول من (حماة الاسلام) على ذكر شيء يسير من سيرة بعض ساداتنا خلفاء بنى أمية وبني مروان وخبر بعض قوادها ورأينا الآن أن ننتقل لسيرة بعض ساداتنا خلفاء بنى العباس وقوادهم أيضاً وما ذلك عن قلة ولا سآمة وانما رغبة فى الانتقال بالقارئ من عهد الى عهد ومن مقصد الى مقصد لتحصل البركة من كل جانب ونلم بأعمالِ حماة الاسلام فى كل صقع وناحية ليكون هذا العمل من جهة الدلالة على الخير الذي فعلوه فذلكة لهم

ان الدولة الأموية أجل قدراً من أن تنحصر أخبار خلفائها وساستها فى هذا العدد اليسير أو يسع أخبارها مثل هذه السوانح . فما هذا وأمثاله الا غيض من فيض

وقد حدثتنا النفس أن نجعل بين تراجم ساداتنا خلفاء بني أمية وساداتنا خلفاء بنى العباس نبذة تاريخية (وهي هذه) نبين فيها انتقال الدولة ثم نلحقها بترجمة أبى مسلم الخراساني صاحب الدعوة لبنى العباس فان كنا أصبنا فيما فعلنا فلله الحمد وان كنا أخطأنا فبيت الخطأ ومعدنه

قال الله سبحانه وتعالى « وتلك الايام نداولها بين الناس » وقال الحكيم وقد عزى بعض من خرجت عنه مملكته : « لو بقيت لغيرك لما وصلت اليك » .

دالت الدولة للعباسيين فاذا هي من كبار الدول وأعظمها في الدهاء والتحيل . ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك فأطاعها الصلحاء تديناً والباقون رغبة أو رهبة واستمرت الخلافة والملك نحواً من ستة قرون استقبلت فيها عظائم الامور وطرأت عليها دول كدولة بنى بويه وفيها عضد الدولة فناخسرو . ودولة بنى سلجوق وكبشها طغرليك . ودولة خوارزمشاه وفيها مثل علاء الدين الذى اشتملت جريدة عسكره على أربعمائة ألف مقاتل . ودولة الفاطميين بمصر وعسكرهم لم ير أكثف منه . فضلا عن الخوارج والجموع الذين لم تبلغ استطاعتهم مناصبة عزة الملك ومعاندته وجدع أنفهم الشامخ عن متابعة الاستكبار بأقل الاذى وأقل السخط

كل هذا لم يقو على ازالة ملكهم ولا محو أثرهم بل كان الملك من هؤلاء يجمع ويحشر ويقبل بالعسكر الجرار والخميس العظيم حتى يصل بغداد فاذا وصل التمس الحضور فان أذن له قبل الارض بين يدى الخليفة وقصارى متمناه أن يوليه عملا أو يعقد له لواء أو يخلع عليه خلعة

كانت لهم فى نفوس الناس منزلة لا تدانيها منزلة أبداً حتى ان السلطان « هولاكو » لما فتح بغداد وأراد قتل الخليفة أبى أحمد المستعصم ألقوا في سمعه انه متى قتل الخليفة اختل النظام فى العالم فاحتجبت الشمس وامتنع القطر .

أتت لها هذه العظمة وأصبح لها ذلك الاعتبار في النفوس بما روى

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنه كان يجرى على لفظه الشريف ما معناه (البشارة بدولة هاشمية) وزعم قوم انه قال لعمه العباس رضى الله عنه (انها تكون في ولدك)

كانت النفوس متطلعة لهـذه الدولة ينتظرونها صباح مساء يظنون فيها الخير أكثر مما كانوا فيه. فكان فيهم عطف عليها وحنان لها

دولة كثيرة المحاسن جمة المكارم قامت فيها أسواق العلوم ونفقت فيها بضائع الادب وعظمت فيها شعائر الدين ودرت عليها الدنيا بخيرها وروعيت فيها الحرمات وحصنت الثغور. كانت الدولة مستمسكة بالدين كما كان على عهد الخلفاء يحاسبون أنفسهم وينكر بعضهم على بعض اذا أخل بالعدل والمساواة ويحكمون بالشريعة ويتأدبون بآدابها

بلغت حضارة الاسلام فى دار السلام مبلغاً يندر مثله فأين التفت وجدت جمالا واني نظرت رأيت مهابة وجلالا. أبهة ملوك ودعة زهاد ورخاء بال وارتقاء حال وانغماسا فى طيبات العيش والتصرف الواسع في التجارة وجمع طرائف الدنيا وتحرى العدل في كل ذلك باحكامه وأخذ الرعية بالحلم الواسع والسياسة بالكياسة

اجتمعت العلماء والادباء والامراء والندماء بابواب الخلفاء وعلى الاخص الرشيد الذي ألبس الدنيا جمالا وخلع عليها جلالا بملكه الذى لم يسمع عن أحد من الملوك

تسامت فيها الدور والقصور بالبهاء والرفعة وبنيت فيها المنازل الرحبة المزخرفة والاسواق والمرافق والمكاتب واتصل تعداد النفوس ببغداد لمقدار لم يكن نصفه في مدينة من العالم

قصدتهم الناس وطمعت في انفجار مكارمهم الخلق حتى صار يضرب بهم المثل في سعة العطاء وكان مع ذلك بيت المال فى عمران تشتمل خزائنه على العين والورق والامتعة والكساوي والغلات وغير ذلك . والامة بالغة مبلغها في العلم والادب والصناعة

انتهى العز والرفاه بأهل الامر والجاه الى أقصى غايته حتى اتخذت الابر للجواري من الذهب وصاغوا المسامير التى تدق فى مجالسهم لتعليق المناديل من الذهب[1] وكسيت حيطان منازلهم بالوشى وتأنقوا في جميع أدوات الزينة والمباهاة بها كالخيل والسلاح والأوانى والجواهر والغلمان والقيان وجميع طيبات الزمان حتى ضرب المثل بهم فى الآفاق وجلبوا الى بساتينهم طيبات الزهور من الهند والرياحين من الصين واتخذوا مقاعدهم على حالات غريبة فتراها فى الشتاء كنا كمينا وفى الحر ما بين الماء المتدفق غزارة من السقوف والحيطان والنابع من الارض والمتفجر من جوانب المكان وكل ذلك فى أفواه صور كصور السباع والثعابين وما شابه ذلك وقد علقت المراوح فى سقوف المكان ووضعت الحبال التى تجر بها من الخارج فاذا حركت هب النسيم فترطبت الاجسام ولذ المنام

لما أراد الله قيام هذه الدولة نما الشر وخلقت أسبابه وكثر الهرج والمرج وفتح بابه وثارت الفتن واضطرب الحبل واختلفت الكلمة فظهر أبو مسلم بدعوة بني العباس واجتمع عليه كل من له في ذلك رأى من أهل خراسان .

---

(١) لعل مثلها مثل الآلة الغربية المستعملة الآن لوضع الملابس عليها المسماة فى لغتهم (بورت مانتو)

انظر للبلاد وما كانت عليه . كان أهل الحجاز قليلين وأهل البصرة والكوفة وتلك الحوالى منحرفين عن الوحدة فى نظر الناس لخذلانهم وغدرهم فى سوابق ما جرى منهم ولم يبق الا مصر والشام مع دولة بنى أمية

ظهر أبو مسلم الخراسانى ومعه أصحابه أصحاب الرايات السود وحارب عسكر مروان تحت قيادة نصر بن سيار وهزمه

يعجب الانسان لهذه القلوب كيف سخرها الله لتنفيذ قضائه العادل وابراز مكنون حكمته فى خلقه . يقوم أبو مسلم بهذه الجيوش يبذلون المهج وينفقون الاموال ويجبون الخراج وينادون باسم الامام بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس وهو فى المسجد لا يفارقه وأهل خراسان لا يفرقون بين اسمه وشخصه وهو لا يدخل أيضاً فى شىء من هذا فلا ينفق عليهم ولا يعطى أحدهم سلاحا وهم يحملون اليه الخراج

ثم قدر الله أن يقتل هذا الامام الذى قامت باسمه هذه الدعوة كأنما فرغ من عمله وكأنما هو لا يصح أن يكون الا مقدمة لغيره

خاف أخواه السفاح والمنصور وجماعة من أقاربهم فهربوا وقصدوا الكوفة ونزلوا داراً أخلاها لهم أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال من كبار الشيعة فدخلوها مع أتباعهم وكتموا سرهم واجتمعت الشيعة بهم وقويت شوكتهم

قصد أبو مسلم دار الخلال وفيها السفاح والمنصور فقال أيكم ابن الحارثية ؟ قال المنصور هذا وأشار الى السفاح وكانت أمه حارثية فسلم عليه بالخلافة ثم خرج السفاح ومعه إخوته وعمومته وأقاربه وأكابر الشيعة وأبو مسلم بين يديه الى الجامع فصلى وصعد المنبر وأظهر الدعوة وخطب الناس

وبويع له بالخلافة سنة ١٣٢

ثم سلب الله ماكان لمروان آخر خلفاء بنى أمية من الصولة والقدرة حتى عصته العسكر ونابذته قواده وكان جيشه فوق المائة ألف فلم يغن عنه شيأ وتولى أمره الخذلان حتى انهزم وهرب وقتل في قرية أبى صير من قرى الغربية على الشاطىء الغربى للنيل الشرقى وهو آخر الخلفاء فى هذه الدولة

ولابد لنا قبل ختم هذه السطور من ذكر شىء حفظه التاريخ لهذه الخلافة . وهو ان بنى أمية وان كانوا أعطوا الملك حقه من الفتوح والتغلب والعدل فى القضاء وحفظ الامن والراحة (وانى لنا بمثل تلك الايام) فان الفوضى العلمية التى ظهرت في أواخر دولتهم والاحاديث التي وضعت مختلقة على الرسول صلى الله عليه وسلم فرقت الامة الى مذاهب مختلفة كالخوارج والمعتزلة والجبرية واخرجت الخلافة عن رتبتها العلمية الدينية وأبعدتها عن حدها وعهدها وقام الملك اخيرا على العصبية فانحرفت عن العدالة العامة والعلم الدينى وهما أقوى اركان الخلافة وانتشر التفرق فى البلاد الاسلامية ولم يجمع القادة أمر الناس على عقيدة واحدة بل تركوهم مع هذا السيل الجارف

لذلك تقوضت دعائم هذه الدولة وانقسمت الى خلافتين: خلافة عباسية فى دار السلام وخلافة أموية فى الاندلس قام بالاولى الامام السفاح وبالثانية الامام عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام الاموى الذي فر من السفاح ولجأ الى قبيلة زناته أعظم قبائل أفريقيا ونحن ذاكرون شيأ من تاريخ خلفائها الذين هم خير خلفاء وناقلون سيرتهم الحسنة بعد الفراغ من تراجم من يعين عليه الله سبحانه وتعالى من الخلفاء العباسيين . والله أعلم

﴿ ترجمة أبي مسلم الخراساني ﴾

هو عبد الرحمن بن سالم وتسميه جماعة المؤرخين بصاحب دولة . أو صاحب دعوة بني العباس . أو صاحب الدولة العباسية أو بأمير آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

اختلفوا في نسبه فمن قائل انه عربي . ومن قائل انه عجمي . ومن قائل انه كردي . وقد قال هو عن نفسه « كفاك خبري عن نسبي »

ترعرع أديباً . ونشأ لبيباً . وكان يشار اليه في صغره لفرط ذكائه ووفور عقله

ولد في سنة مائة بأصبهان وكان أبوه قد أوصى به الى عيسى بن موسى السراج فحمله الى الكوفة وهو ابن سبع سنين ثم جمع بينه وبين ابراهيم الامام فأقام معه حتى بلغ أشده ثم قال له غير اسمك وكنيتك (وكان يسمى أبا اسحاق) فتسمي (بعبد الرحمن وتكنى بأبي مسلم) . زعموا ان الامام وجد لذلك شيئاً في الجفر وتحقق ان الامر لا يتم على يده الا بعد تغيير اسمه لعلامات رآها هو بها أعلم وأخبر

ولعله إذ قدم على الامام شاهد فيه عقلا وذكاء ودهاء فأعجب به فعقله عنده حتى كان ما كان من قيامه بالدعوة له في خراسان

يشترك أبو مسلم مع جماعة من الذين طالت أعمالهم وقصرت أعمارهم فانه ولد سنة مائة والخليفة يومئذ سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وكانت ولايته سنتين وعشرة أشهر دوخ فيها أهل الارض . وكان له يوم قتله المنصور ثلاث وثلاثون سنة فهو كالاسكندر الرومي صاحب الفتوحات

أو كابن المقفع حكيم الفرس والعرب . أو سيبويه شيخ العربية . أو أبي تمام أبي الشعراء . أو ابراهيم النظام أمير علم الكلام وغيرهم ممن لا يقطع العقل بجواز أن تكون أعمارهم القصيرة ظروفاً لاعمالهم الخطيرة التي دونت عنهم

كان أبو مسلم جميلاقصيراً أسمر حلوا نقي البشرة أحور العين عريض الجبهة حسن اللحية وافرها طويل الشعر طويل الظهر قصير الساق خافض الصوت فصيحاً بالعربية والفارسية حلو المنطق راوية للشعر عالما بالامور لم يُر ضاحكا ولا مازحاً الا في وقته ولزومه ولا يكاد يغضب في شيء من أحواله . تاتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه أثر السرور وتنزل به الحوادث الجسام فلم ير مكتئباً واذا غضب لم يستفزه الغضب كثير الغيرة شديد البطش شجاعاً فاتكا ذا عقل ورأي وحزم وتدبير .كل هذه الخصال الجميلة والنعوت الشريفة هيأت هذا المقدام الهمام لان تتعلق به دعوة بني العباس ويكون به اقامة دولتهم وابادة دولة بني أمية

سئل أبو مسلم فقيل له بم نلت ما أنت فيه من القهر للاعداء فقال ارتديت الصبر وآثرت الكتمان وحالفت الاحزان والاشجان وسامحت المقادير والاحكام حتى بلغت غاية همتي وأدركت نهاية بغيتي »

ومما يدل على علو همته انه ورد حال الدعوى « نيسابور » ليلا على حمار وليس معه آدمي فقصد دار (الدهقان) فدق عليه الباب ففزع اصحابه وخرجوا اليه فقال لهم قولوا للدهقان ان أبا مسلم بالباب يطلب الف درهم ودابة فقالوا للدهقان فسألهم في أي زي وأي عدة هو ؟ فقالوا وحده في أدون زي فسكت ساعة ثم أمر له بما طلب . فلما ملك وفتحت نيسابور قيل

له خذ ما تريد من مال (الدهقان) المجوسى فقال (ان له عند أبي مسلم يدا) ثم اتته هداياه فردها ولم يتعرض بشئ له ولا لاتباعه

ومن نوادره انه كان يشتغل عند خراز بالكوفة فبينما يخرز شيئاً رأى الناس يتعادون فقال ما الذى بهم قالوا فيل دخل الكوفة فقال وأنى في دخل فيل الكوفة من العجب ؟ العجب فىّ أقلب دولة وأقيم أخرى

بدأت الدعوة العباسيّة سنة اثنتين ومائة على ما استقصيناه وكان أول ظهورها بخراسان (بلدة أبى مسلم) وكأنما قارنها فى المولد ليشبا معاً وينشآ سوية

اختلفوا فى أول من قدم خراسان . فمن قائل ان ميسرة وجه رسله بالدعوة من العراق اليها . ثم وشى بهم عمرو بن بجير بن ورقاء السعدى . الى سعيد حذينة عاملها . فقال ان هاهنا قوماً ظهر منهم كلام في الخلافة وأعلن بهم فسألوهم فقالوا نحن من التجار وان لنا فى أنفسنا وتجارتنا شغلا عن هذا وجاءت أناس فكفلوهم فخلى سبيلهم .

ومن قائل ان أول من دخل خراسان الدعاة الذين وجههم (بكير بن ماهان) وفيهم أبو عكرمة . وأبو محمد الصادق وغيرهم سنة سبعة ومائة . ومن قائل انهم دعاة (محمد بن على بن عبد الله بن عباس) . وفيهم زياد أبو محمد مولى همدان . وقد اتفق أصحاب الروايتين ان ذلك وقع فى هذه السنة وفي ولاية أسد على خراسان

أساء هؤلاء الدعاة سيرة بنى أمية واطعموا الطعام على حب بنى العباس وصارت المناظرة فى تفضيل آل على وآل عباس حتي بلغ امرهم اسداً فاحضر زياداً وقال له ما الذى بلغنى عنك قال الباطل . انما قدمت الى تجارة وفرقت

مالى على الناس ، فاذا اجتمع خرجت . فأمره بالخروج فلم يخرج . وعاد الى امره نخاف منه اسد . واحضره وقتله بالسيف مع عشرة من اصحابه. قالوا ولما بلغ الخبر محمد بن على بن عبد الله بن عباس قال (الحمد لله الذى صدق دعوتهم ومقالتهم وقد بقيت منهم قتلى ستقتل) ثم وجه (بكير بن ماهان) سنة ثمان عشرة ومائة عمار بن يزيد والياً على شيعة بنى العباس فنزل مرو وغير اسمه وتسمى (بخداش) ودعا الى (محمد بن عبد الله بن عباس) فسارع اليه القوم وأطاعوه ثم أباح لهم عدم الصلاة والصوم ودعاهم للفجور بنساء بعض وقال ان ذلك بأمر محمد بن على فظفر به أسد والى خراسان وسمل عينيه وقطع لسانه فبلغ ذلك محمد بن على فترك مكاتبتهم ومراسلتهم فبعثوا اليه سليمان بن كثير يعلمه امرهم فصرفه الى خراسان وأرسل معه كتاباً مختوما ففضوه فلم ير فيه الا (بسم الله الرحمن الرحيم) فعظم عليهم ذلك وعلموا أنهم خالفوه . وبعث للنقباء أيضا بعصى مضببة بعضها بحديد وبعضها بالنحاس وأخذ كل واحد من النقباء عصا وهي اشارة لما كانوا عليه من مخالفته ورجوعهم لطاعته [1]

ثم جمعوا أمرهم وقاموا بالدعوة وابتدأ اضطراب حبل بنى أمية وهاجت عليهم الفتنة وخرج سليمان بن هشام بن عبد الملك من الحبس وأخذ ما كان بعمان من الاموال وأقبل الى دمشق يلعن الوليد ويرميه بالكفر

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائة وهى أول سنة الاعمال الجسيمة توجه فيها سليمان بن كثير ومعه ابو مسلم وجماعة من الشيعة الى مكة

---

(١) العصى المضببة بالنحاس أو الحديد هى علامة النقيب للآن في طرق الصوفيـة ولعلها من هنا أخذت

والتقوا بابراهيم الامام ودفعوا اليه ما كانوا يحملون من المال والمتاع فكتب كتابا لابي مسلم يأمره فيه بالعمل ووجهه الخراساني وعمره اذ ذاك نحوا من اربع وعشرين سنة . قال في كتابه للاصحاب والشيعة

أما بعد فاني قد أمرت عليكم أبا مسلم فاسمعوا له وأطيعوا

أمرته على خراسان وما غلب عليه بعد ذلك . فكبر على شيوخ الشيعة قبول إمرته لصغر سنه وخرج بعضهم الى مكة ليلاقوا الامام فاذا به مجمع على رأيه على أبي مسلم وألزمهم طاعته فأطاعوه ثم كتب الى أبي مسلم انك رجل منا آل البيت احفظ وصيتي انظر هذا الحي من اليمن فالزمهم واسكن بين ظهرانيهم فان الله لا يتم هذا الامر الا بهم واتهم ربيعة في أمرهم واما مضر فانهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فيه وان استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ولا تخالف هذا الشيخ (يعني سليمان ابن كثير) ولا تعص عليه واذا اشكل عليك أمر فاكتف به مني)

قام أبو مسلم بالدعوة حق قيام ولم يبق قلب الا قلبه على بني أمية ولا بلد الا أوحشه منهم فغير النوايا وبدل الضمائر والافكار بما بثه واظهره من حجج الهاشمية وما كشف من معايب الامور فلم تلبث الا وقد لزمت الطاعة وتنادت بالدعوة لبني العباس وجاءت من كل الارجاء والمواقع ليقع في ملكه مايريد

قام أبو مسلم مع النقباء والنجباء وبث الدعاة وبرز للمغالبة والمباراة فأزال ملك أعدائه عن مستقره وثبت ملك أوليائه في نصابه فشفى الله صدوراً وادرك بسيفه ثاراً . فتح البلاد وأقام أصل الدولة وفلح مغرس هذه الشجرة وغرسها وثبتها وأقام مقام اصحاب الدعوة بوتيرة واحدة ومنهاج

غير مشترك ودان بالطاعة مع اصحابه يقتلون فيها ويموتون عليها

اصحابه الخراسانية اصحاب الرايات السود يروون حديثاً ماثوراً معناه (صفة الذين يفتحون عمورية ويظهرون عليها ويقتلون مقاتلتها شعورهم شعور النساء وثيابهم ثياب الرهبان) وهم كذلك كانوا اصحاب صدور سليمة وقلوب باسلة لم تفسدها الاهواء ولم تخامرها الأدواء ولم تعتقبها البدع وهم خير جند لخير قائد فكأنهم لم يخلقوا الا لقلب الدول وتاييد السلطان

ثم كانت سنة تسع وعشرين ومائة فكتب اليه ابراهيم الامام يستدعيه ليسأله عن اخبار الناس فسار نحوه فى النصف من جمادى الآخرة مع النقباء فلما وصلوا قومس (١) وافاه كتاب الامام يقول له فيه انى قد بعثت اليك براية النصر فارجع من حيث لقيك كتابي ووجه الى قحطبة بما معك يوافيني فانصرف ابو مسلم الى خراسان وذهب قحطبة الى الامام بما معه من الاموال والعروض ونزل ابو مسلم قرية من قرى مرو يقال لها مفنون (بلدة بمرو) ولبس السواد وبعث النقباء والنجباء يدعون لطاعة بنى العباس ودارت رحى الحرب والقتال وانتقل امرهم من القوة الى الفعل واخذت البيعة الى الامام علانية ثم عقد اللواء الذى بعثه الامام اليه الذى يدعى (الظل) والراية التي تدعى (السحاب) وأمر باشعال النيران للشيعة وهي علامة اجتماعهم فاجتمعوا وتأولوا لذلك كلاما فقالوا (الظل والسحاب) يعنى ان السحاب يطبق الارض وان الارض كما لاتخلو من الظل كذلك لاتخلو من خليفة عباسي الى آخر الدهر

ثم قدمت الدعاة على ابى مسلم من كل فج وناحية واتته الرجال راجلين وركبانا يكبرون من ناحيتهم فيجيبهم غيرهم من ناحية أخرى فتربص بهم

---

(١) قومس بالضم وفتح الميم صقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل

مكانه وكان عيد الفطر فنصبوا منبراً بالعسكر وأمر سليمان بن كثير أن يصلى به وبالشيعة ويبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا اقامة وكانت بنو أمية تبتدئ بالخطبة قبل الصلاة وبالاذان والاقامة مع تغيير كثير فى عدد التكبيرات واختلاف فى كونها تباعا ففعل ثم انصرفوا بعد الصلاة الى طعام فأكلوه وكتب أبو مسلم الى نصر بن سيار قائد جيوش بنى أمية كتاباً قال فيه الى نصر

أما بعد فان الله تبارك اسماؤه عير أقواما في القرآن فقال « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الامم فلما جاءهم نذير مازادهم الا نفوراً استكباراً فى الارض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء الا باهله فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا »

فتعاظم نصر الكتاب وكسر له احدي عينيه وقال هذا كتاب ماله جواب

ثم وجه أبو مسلم أشياعه مثل مالك بن الهيثم الخزاعى وحازم بن خزيمة والتقوا بعسكر بنى أمية وجيوشها وذهب غير أولئك الى جهة أخرى فشردوهم عن المواقع والاماكن وقتل من قتل منهم كشيبان الخارجي من اكابر القواد والكرماني وابنيه ودخل أبو مسلم « مرو » وصفت له على يد أبى منصور طلحة بن زريق أحد النقباء وكان عالما بالحال ماحنا بالحجة وهو أحد الاثنى عشر نقيباً المنتخبين من السبعين الذين استجابوا الرسول محمد بن على فى أول الامر

ثم دخلت سنة اثنين وثلاثين ومائة بويع فيها أبو العباس عبدالله بن محمد ابن عبد الله الملقب بالسفاح بسبب قبض مروان الحمار على ابراهيم بن محمد

الامام وحبسه وقتله (كما هو مبسوط فى أماكنه من كتب التاريخ) وكان الامام قد نعى نفسه الى اهل بيته قبل ذلك وأمرهم بالمسير الى الكوفة مع أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد وبالسمع والطاعة له وأوصى الى أبي العباس الملقب بالسفاح بالخلافة فلما وقع ذلك ساروا فقدموا الكوفة مع شيعتهم فأنزلهم أبو سلمة الخلال دار الوليد بن سعد مولى بنى هاشم (كما تقدم الكلام فى النبذة التاريخية) وجاءت القواد وسلمت عليه بالخلافة ثم لبسوا السلاح وطلبوا خروجه واصطفوا له وأتوا بالدواب فركب برذونا أبلق ودخلوا دار الامارة ثم خرج الى المسجد فخطب وصلى بالناس ثم وافت الاخبار بهزيمة مروان (بالزاب) ثم التقى به عبد الله بن على عم السفاح فهزمه الهزيمة الكبرى وفر الى مصر وقتل

قامت الدولة العباسية مبتدئة بأول خلفائها أبي العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس وهو الملقب بالسفاح فأقر أبا مسلم على خراسان ولا زال بها لا يفارقها الى سنة ست وثلاثين ثم كتب اليه أبو مسلم يستأذنه فى القدوم عليه والحج فأذن له ووافق ذلك طلبا من أبي جعفر المنصور أيضا بالحج فأذن له فلما كانا فى الطريق خمل معه ذكر أبى جعفر لان أبا مسلم كان يكسو الاعراب ويصلح الآبار والطريق وكانت الذكرى له . ولما صدر عن الموسم تقدم فى الطريق ثم أتاه خبر موت السفاح فكتب اليه يعزيه ولم يهنئه بالخلافة . كل هذا وأمثاله جعل أبا مسلم فى نظر المنصور ممن أحسن مبتدأ وأساء معقبا وقد غلب عليه سوء الظن حتى رجح فيه قبح الباطن على حسن الظاهر وخبث السريرة وفساد النية على حسن الخدمة والبلاء الحسن فأمضى فيه حكمه وقتله بعد ان استدعاه وأدناه وجالسه

مجلساً كثر فيه الاخذ والرد كما سيأتى ذلك في ترجمته ان شاء الله

﴿ موعظة ﴾

(قال الامام الفخرى) لما قدر الله انتقال الملك الى بنى العباس هيأ لهم جميع الاسباب فكان ابراهيم الامام ابن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بالحجاز جالساً على مصلاه مشغولا بنفسه وعبادته ومصالح عياله ليس عنده من الدنيا طائل وأهل خراسان يقاتلون عنه ويبذلون نفوسهم وأموالهم دونه وأكثرهم لايعرفه ولا يفرق بين اسمه وشخصه . وانظر الى ابراهيم الامام هو بتلك الحالة من الانقطاع بداره واعتزال الدنيا وهو بالحجاز وله مثل هذا العسكر العظيم فى خراسان يبذلون نفوسهم دونه لا ينفق عليهم مالا ولا يعطى أحدهم دابة ولا سلاحا بل هم يجبون اليه الاموال ويحملون اليه الخراج فى كل سنة

ولما قدر الله تعالى خذلان بنى مروان وانقراض ملك بنى أمية كان مروان خليفة مبايعا ومعه الجنود والاموال والسلاح والدنيا بأجمعها عنده والناس يتفرقون عنه وأمره يضعف وحبله يضطرب فما زال يضمحل حتى هزم وقتل واكلت لسانه هرة

فتعالى الله عما يشركون اه

(قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحىّ من الميت وتخرج الميت من الحيّ وترزق من تشاء بغير حساب)

﴿أبو جعفر المنصور﴾

نستفتح الخلافة العباسية باسم هذا الخليفة العظيم ثانى الخلفاء العباسيين لاسباب منها ان جماعة المؤرخين قالوا ان فى بنى العباس فاتحة . وواسطة . وخاتمة . والفاتحة عندهم المنصور . والواسطة المأمون . والخاتمة . المعتضد ومنها ان مدة السفاح لم تطل . ومنها ان هذا الخليفة أحق بالتقديم لانه جمع أشتات الفضائل بما أعطاه الله من القوتين العلمية والحربية

هو أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس. ولد فى شهر ذى الحجة سنة خمس وتسعين وأدرك جده ولم يرو عنه وروى عن أبيه وعن عطاء بن يسار . وبويع له بالخلافة فى شهر الحجة سنة ست وثلاثين ومائة . وتوفى لست خلون من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة ببئر ميمون مع السحر وهو محرم ودفن بمقبرة المعلاه والمسافة بينهما ثلاثة أميال . فمدة خلافته اثنان وعشرون سنة ومدة عمره ثلاث وستون سنة

كان أسمر نحيفاً خفيف العارضين وقوراً كامل العقل جيد المشاركة في العلم والادب فقيه النفس فصيحاً بليغاً مفوّهاً خليقاً بالامارة وجبروتها مدبراً لامور المملكة

قسم زمانه وساعاته قسمة حكمة فكان صدر نهاره للامر والنهى والولايات والعزل وشحن الثغور والاطراف وتأمين السبل والنظر في الخارج والنفقات ومصلحة معاش الرعية والتلطف بسكونهم وهدايتهم فاذا صلى العصر جلس لاهل بيته فاذا صلى العشاء الآخرة جلس للنظر فى كتب الثغور والاطراف والآفاق وشاور سماره فاذا مضى ثلث الليل قام الى فراشه

فاذا مضى الثلث قام فتوضأ وصلى حتى يطلع الفجر فيخرج للناس فيصلى ثم يدخل ايوانه

وكان لحبه العدل واستقامة أمور المملكة يستقل ذلك وقد سمع منه انه قال « ما أحوجنى أن يكون على بابى أربعة نفر: قاض لا تأخذه فى الله لومة لائم وصاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى وصاحب خراج لا يظلم الرعية ثم عض على أصبعه وتأوه فقيل ماهو يا أمير المؤمنين قال صاحب بريد يكتب الىّ خبر هؤلاء على الصحة »

نمت فى عصره القوة العلمية . فقد عاصر كثيراً من الائمة الاجلاء منهم الامام أبو حنيفة والامام مالك بن أنس وكثر تدوين علماء المسلمين فيه العلوم . كالحديث والتفسير فصنف ابن جريج بمكة . ومالك الموطأ بالمدينة والاوزاعى بالشام . وابن أبى عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة ومعمر باليمن . وسفيان الثورى بمكة , صنف ابن اسحاق المغازى وابتدأ تدوين العلم وتبويبه ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس . وكان الائمة فى هذا العصر يملون العلوم املاءً من حفظهم

هو أول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والاعجمية بالعربية كاقليدس وكليلة ودمنة وكان هو أعلم الناس بالحديث والانساب مشهوراً بطلبه . كان بليغاً لسناً فصيحاً أخرج الاصمعي وغيره أنه صعد المنبر فقال « الحمد لله أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله الا الله لا شريك له فقام اليه رجل فقال يا أمير المؤمنين اذكر من أنت فى ذكره. فقال مرحبا مرحبا لقد ذكرت جليلا وخوفت عظيما وأعوذ بالله أن أكون ممن اذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم والموعظة منا بدت ومن عندنا

خرجت وأنت ياقائلها فأحلف بالله مالله أردت وإنما أردت أن يقال قام فقال فعوقب فصبر فأهون بها من قائلها واهتبلها من الله فانى قد غفرتها وإياكم معشر الناس من أمثالها وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فعاد الى خطبته كأنما يقرؤها من قرطاس

كان المنصور من أعظم الخلفاء ذوى الآراء التامة الصائبة وأعلمهم وأعقلهم وأحزمهم وأشجعهم وله من التدبيرات السديدة مايستحق أن يدون ليحتذى به ويؤخذ منه ويقاس عليه

ومن أغرب ما يؤثر عنه مما يدل على تفطنه ودقته انه لما أدركته الوفاة قال لابن المهدى يابنى ان فى بيت المال مالاأخذته العمال من أصحاب الجنايات على وجه المصادرة تأديباً لهم وزجراً ولقد أفردت كل شىء منه وكتبت عليه أسماء أصحابه فربما كان منهم مايوجب رده اليهم

كان أعلم الناس بضبط أحوال الممالك وترتيب القواعد واقامة ناموس كل شىء . غالب الدهر والايام حتى كف عاديهما عنه وتوطدت أركان الممالك له وعظمت هيبته فى النفوس ولولا بأسه وشدته مادانت الأمصار اليه بعيدها وقريبها وأصبحت خلافته موطدة الأركان قوية البنيان فان آل مروان لم تبل رممهم . وآل أبى طالب لم تغمد سيوفهم والناس قدرأتهم أمس على حال واليوم أصبحوا عليهم خلفاء

كان حازماً لايعرف اللهو ولا مايشبه اللهو ولم ير فى داره ذلك . قال سلام الابرش كنت أخدم المنصور داخلا وكان من أحسن الناس خلقاً فى الخلوة بل من أشد الناس احتمالا لما يكون فيها فاذا خرج من المجلس العام اربدّ لونه وكان مع ماوهبه الله من السودد والمجد فقير النفس فكان يرقع

ثوبه ويلبس القميص الخشن (ونعم المبتلى)

كان شجاعا صارما مقداما لا يرهب الموت يقظا لا يفات عدوه قال يزيد بن عمر بن هبيرة : مارأيت رجلا فى حرب أو سلم أمكر ولا أنكر ولا أشد تيقظا من المنصور حاصرني تسعة شهور ومعى فرسان العرب فجهدنا الجهد الجهيد فلم ننل من عسكره شيئاً وحصرت ومافى رأسى شعرة بيضاء وانقضى الحصار وليس فيها سوداء

يعد مخاطراً من فرط شجاعته حتى قيل انه أخطأ فى ثلاث : قتل ابى مسلم وهو في جماعة قليلة وحين خرج الى الشام . ولو اختلف سفيان بالعراق لذهبت الخلافة . ويوم الراوندية ولو اصابه سهم لدكت المملكة وغدا الكل اثراً بعد عين . فأما قتله لابى مسلم وخروجه الى الشام فقد يتفق ذلك لبعض الانام ولكن المعجز يوم الراوندية

وصفوة الخبر ان جماعة من اهل خراسان يبلغ عددهم ستمائة نفس يقولون بالتناسخ على راى ابى مسلم احاطوا بقصره وقالوا انت إلهنا فغضب وقال يدخلهم الله النار فى طاعتنا ولا يدخلهم الجنة فى معصيتنا وحبس رؤساءهم فعمدوا الى نعش فارغ وحملوه كان به جنازة وقصدوا السجن فألقوه امامه وكسروه واخرجوا من فيه وقصدوا القصر فخرج بنفسه ماشيا(١) وصاحت الناس وغلقت ابواب المدينة وما زال حتي جيء له بدابة فركبها ثم جاء معن بن زائدة واخذ بلجامها وصار يقاتل قتالا ماروى قبله ويقتل بين يديه ويحميه حتي طفئت الفتنة

فمن اى ملك او سلطان يؤثر ذلك ؟ لاندرى على ان هذه الامور

---

(١) لانه لم يكن فى القصر دابة . ومن ذلك اليوم ربط فرس النوبة بدور الخلفاء

طالما كانت سبباً لضياع البلاد . تقوم الثورة المدبرة فتنعقد يد الامير عن التصرف فيها فتتسع « ومعظم النار من مستصغر الشرر » فضلا عن أن تلم بطرف اجنبي فلا تلبث المدينـة أو المملـكة الا وقد أصبحت مغنما للعدو كما رأينا ذلك

وقد كانت هذه الواقعة سبباً لبنائه بغداد لانه كره الاقامة بالهاشمية فبناها بعدما اجمعت جماعة الحكماء على فضل مكانها . دجلة والفرات محيطان بها والميرة تأتي اليها فى دجلة من ديار بكر ومن البحر والهند والصين . وفى الفرات من الرقة والشام وخراسان وبلاد العجم متوسطة بين البصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد والساكن فيها قريب من البحر والبر والجبل وهى مدينة مباركة قالوا انه لم يمت فيها خليفة

ابتدأ فيها سنة خمس وأربعين ومائة وأتمها سنة ست وأربعين وجعلها شبه دائرة وقصره في مركزها قالوا ليكون قربه من جميع الناس واحد . فصرف عليها أربعة ملايين وثمانمائة ألف درهم وبلغ من دقة أمره فى حسابها انه تقاضى البواقى لغاية خمسة عشر درهما (وهكذا من أخذ حقه أعطى حق غيره)

ثم بنى الرصافة وشيدها

احاطت بخلافته الفتوق والحوادث من كثرة الخارجين عليه فأفنت الفرسان وقتلت الانصار وغلت يد الخلافة وأذاقت الامة بأس بعضها وأتلفت الحصون والملاجىء وبددت المعاقل

وكفى بالجيوش الخراسانية التى كانت مع الامير (إستادسز) أى (الخارج بلا سند ولا دليل) فقد عظم خطرها واستفحل شرها واشتد الامر على

المنصور فان ضريبة جيشه كانت ثلاثمائة ألف مقاتل ما بين فارس وراجل ولم يهزم اسنادسز حتى قتل فى موقعة واحدة من رجاله سبعون ألفا فى واقعة مشهورة.

أدته حالة الملك ورغبته فى استقامته باستئصال جرائيم الفساد أن هجم بالعقوبة وتناسى العفو فكان جبروت خلافته شديدا ولم تفتح فى مدة خلافته الا « طبرستان » لان الحروب مع الخوارج غلبت عليه.

دخل فى طاعتة ممالك الاسلام التى افتتحها الصحابة رضى الله عنهم وبنو أمية الا الاندلس بقيت بيد أهلها يتقاتلون على الامارة حتى قدم عليهم فأصبح للاسلام رئيسين يتنازعان السلطة العباسية فى الشرق ببغداد والاموية فى الغرب بالاندلس.

ومن فضائل هذا الخليفة انه وسع المسجد الحرام مما يلى دار الندوة وحصل بينه وبين ملك الروم الفداء واستنقذ أسرى المسلمين وحج حجة اغدق فيها على الناس حتى سميت عام الخصب. ووقع فيها بينه وبين رجل من الحديث ما فيه مزدجر ومن العظة مالا يتصور وقوعه والعجب ان مثل أبي جعفر يتقبله منه مع جبروته ولا تأخذه أنفة الملك. وانا ذاكروه ولو طال. فانه مما يطرز بالدرر واللآل :

قالوا حج أبو جعفر وكان يخرج الى الطواف في آخر الليل يطوف ويصلى لا يعلم به أحد فخرج ذات ليلة سحرا وبينا هو يطوف سمع من يقول اللهم انى أشكو اليك ظهور البغى والفساد في الارض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم فأسرع المنصور حتى ملأ مسامعه منه ثم خرج ودعاه وسأله عن الذى سمعه فقال له : ان أمنتنى على نفسى أنبئك .

فأمنه وأدناه وسأله فقال :

« يأمير المؤمنين ان الذى دخله الطمع حتى حال بين الحق وأهله وما ظهر من البغي والفساد في الارض انما هو انت . قال ويحك كيف يدخلني الطمع وكل ما أريده فى قبضتى ؟ ـ قال : وهل دخل على أحد من الطمع ما دخل عليك يا أمير المؤمنين . ان الله عز و جل استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر وأبوابا من الحديد وصحبة معهم السلاح واتخذت وزراء وأعوانا فجرة ان نسيت لم يذكروك وان أحسنت لم يعينوك وقويتهم على ظلم الناس بالاموال والرجال والسلاح وأمرت أن لا يدخل عليك من الناس الا فلان وفلان ولم تأمر بايصال المظلوم والملهوف والجائع والعاري وما أحد الا وله فى الاموال حق فلما رآك الذين استخلصتهم وأشرفتهم على رعيتك وأمرت أن لا يغيبوا عنك تجبي المال ولا تقسمه قالوا قد خان الله فما بالنا لا نخونه وائتمروا على كتم اخبار الناس عنك الا ما أرادوا ولا يخالف أمرهم عامل الا اقصوه حتى تسقط منزلته فلما انتشر ذلك عظمهم الناس فهابوهم وصانعهم عمالك بالهدايا والاموال ليقووا بها على الظلم ثم فعل ذوو الثروة والقوة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم وامتلأت بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وانت غافل وان جاء متكلم حيل بينه وبين الدخول اليك وان أرادوا رفع قصة اليك وجدوك قد نهيت عن ذلك وأوقفت للناس رجلا ينظر في مظالمهم فان جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته اليك فان صرخ ضرب وانت تنظر ولا تنكر ولا تغير فما بقاء الاسلام وأهله على هذا

كانت بنو أمية لاينتهى اليهم مظلوم الا رفعت مظلمته ولقد كان الرجل يأتى من أقصى الارض حتى يبلغ باب سلطانهم فينادي يا أهل الاسلام فيبتدرونه فيرفعون مظلمته الى سلطانهم فينتصف له وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر الي ارض الصين وبها ملك فقدمتها مرة وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكى فقال له وزيره مالك تبكي لابكت عيناك . فقال اما انى لست ابكي على المصيبة اذ نزلت بي ولكن على عدم سمع صراخ المظلوم بالباب ابكى . ولئن ذهب سمعي فان بصرى لم يذهب . نادوا فى الناس ان لايلبس ثوبا احمر الا المظلوم . فكان يركب الفيل في طرفي النهار هل يرى مظلوما فينصفه

هذا يا امير المؤمنين مشرك بالله تعالى قد غلبت عليه رأفته بالمشركين ورقته على شح نفسه في ملكه وانت مؤمن بالله عزوجل وابن عم نبيه الا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك فانك لاتجمع الاموال الا لواحدة من ثلاثة . ان قلت اجمعها لولدى فقد آتاك الله تعالى هـذا الطفل الصغير وما له على الارض مال . وما من مال الا ودونه يد شحيحة تحويه ولا يزال الله عز وجل يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس اليه . ولست الذي يعطي ولكن الله تعالى يعطي وان قلت اجمع المال لتشييد سلطانى فقد أراك الله عز وجل عبراً فيمن كان قبلك ولم يغن عنهم ماجمعوا من الذهب والفضة وما أعدوا من الصراع والكراع وماضرك وولد ابيك عبد الله ن عباس ما كنت فيه من الضعف حين أراد الله عز وجل بكم ما أراد . وان قلت اجمع المال لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنا فيها فوالله مافوق ما أنت فيه الا منزلة لاتدرك الا بالعمل الصالح يا امير المؤمنين هل تعاقب من عصاك

من رعيتك بأشـد من القتل قال لا . فكيف تصنع بالمالك الذي خولك ما انت فيه من ملك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن يعاقب من عصاه بالخلود فى العذاب الاليم وهو الذى يرى منك ماخفي فيك فما تقول اذا انتزع ملك الموت الدنيا من يدك ودعاك الى الحساب هل يغنى عنك ماكنت فيه شيئاً فبكى المنصور حتى ارتفع صوته ثم قال « ليتنى لم أخلق ولم أك شيئاً . كيف احتيالى فيما خولت، ولم أر من الناس الا خائناً » فقال يا أمير المؤمنين عليك بالائمة الاعلام المرشدين ؟ قال ومن هم . قال العلماء قال فروا منى . قال هربوا مخافة أن تحملهم على ماظهر من طريقك ولكن افتح الابواب وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم وامنع وخذ الشيء مما حل وطاب واقسمه بالعدل وانا ضامن لك أن يأتيك من هرب منك فيعاونك على صلاح امرك ورعيتك. فقال المنصور اللهم وفقى ان أعمل بما قال هذا الرجل

ولا عجب من سكوت ابى جعفر واصغائه لمقال الرجل وطلبه التوفيق فى العمل بما قال لانه يتحرى الحق من الباطل ويعلم صحة ما يقال له وينزل اليه وهو متسنم المعالى ويتضاءل امامه كما سمعت

اكبر فخر للغربى على الشرقى الآن ان يفخر عليه بان فى اهل الغرب من الرجال من يبادر ملوكهم بكلمة الحق وقوله الصدق وان هؤلاء الملوك لا يصدفون عن النصيحة ولا يأنفون منها مادامت عونالهم على طرق الحق واكتساب الخير ولكن كل الذى سمعناه عنهم دون هذا الموقف الذى ذهبت فيه معانى الخلافة من القهر والقوة والقدرة واستعمت فيه النصيحة بما يجب لها من الخضوع والخشوع

واعجب من هذا ما اخرجه عبد الله بن صالح قال كتب المنصور الى

سوار بن عبد الله قاضي البصرة بان ينظر في الارض التي تخاصم فيها فلان القائد وفلان التاجر وان يدفعها الى القائد فامتنع القاضي وقال انها من حق التاجر وكتب للمنصور بذلك . فكتب اليه والله الذي لا اله الا هو لتدفعنها الى القائد . فكتب اليه سوار يقول والله الذي لا اله الا هو لا اخرجها من يده الا بحق . فلما جاءه الكتاب قال ملأتها والله عدلا وصارت قضاتي تردني الى الحق

لو كان أبو جعفر غير مغلول اليدين وكانت الحروب التي باشرها مع الخوارج عليه فتوحا في بلاد الغير كان زمنه يعد من أكبر الازمان في الفتوح والاعمال الحربية كما عد أكبر زمن في الفتوح العلمي والتقدم في المعارف . ولكن قدر الله أن يكون سهمنا بيننا في تلك المدة كما قدمنا وذلك من المنازعة على الملك وسمو الآمال اليه وعدم دفع الخارجين عليه الا بالقوة الغالبة أو ينقرضوا

كانت خزائن أبي جعفر ملأى بانواع الاموال وجيوشه على قدم الاستعداد ولولا ذلك ما تمت له الخلافة وناهيك بوصيته للمهدي وقوله فيها « اني قد جمعت لك من الاموال ما يكفيك لارزاق الجند والنفقات على اختلافها عشر سنين فاحتفظ بها فانك لا تزال عزيزاً مادام بيت مالك عامراً وأوصيك باهل بيتك خيرا فان عزك عزهم وانظر مواليك فانهم مادتك اشدتك واياك والتبذير فان النوائب غير مامونة ولا تتجاوز ما امر الله به واعد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل وخذ نفسك بالتيقظ وتفقد من تثبت على بابك وسهل اذنك للناس ووكل بهم عيناً غير نائمة ونفسا غير لاهية ولا تنم واياك فان أباك لم ينم

منذ ولى الخلافة ولا دخل عينه الغمض الا وقلبه مستيقظ »

فالمتأمل في هذه الوصية يدرك ان الامم الفقيرة لابد ان تسترقها أخصامها بعلة الدين كما هو الواقع وهو أقرب سبب لان تتملكها وتستعبدها عداها وليس بين الامة وبين محوها الا ان تقصر يدها فى عدة حرب وقد وقفت اليها خصومها وعلمت منها ذلك وان الانقسام والافتراق من شر الاوبئة على عائلة الملك لانها تبيدها بيدهامن غير حاجة لقوة الاعداء

فنسأل الله ان يلم شعثنا ويوفقنالما يريده من خير الدنيا وخير الآخرة ويرينا هذه المواقع التى ذكرناها من جهات بغداد وانهارها عامرة غامرة بالعمار والترقى والحضارة والمدنية التى انبثت هناك أسبابهافى هذه الايام فى ظل مولانا وسيدنا أمير المؤمنين الظليل أدام الله سلطانه وملكه وجعله للامة الاسلامية ذخراً وسياجايحوطها من آفات الزمان ونوائب الحدثان ويد اله وان آمين

المهدى أبو عبدالله محمد بن المنصور

هو المهدى أبو عبد الله محمد بن المنصور ولد سنة سبع وعشرين ومائة وبويع له بالخلافة في سنة ثمان وخمسين بعهد من أبيه المنصور بعد موته (ببئر ميمون كما تقدم فى ترجمته) فلما وصل الخبر اليه ببغدادخطب الناس فقال « ان أمير المؤمنين عبد دعى فأجاب وأمر فأطاع (واغرورقت عيناه فقال) قد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم عندفراق الاحبة ولقد فارقت عظيما وقلدت جسيما فعند الله احتسب أمير المؤمنين واستعين على خلافة المسلمين) . ايها الناس اسروا مثل ما تعلنون من طاعتنا نهبكم العافية واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم وطوى الاصرعنكم وأهال

عليكم السلامة من حيث رآه الله مقدماً ذلك . والله لافنين عمرى بين عقوبتكم والاحسان عليكم»

يرى الممعن في معاني هذه الخطبة شيئاً كثيراً من المنافع والمقاصد الخيرية

اظهرت تأثره بالفجيعة وابانت ان خلاله خلال حنو وانعطاف وان ملكوت الخلافة لم ينسه حق الابوة ورأينا غير ذلك في غيره ممن لاتذكر نعمتهم في جانبه ولا أسوأ من العقوق والعياذ بالله

نقب على أحسن ماتوصف به الرعية وطلب تحقيقه من الامة والملة فقال : « وأسروا كما تعلنون » لان أقبح ماتكون الامة وفي صدرها دخل سواء كانت تضمره لبعضها أو لاولياء أمورها .

طلب منهم خفض الجناح واقترنه بنشر المعدلة فيهم وطي الاصر عنهم ولا أجل من ذلك في معاني الحكم بالعدل والملك بالحق .

حكم على نفسه بأن يفنى عمره بين الاحسان والعقوبة وكذلك النفوس الكاملة تتقلب رعاياها بين رحموتها وجبروتها لكيلا تكون « سكراً فتؤكل أو حنظلا فترمى »

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلى مضر كوضع السيف فى موضع الندى

كأنما المنصور كان ينعي نفسه . فقد أوصاه عند وداعه وصية من لايؤمل اللقاء فلم يدع فيها شيئاً من الخير يمكن الاحاطة به الا تقدم فيه اليه وأوصاه بخصال جمّله بها واستخلف الله عليه

تولى الخلافة مستأنسا بوصية والده هذه متدرباً تخليقاً بالامارة لان الخليفة المنصور ريضه بما ولاه قبلها من الاعمال مذ شب وتأدب وجالس العلماء وبلغ مبلغ الكمال

أمره على طبرستان وما والاها فباشر أعمالها حتى برهن على أهليته.
ثم عهد اليه بالخلافة بعد ذلك فكان العهد اليه عن خبرة وحقيقة نظر فى مصالح الامة . وكانّ المنصور بترييضه ولده وولى عهده على أمورها وأعمالها نظر لمصالح هذه الامة فى مماته نظره لها فى حياته وحبذا الخلفاء

روى المهدى الحديث عن أبيه وعن مبارك بن فضالة وحدث عنه يحيى بن حمزة وجعفر بن سليمان الضبعى وغيرهما . قال الذهبى وما علمت فيه جرحا ولا تعديلا

كان المهدى جواداً ممدوحاً محبباً الى الرعية حسن الاعتقاد . قال له يوما يعقوب وزيره فى أمر أراده : « هـذا والله السرف » فقال المهدى : ويحك يايعقوب انما يحسن السرف بأهل الشرف ليعلم المكثر من المقل

كان من أوائل فعله فى خلافته تتبع الزنادقة والقائلين بالتناسخ من أهل خراسان الملتفين حول راية المقنع ولوائه . فحاربهم ثم أراد أن يكون دليله فى اذلالهم دليل بحث وتنقيب وحجته فى افحامهم حجة برهان واستنباط لا حجة غلبة وصولة فأمر بتصنيف كتب الجدل في الرد على مسائلهم في الزندقة والالحاد ومازال بهم حتى أفناهم وطهر الأرض منهم

وفى سنة تسع وخمسين ومائة بايع المهدى بولاية العهد لموسى الهادى ثم من بعده لهرون الرشيد ولديه

وفى سنة ٦٠ حج بالناس وقسم مالا عظيما فى مصارف الخير ونقل خمسمائة من الانصار الى العراق جعلهم فى حرسه وأقطع لهم الارزاق

حمل اليه الثلج وهو فى مكة وهذا مما لم يتهيأ لخليفة قبله قط . وما ذلك الا من انتظام البريد وأمان الطريق وسلامة الوارد والمتردد وعدم

وجود عائق أبداً

ثم عمر الطريق الى مكة وبنى به قصورا أوسع من قصور المنصور (من القادسية الى زبالة) وجدد الاميال وحفر الآبار وأصبحت الطريق آمنة صالحة الى بيت الله الحرام ومقام نبيه عليه السلام وأمر باتخاذ المصانع في كل منها منهل . وسير البريد من العراق للحجاز ومن اليمن الى مكة الى الحضرة وخصص له إبلا وبغالا لا تحصي وهو مما لم يتفق لغيره أيضا

أمر بترك المقاصير التي في جوامع الاسلام وقصر المنابر وصيرها على مقدار منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ووسع المسجد الحرام وأمر بالزيادة الكبرى فيه وأدخل في ذلك دوراً كثيرة ولم يزل البناء فيه الى وفاته

ثم بدأ في الفتوح ببلاد الروم فكثرت الفتوحات على يديه ونصره الله وزاد في غنيمته فمنها انه في سنة ثلاث وستين ومائة تجهز لغزو الروم وجمع الاجناد من خراسان وما يليها من الآفاق وصار مستصحبا ولده هارون وبعد ان عبر الفرات بعثه للغزو فحاصر البلاد وافتتحها وأثخن في الزنادقة

ثم سير ابنه هارون في سنة خمس وستين ومائة لغزو الروم فأوغل في بلادهم وهزمهم وجمع اليه أموالا كثيرة وسار حتى بلغ القسطنطينية وكان على الروم يومئذ (غسطه) زوجة (أليوك) كافلة لابنها منه صغيراً . فجرى الصلح على الفدية وان تقام له الادلاء والاسواق في الطريق ونال قصده من ذلك

كان عادلا محباً للعدل فاذا جلس للمظالم قال أدخلوا على القضاة فلو لم يكن ردي للمظالم الا للحياء منهم لكفى

بلغ من تقواه ما حدث به (الحسن الوصيف) قال : أصابتنا ريح شديدة

فى ايام المهدى حتى ظننا انها تسوقنا الى المحشر فخرجت أطلب المهدى فوجدته واضعا خده على الارض وهو يقول « اللهم احفظ محمداً فى أمته . اللهم لا تشمت بنا أعداءنا من الامم . اللهم ان كنت آخذت هذا العالم بذنبي فهذه ناصيتي بين يديك » قال فما لبثنا الا يسيراً حتى انكشفت الريح وزال عنا ما كنا فيه

كان سمحاً جميلا قال الربيع : رأيته يصلي في بهو له فى ليلة مقمرة فما أدرى أهو أحسن أم البهو أم القمر أم ثيابه . فقرأ : « فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا فى الارض وتقطعوا ارحامكم » قال فاتم صلاته ثم التفت الىّ وقال : ياربيع . قلت لبيك . قال موسى . فقلت فى نفسى من هو موسى أموسى ابنه . ام موسى بن جعفر ؟ وكان محبوسا عندى . فجعلت أفكر ثم غلب علىّ انه موسى بن جعفر فأحضرته فقطع صلاته ثم قال له ياموسى إنى قرأت هذه الآية (وقرأها) فخفت أن أكون قد قطعت رحمك فوثق لى انك لاتخرج علىّ وتؤذى بخروجك جماعة المسلمين حتى اخليك . فوثق له فخلاه

ويحق للقاريء لهذا الخبر أن يحاكى الربيع فى مقاله ويجاريه فيقول لا أدرى قراءته كلام الله بهذا الامعان والتدبر أحسن أم العلم به فى صلة الرحم أم العفو عن المسيء أم مخافة الله !!!

كان عصره عصر خير وبركة . من الزهاد جمع ابراهيم بن أدهم وداود الطائى ومن الاعلام : الخليل بن أحمد الفرهودى صاحب العروض وسفيان الثورى وبشار بن برد أول شعراء المحدثين

كان مثالا للسماحة وقدوة فى مكارم الاخلاق . قالوا كان يصلي بالناس

الصلوات الخمس بالمسجد الجامع بالبصرة لما قدمها . فاقيمت الصلاة يوما فقال اعرابي است على طهر وقد رغبت فى الصلاة خلفك . فأمر الناس بانتظاره ودخل المحراب ووقف الى أن قيل جاء الرجل فكبر وصلى

ومن الخبر المأثور عنه فى حب النبي صلى الله عليه وسلم انه أول من قرأ فى الخطبة . « ان الله وملائكته يصلون على النبى » الآية. قال الاصمعى سمعت المهدى على منبر البصرة يقول ان الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه وثنى بملائكته . وقرأ الآية

كان يتحسس بنفسه حال الامة والملة فاتفق له ليلة انه سمع اعرابية تقول : « قومى مقترون نبت عنهم العيون فدحتهم الديون . غصتهم السنون . بادت رجالهم وذهبت أموالهم . وكثرت عيالهم . أبناء سبيل وانضاء طريق وصية الله ووصية الرسول فهل من آمر لى بخير كلأه الله فى سفره وخلفه فى أهله » فوصلها وأمر من يوصلها الحيها

وأسند عن مهدى بن سابق قال صاح رجل بالمهدى وهو فى موكبه وقال :

قل للخليفة حاتم لك خائن خف الاله وأعفنا من حاتم
ان العفيف اذا استعان بخائن كان العفيف شريكه فى المأتم

فاستوقف كل عامل يدعي حاتما حتي عرف له صاحب الخيانة وتقاضاه

واعترضته امرأة فقالت : ياعصبة رسول الله انظروا فى حاجتى فقال: اقضوا حاجتها وصلوها بعشرة آلاف درهم فانى ماسمعت أحدا خاطبنى بهذا

ومن غرر أقواله قوله : « ماتوسل الى أحد بوسيلة هى اقرب من تذكرى يداً سلفت منى اليه اتبعها أختها وأحسن ربها فان منع الاواخر

يقطع شكر الاوائل »

هذه الترجمة مثال تقاس عليه نتيجة حسن تربية أولياء العهد وترييضهم على العمل في أيام سلفائهم ليمكن لهم أن يثقوا بنظرهم لهم ويتحقق منهم النظر فى مصالح الامة لدينهم ودنياهم متى أصبحوا ائمة عليها ووجب على جميع الرعية طاعتهم

ان ولى العهد اذا أصبح ليس بينه وبين تحقيق أمنيته الا موت العاهد له كان ذلك شؤما عليه وعلى الامة وأى شؤم . فانه يبطىء بنفسه عن كثير من خصال الخير ولا يوجد له احساس يدفعه لحب التعليم ولا يكلفه الوصول لما فيه مرضاة الامة بخلاف ما اذا سلم له النظر فى أمر نفسه وأمور المسلمين على نظر من الخليفة والناس ودفع على الامور ورأى المنشط منها والمكره وسلك فيها بالاستيعاب حتى يفهم المعنى الذى أصبح من أجله أمير المؤمنين كان ذلك من أجل دواعى ترقى نفسه فى مراقى الكمال ووقعت المصلحة في اجتماع الناس عليه واتفاق أهوائهم باتفاق اهل الحل والعقد الذى شأنه أهم عند الشارع من كل شان لما فيه من انتفاء الريب

اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه ويسر لنا ارتباط القلوب واتفاق الاهواء واتحاد النفوس واجعل أشد ما نتواجد عليه ايثار مصلحة المسلمين على كل شيء في كل شيء من أمر دنياهم وآخرتهم



﴿ الرشيد ﴾

هو هرون الرشيد وكنيته أبو جعفر (وكان يكنى أبا موسى) ابن المهدى محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس

تولى الخلافة بعهد من أبيه المهدى عند موت أخيه الهادى ليلة السبت لأربع عشرة بقيت من ربيع الاول سنة سبعين ومائة . هذه الليلة من اعجب الليالى . تولى فيها الرشيد الخلافة . وولد فيها له عبد الله المأمون ومات فيها أخوه الهادى . وليس في ليالى الزمن المعروفة ليلة تمخضت عن موت خليفة وقيام خليفة وولادة خليفة غيرها . فان كان ثم تفسير طابق معنى قول القائل

اللیالی من الزمان حبالی مثقلات یلدن کل عجیبه

فهذه الليلة من تلك الليالى

أسند الصولى عن يعقوب بن جعفر . قال رأى الرشيد فى نومه النبى صلى الله عليه وسلم فى سنة تسع وستين فقال له ان هذا الامر صائر اليك فاغز . وحج ووسع على أهل الحرمين . فقام غازيا أطراف الروم وغنم وانصرف فى شعبان فحج بالناس فى الموسم وفرق على أهل الحرمين مالا كثيرا وصدق الله الرؤيا وتولى الخلافة فى السنة التى بعدها وفيها ولد له الامين

كانت ولادة الرشيد بالرى فى أواخر ذى الحجة سنة خمس واربعين ومائة وكان مولد الفضل بن يحيى البرمكى قبله بسبعة أيام فأرضعت أم ابن يحيى الرشيد وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد . وكان أبوه المهدى فى تلك الايام وما بعدها أميرا على الرى وخراسان من قبل المنصور كما قدمنا فى ترجمتيهما

هذا هو الخليفة الذى مثل معنى الخلافة ومقامها فى عدلها وحلمها وانصافها واقامة عماد دولتها واظهار شأنها وحماية ناموسها وحاطها بانواع الاسباب التى تدفع عنها المكاره . هو الذى مثل البذخ والترف والمجد والشرف والابهة والعز والعظمة والسوددو النعيم المقيم الذى جمع دواعى اللذائذ الدنيوية والفوائد الاخروية وهو الذى اجتمع له فى خلافته مالم يجتمع لغيره وزراؤه البرامكه وقاضيه أبو يوسف وشاعره مروان بن أبى حفصة ونديمه العباس بن محمد عم أبيه وحاجبه الفضل أنبه الناس وأفطنهم وأعظمهم فهو كما قيل

ان المكارم والمعروف أودية　　أحله الله منها حيث تجتمع .

كان أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا وكان كثير الغزو والحج يغزو سنة ويحج سنة فاذا حج حج معه مائة من الفقهاء وابنائهم واذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الطاهرة . قال الشاعر :

فمن يطلب لقاءك أو يرده　　فبى الحرمين أو أقصى الثغور

ففي أرض العدو على طمرّ　　وفى البلد المحرم فوق كور

كان مفرداً فى تعظيم حرمات الاسلام والمبالغة فى احترام العلماء والوعاظ محباً للعلم واهله مبغضا الرياء في الدين والمعارضة في النص

كان الرشيد ابيض طويلا جميلا مليحا فصيحاً له النظر النافذ فى العلم والادب كثير الصلاة يصلى كل يوم مائة ركعة لايتركها الا لعلة وله صدقات من صلب ماله تزيد عن الف درهم فى كل يوم . وكان له تواضع فى شرفه أشرف من الشرف . فمن أحسنه (وما أحسن شىء كله حسن) ما حدث به أبو معاوية الضرير . قال أكلت مع الرشيد ثم صب على يدى الماء رجل لا أعرفه . فقال الرشيد : تدرى من صب عليك ؟ قلت : لا . قال . أنا

اجلالا للعلم ورعاية لاهله . وقال القاضى الفاضل فى بعض رسائله عند الكلام على رحلة السلطان صلاح الدين لطلب العلم (ما أعلم ان لملك رحلة قط في طلب العلم الا الرشيد فانه رحل بولديه الامين والمأمون لسماع الموطأ على سيدنا مالك رحمه الله ثم رحل لسماعه أيضا مقتديا به هذا السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الى الاسكندرية فسمعه على بن طاهر بن عوف ولا يعلم غيرهما أحد) وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد في (خزانة المصريين)

كان مولعاً باحترام العلماء فمن فضائله فيه انه لما بلغه موت ابن المبارك جلس للعزاء فيه عن أهله وأمر الاعيان والامراء أن يعزوه

كان بكاء على نفسه يشفق من إسرافه وذنوبه سيما اذا وعظ . ولم ير أغزر دمعا منه عند الذكر . ولم يذكر له النبى إلا قال . صلى الله على سيدى

دخل عليه ابن السماك يوما وكان يعظه فاستسقي الرشيد فأتى له بماء فقال له ابن السماك على رسلك ياأمير المؤمنين لو منعت هذه الشربة بكم تشتريها ! قال بنصف ملكى قال اشرب هنأك الله بها . فلما شربها قال أسالك لو منعت خروجها بماذا كنت تشترى خروجها، قال بملكى قال ان ملكا قيمته (كذا) و(كذا) لجدير أن لاينافس فيه فبكى الرشيد . وقال يوما لشيبان عظنى : قال لئن تصحب من يخوفك حتى يدركك الامن خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتي يدركك الخوف . فقال الرشيد : فسر لى هذا قال : من يقول لك انك مسؤل عن الرعية فاتق الله أنصح لك ممن يقول أنتم أهل بيت مغفور لكم وأنتم قرابة نبيكم صلى الله عليه وسلم

كان كأنه جده المنصور هيبة وصلابة في الملك وجبروتا وشدة مع الحق كثير الكراهة للباطل متتبعاً للزنادقة طالباً لهم وكان القول بخلق

القرآن شائما فى عهده فما يظفر بأحد من أهل هذه الآراء حتى يقتص منه أشد القصاص

كان شديد الاقتفاء لاعمال جده متطلباً للعمل بآثاره ومحاكاته في اعماله وصيانة سرير ملكه وحفظ أبهته وزيه فلم يختلف عنه في شيء الا في البذل والنوال لانه لم ير خليفة بذل ما بذله الرشيد فى العطايا من مال وخلع فكانت صلته تصل ما بين الانسان وبين الغنى وتقطع ما بينه وبين الفقر والاحتياج .

ولى الخلافة بعد ماتنقل في مهام أمورها فقد استعمله أبوه المهدى فى الاعمال وريضه عليها فجهزه مراراً للغزو بالصائفة والايغال فى بلاد الروم وفى سنة ثلاث وستين ومائة ولاه المغرب كله وأزربيجان وأرمينية وجعل كاتبه ثابت بن موسى وعلى رسائله يحيي بن خالد فنشأ خير نشء وظهر بخير مظهر

كان في غرضه أن يوصل مابين بحر الروم وبحر القلزم مما يلى الفرما (أى أن يفتح ترعة السويس) فشاوره وزيره يحيي وفكرا طويلا فانكشف لهما تغول الروم خوفا من دخولهم بمراكبهم فى القلزم وقربهم من الاراضى المقدسة فنزعا عن هذا الفكر

هذه نتائج خواطر وزراء الخير الذين يدركون قوة حكومتهم فلا يتورطون فى أمور لاقبل لهم بها ولا يغررون بأنفسهم لانهم يعلمون معنى المسؤلية التى تحيط بمركزهم فلا يقدمون على شيء الا ولهم منه مخرج ولو كان للناس وزير كيحيي لخفف من هذا البلاء النازل أو حده أو تلطف فلطف من قضائه المبرم وعاق امتداد الايدى الاجنبية عن العبث فى هذه النواحي بدعوى الاستعمار الذي جاز حده البحار والقفار

ازدهى عصره بين الاعصار بوجود كثير من العلماء الاعلام فيه كالامام سيدنا مالك بن أنس . والليث بن سعد. والكسائى وأسد الكوفى ومحمد بن الحسن من كبار أصحاب أبى حنيفة وصعصعة بن سلام عالم الاندلس وغيرهم ، وهذا أيضا من سعة رزق خلافته وارادة الله سبحانه وتعالى له الخير ببطانة الخير والفلاح والنجاح الذين يتأسى بهم فى كل صلاح

نقل شيئا كثيرا من عوائد الفرس منها الكرة والصولجان ورمى النشاب فى البرجاس والشطرنج ، وجعل لكل شىء قاعدة ومرتبة حتى المغنين فانه أول من جعل لهم مراتب وطبقات يعرفون بها

كانت بغداد في عصره نادرة الدنيا ونكتة المدائن، فريدة فى حضارتها وعمارتها ترقت فيها أسباب المدنية لدرجة لم ير مثلها كما قدمنا ذلك (في النبذة التاريخية) فأيامها أعياد ، ولياليها أعراس ، وسلطانه الممتد سياجه عليها قد عظم من قدرها ونبه من ذكرها وهو بما أسبغه عليها من ظله الظليل وما منحها من العدل والمساواة . دعا الناس بلسان الامن والامان الى المبادرة اليها بالمتاجر والعروض فتناهوا فى الطلب والاقدام على العمل بعلو الهمة وجلس للناس في منصة عدله وعمهم برحمته فشمل القوى والضعيف والعاجز والعليل وذوى الحاجات ومن لا وسيلة لهم فأزاح عن جميعهم العلل وأبطل الاهواء وحجز بتدبيره عنهم كل آفة تؤدى للتقاعس والتقاعد والدمار والخراب

أما غزوه وفتحه ، وحجه ، وفديته ، فكثير ، منه انه في سنة واحد وسبعين ومائة حارب الصحصح الخارجى بالجزيرة وقتله ؛ وفي سنة ثلاث وسبعين ومائة غزا الصائفة وحج بالناس وأحرم من بغداد . وفى سنة اربع وسبعين حج بالناس وقسم مالا كثيرا ، وفي سنة ست وسبعين ومائة عقد لابنه

محمد ولاية العهد ولقبه (الامين) وأخذ له البيعة وعمره خمس سنين .ثم فتح فى سنة ست وسبعين ومائة (مدينة دلسه)على يد الامير عبدالرحمن ابن عبدالملك بن صالح العباسى وفي سنة واحد وثمانين ومائة غزا الرشيد أرض الروم فافتتح حصن الصفصاف وغزا عبـد الملك بن صالح أرض الروم وبلغ انقره

ثم دخلت سنة اثنين وثمانين ومائة وفيها زلقت قدم الرشيد بيد القضاء والقدر وبايع لعبد الله ولده بولاية العهد بعد الامين وولاه خراسان ومايتصل بها ولقبه (المأمون) وسلمه الى جعفر بن يحي(وهذا العمل منه يعد من أعجب العجب بعد ما جرب عواقبه فى نفسه ورأى ما صنعه أبوه وجده بعيسى بن موسى حتى خلع نفسه من ولاية العهد وبعد ما صنعه أخوه الهادى معه لخلعه من العهد وتولية ابنه جعفر ولولم يعاجله الموت لفعل) ولكن نفذ قدر وضاع حذر

ثم حج الرشيد بالناس بعدها فى سنة خمس وثمانين ومائة وسار الى مكة من الانبار وبدأ بالمدينة فأعطى فيها ثلاث أعطية . عطاؤه وعطاء الامين وعطاء المأمون . ثم سار الى مكة فاعطى أهلها أيضا . وولى الامين العراق والشام الى آخر المغرب . والمأمون همذان الى آخر المشرق . وبايع ابنه (القاسم) بولاية العهد بعد المأمون ولقبه (المؤتمن)وضم اليه الجزيرة والثغور والعواصم وكتب كتابين بالاشهادوعلقهما فى الكعبة فقال الناس قد القى بينهم شراً وحربا وخافوا العاقبة وكان ماخافوه

وفى سنة سبع وثمانين ومائة نقض ملك الروم الهدنة التى كانت بين المسلمين وبين الملكة (زينى) ملكة الروم فكتب للرشيد كتابا يقول فيه :

«أما بعد فان الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت اليك من أموالها احمالا لضعف النساء وحمقهن فاذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها والا فالسيف بيني وبينك » فلما قرأ الرشيد كتابه كتب اليه : » قد قرأت كتابك والجواب ما ترى لا ما تسمع» وسار ليومه ولم يزل حتى نازله وفتح مدينة هرقل بالغزوة المشهورة ولم يتزحزح حتى بلغ مراده منه

وفي هذه السنة كانت تمت للبرامكة مشاركتهم للرشيد في سلطانه وعظم في نظر الناس مالهم من الآثار وبعد الصيت وكثر ما اختصوا به وعمروه من مراتب الدولة وخططها وما احتازوه عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة . وسيف وقلم . واقتصرت عليهم الآمال وتخطت اليهم من أقصى التخوم والممالك هدايا الملوك وتحف الامراء واستجار بهم العاني والمعدم والمذنب فأجاروه فأهاجوا بذلك كامن الغيرة وسلطوا عليهم بأس الانتقام ومكنوا منهم جماعة الحساد (والدهر حرب « للمقام » العالى) ونعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال

وقعت لهم النكبة المشهورة التى لهم فيها بمن قبلهم اسوة ولمن بعدهم عبرة .كانت دليلا جديداً على ان الدنيا دول والمال عارية نكبة أمسكت لسان المادح وقطعت لسان الحاسد . وبكاها الولى والمولى والعدو والجاحد. نكبة استراحت بعدها الوراد من قطع الفدافد سعياً . وأقسم الجود أنه لا يحيي بعد يحيى ، « ان فى ذلك لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »

ثم فادى الرشيد في سنة تسع وثمانين ومائة ملك الروم حتى لم يبق فى

الأسر مسلم وهو أول فداء كان لبنى العباس وفى سنة تسعين ومائة فتح «هرقلة» وبث جيوشه بأرض الروم وافتتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبه . وافتتح يزيد بن مخلد (قلفونية) وفى سنة ثلاث وتسعين ومائة سار الرشيد نحو خراسان للغزو فوصل طوس فتمرض بها ومات فى ثالث جمادي الآخر سنة ثلاث وتسعين ومائة (رحمه الله) وصلى عليه ابن صالح . مات على أشرف حال يرتجيه القائم على أمة شهيد الغربة شهيد الجهاد فارتفعت روحه الشريفة فى مراتب الشهداء تسبح فى ملكوت الله فى أعلى عليين . ثم أخذ رجاء الخادم البرد والقضيب والخاتم وسار على البريد فى اثنى عشر يوما من « مرو » حتى قدم بغداد فى نصف جمادى الآخرة ودفع ذلك للامين

وقد انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

هذه سيرة هذا الخليفة الخامس من بنى العباس طالت ولم نستوف شطراً من فضائله . والقصاص ومن لا بصيرة لهم من الكتاب ينسبون اليه أشياء فى اللهو واللذات المحظورة الله يعلم أنه برىء منها . وأنى ذلك وهو من العلم والسذاجة واجتناب المذمومات في دينه ودنياه والتخلق بالمحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب بمرتبة تشبه مراتب السلف وحاله فى اجتناب الخمر معلومة لجميع بطانته وأهل مائدته وكفى بتغيره على طبيبه بختيشوع دليلا على ذلك

وكيف يعقل ان الرشيد يواقع محرماً وقرناؤه وجلساؤه مثل الفضيل ابن عياض وابن السماك والعمرى . ومكاتبته سفيان الثورى وبكاؤه من مواعظهم ودعاؤه بمكة فى طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على

أوقات الصلوات وشهود الصبح لاول وقتها

ان الرشيد رحمه الله اجل من أن يرتكب السرف والترف فى ملبسه وزينته وسائر متناولاته لقربه من خشونة البداوة وسذاجة الدين فالله يقتص له وللمكذوب عليهم من أمثاله من القصاص الذين دونوا مادونوا عنهم فرية وكذبا وزوراً وبهتاناً ارضاء لجماعة العجزة الذين لا شغل لهم الا أحاديث النميمة والغيبة وأكل لحم اخوانهم كأنهم أعداء للعلم والدين والسلطان ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم



﴿ المأمون ﴾

هو عبد الله أبو العباس ابن الرشيد بويع له وهو ابن ثمان وعشرين سنة ومات سنة ثماني عشرة ومائتين وعمره ٤٩ سنة واستقل بالامر بعد قتل أخيه الامين سنة ١٩٨ وهو بخراسان واكتنى بأبي جعفر . قال الصولى وكانوا يحبون هذه الكنية لانها كنية المنصور وكان لها في نفوسهم جلالة وتفاؤل بطول عمر من كني بها كالمنصور والرشيد

ولما تأتى الملك للمأمون قال : هذا جسيم . لولا انه عديم . وملك . لولا انه هلك . وسرور . لولا انه غرور . ويوم . لوكان يوثق بما بعده . سمع الحديث من أبيه وعباد بن العوام وأبى معاوية الضرير وغيرهم وأدبه اليزيدي وجمع من الفقهاء والادباء حتى برع فى الفقه والعربية وأيام الناس وعني بالفلسفة وعلوم الاوائل وهو الذى استخرج كتاب اقليدس وأمر بترجمته وتفصيله وهو الذى عقدت في زمانه مجالس المناظرة . خصص لها يوم الثلاثاء من كل اسبوع وترقت العلوم فى عهده وتفشت بين العرب . وهو أول من قاس الدرجة الارضية وعرف مقدارها وأخذ من كل العلوم بقسط وضرب فيها بسهم

وأخرج محمد بن عباد انه لم يحفظ القرآن أحد من الخلفاء الا عثمان بن عفان والمأمون (ولكن فى هذا نظر)

اشتغل بالحديث حتى قالوا ان الرشيد لما حج معه طلب المحدثين فبعث اليهم بالامين والمأمون فحدثوهما مائة حديث ثم قال المأمون أيؤذن لى ان أعيدها من حفظى ؟ قيل نعم فأعادها . وهو أول من استخرج كتب الفلاسفة واليونان من جزيرة قبرص وهو الذى قال « لا نزهة فى الدنيا

ألذ من النظر فى عقول الرجال»

كان المأمول أفضل رجال بنى العباس حزما . وعزما وحلما . وعلما ورأيا . ودهاء وهيبة وشجاعة . وسوددا . وسماحة وله فضائل وسيرة طويلة كلها محاسن

كان أمارا بالعدل فقيه النفس معدوداً من كبار العلماء اجتهد فى رأب الصدوع وسد الفتوق واصلاح ماتشعث من بنيان الدولة ولكن الخلاف بينه وبين الامين أخيه اشتعلت نيرانه وأذكيت تنوره بأيدى بطانة السوء بالسعي والاغراء وزيادة الوحشة ابقاء على انفسهم وحياتهم الشخصية كالفضل ابن الربيع وعيسى بن ماهان والسندي وغيرهم . أفسدوا دم الاخوة حتى رضى الامين بخلع أخيه المأمون وتغيظ المأمون حتى استحل قتل أخيه الامين وكل هذا سببه هذه البطانة التى مازالت تصغر للامين من أمر أخيه وتزين له خلعه حتى رجع الى رأيهم وهم يكذبونه ويغشونه ولا يصدقونه وهكذا بطانة السوء في كل وقت وزمان ليس لها شغل الافساد ذات البين وتغيير قلب التابع والمتبوع خدمة لمصالحهم الشخصية

استدعت هذه المبادىء التى زرعت بذورها بيد الاعداء ان لا تصفو الايام للمأمون كما يحب ويختار لكثرة الخارجين عليه كابن طباطبا العلوى بالكوفة الذى سالت الدماء فى فتنته أنهارا . وابراهيم بن موسى باليمن . وثوار بغداد الذين اشتد أذى فساقهم على الناس حتى قطعوا الطريق وأخذوا النساء والصبيان علانية كأنّ الامين فتح للناس باب الخلاف ونقض العهد وكأنّ المؤمون جرأ الناس على خلعه بخلع أخيه وقتله وعلمهم نكث العهد والبيعة فكان ذلك سببا لكثرة خروج الثوار عليه . كأنّ لله فى ذلك حكمة

عجيبة وسراً في خليقته من يظلم يظلم . حتى لا ينتقض متبوع على تابع ولا تابع على متبوع حفظاً للعهد ورعاية للبيعة واستكمالا لاسلوب نظام الحكومة التى منزلة القائم بها (خليفة الله فى أرضه)

رأى المأمون كثرة الثوار عليه وخروج الكثير بدعوي الخلافة وهم من آل البيت فعمد الى على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر وجعل فيه ولاية عن المسلمين فكان كما قال الشاعر (كلما داويت جرحا سال جرح) . نبض فى بني العباس عرق الخلاف فصعب عليهم الامر وخلعوا المأمون ولولا اتفاق موت على بن موسي الرضى لازدادت هذه الفتن واشتد أمرها وكل هذا نتيجة وجود الدخلاء من غير الملة والامة الذين لا يعنيهم الا شؤونهم الشخصية فى كل وقت

يعجب الانسان من شأن الخلافة العباسية وبدء انحطاطها فى عهد أعظم خلفائها (المأمون) الذى كان فى طاقته وقدرته لعلمه وسعة اطلاعه ان يجمع كلمة المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها ويمنع حبلهم من الاضطراب وأطرافهم من الانتقاض وان يتغلب بحزمه وعزمه على كل هرج وفتنة وتنازع ولكنها آية من آيات الله سبحانه وتعالى ينذر الناس بها ليعلموا قوة الدخلاء فى الفساد وفى تقويض أمر المسلمين ومنع الساسة من تأييد سلطانهم من شدة الفتنة التى يدخلونها عليهم

كان المأمون لعلو همته يحب الوقوف على أحوال رعاياه بنفسه فكان كثير التنقل من اقليم الى آخر فجال فى بلاد الشام وتفرج على آثارها ودخل مصر ورأى عجائب مبانيها (وهو الذي فتح الفتحة الموجودة الآن بالهرم الاكبر)

انتقل المأمون الى بغداد فانقطعت بقدومه الفتن وفر أصحاب الفساد وشرع المأمون فى فعل مايؤثر عنه من جميل الفعال والعناية بالعلوم والمعارف ومعاشرة العلماء والادباء ثم أخذ فى غزو بلاد الروم والثغور وغنم فيها وفتحها سار سنة اثنتى عشرة ومائتين أسد بن الفرات قاضى القروان وهو من أصحاب مالك وهو مصنف (الاسدية) في مذهبه بجيش فى البحر قاصدا جزيرة (صقلية) فلما وصلوها ملكوا كثيرا من سواحلها واستولوا على مدينة (سرقوسه) وافتتحوا عمرانا كثيرة حولها وفى هذه الحادثة ظهرت شدة المسلمين وقوتهم . فانه فى أثناء ذلك وصل أسطول من القسطنطينية فيه جمع كثير وقد حل بالمسلمين وباء شديد ومات اميرهم فرأوا أن يسيروا بمراكبهم فوقف لهم الروم على باب المرسى فلما تضايقوا جمعوا أمرهم وأحرقوا المراكب وعادوا للبلاد فحاصروها واستلموا حصنها وحصنا آخر اسمه (جرجنت) ومدينة (قصريانه) ثم استمرت الغزوات ووصلت مراكب كثيرة من افريقيا فيها المدد للمسلمين وساروا الى ثغر (باليرم) ثم ساروا الى جبل النار والحصون التى في تلك الناحية وهم في كل ذلك غانمون

وحج المأمون بالناس سنين عديدة

ثم دخلت سنة خمسة عشر ومائتين فسار المأمون الى بلاد الروم من طريق انطاكيا وافتتح حصن (قرة) عنوة ونحوا من ثلاثين حصنا أخرى

وكان المأمون كريما ينفق انفاق من لا يخاف الفقر وحسبك انه لما ابتنى (بوران) كانت عطياته رقاعا فيها أسماء ضياع فكل من سقطت فى يده ورقة أخذ الضيعة المكتوب اسمها فيها

كان غاية فى كل علم : أخرج محمد بن أبى حفص الانماطى قال تغدينا مع المأمون مرة فوضع على المائدة أكثر من ثلاثمائة لون وكلما وضع لون قال هذا نافع لكذا ضار لكذا من كان منكم صاحب دم فليجتنب هذا ومن كان منكم صاحب صفراء فليأكل من هذا وهكذا حتى أتى على فوائد جميع أنواع الطعام ومضارها بالنسبة لاصحاب الامزجة على اختلاف أنواعها

ومن أغرب ما يؤثر عنه فى الذكاء المفرط أن امرأة شكت اليه فقالت ياأمير المؤمنين مات أخي فخلف ستمائة دينار فحكم لى القاضى بدينار واحد . فقال لها المأمون هذا نصيبك . قالت وكيف ذلك ياأمير المؤمنين ؟ قال الرجل خلف ابنتين ووالدة وزوجة واثنى عشر أخا قالت نعم قال فللبنتين الثلثان أربعمائة . وللوالدة السدس مائة وللزوجة الثمن . خمسة وسبعون ولكل أخ ديناران ولك دينار

كان مع جالينوس فى معرفة النجوم ومع هرمز فى الحساب . ومع على بن أبى طالب فى الفقه . فكان يفضل الناس بعقله وكماله ويسود عليهم بأدبه وحسن مجاملته . أخرج الخطيب عن يحي بن أكثم قال بت عند المأمون ليلة فأخذه سعال فأخذ يسد فاه بكم قميصه حتى لا أنتبه . وكان فيه رفق بخدمه وخاصته . قال عبد السلام بن صالح بت عند المأمون ليلة فنام القيم الذى يصلح السراج فطفئ فقام المأمون وأصلحه . وقال الصولى كنا في السفر مع المأمون فكان يتفقدنا في الليل ويغطينا

ومن كلامه: ما أقبح اللجاجة بالسلطان والضجر من القضاة: والسخافة بالفقهاء والبخل بالاغنياء والمزاح بالشيوخ . والكسل بالشباب. والجبن بالمقاتل.

وكان يحب لعب الشطرنج ويقول انه يشحذ الذهن

وكان يقول ما فتق على فى الخلافة فتق إلا وجدت سببه جور العمال (ولقد صدق المأمون فان العمال أيدى الملك وآذانه الذين بهم تدار الامور فى الجهات القاصية البعيدة وتسمع بهم الشكوى فان لم يكونوا متفقين على تقوى الله عاملين بأحسن السير غير غافلين عن أمر الرعية شيئاً نزلت بساحتهم المفاسد وتجردت عليهم الاعداء وذهبوا وذهبت الجهات العاملين عليها من قبضة الحكومة وتولى أمرها غيرهم وفى السودان المصرى عبرة لمعتبر فضلا عن الجزر والاماكن والنواحى والبلاد التى كانت للاسلام وضاعت بهذا السبب)

ومن حكمه قوله : الناس ثلاثة . غذاء لابد منه ودواء يحتاج اليه فى حال المرض . وداء مكروه على كل حال.

وله الخطب البليغة والفقر الغريبة ومن ذلك: أعيت الحيلة فى الامر اذا أقبل ان يدبر واذا أدبر ان يقبل . وكان يقول: معاوية بعمره وعبد الملك ابن مروان بحجاجه وأنا بنفسى. وكان كما قال عنه الرشيد: فيه حزم المنصور ونسك المهدى وعزة الهادى.

ثم دخلت سنة ثمانية عشر ومائتين فمرض فيها المأمون لثلاث عشرة خلت من جمادى الآخرة بعلة الحمى فأمر أن يكتب الى البلاد بالوصية والبيعة لاخيه المعتصم ثم أوصاه وصية لم يفلت منها شيئاً من وجوه الخير فمن بعض ما جاء فيها : « يا أبا اسحق « كنية المعتصم » ادن منى واتعظ بما ترى وخذ بسيرة أخيك واعمل فى الخلافة إذ طوقكها الله عمل المريد له الخائف من عقابه وعذابه » ومنها « خذ من أقويائهم لضعفائهم ولا تحمل عليهم فى شئ وانصف بعضهم من بعض وتأن بهم ولا تعجل » ومنها « يا أبا

اسحق عهد الله وميثاقه وذمة رسوله لتقومن بحق الله فى عباده ولتؤثرن طاعته على معصيته . اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » وهي طويلة ثم مات بالبذندون من أرض الروم ونقل الى طرسوس فدفن بها

قال الثعالبي ولا يعرف أب وابن من الخلفاء أبعد قبراً من الرشيد والمأمون ذاك (بطوس) [1] وهذا (بطرسوس) [2]

راعى المأمون مصلحة السلطان مراعاة من يريد أن يستقيم له الملك مع الاستطالة ونظر للمصالح العامة نظر السائس الذى يريد أن يحمل كل رعيته على الاجماع على الرضى بأحكامه من مسلم وكافر حسبما تقتضيه الشريعة الاسلامية . ويجعل المعاند لها مقراً ومعترفا بأن قوانينها مجتمعة من الاحكام الشرعية والآداب الخلقية والقوانين الاجتماعية الطبيعية بمراعاة ما يلزم من أصول الشوكة والسلطان الملازمين لاحكام الشرع الشريف فهى أرقى من حكم الحكماء وأدب الادباء ووصفيات من فاق ممن فات من أصحاب القوانين والدساتير ولذلك كان من أكبر همه انتقاء الرجال الذين استنابهم عنه فى أعماله كلها

حاشا لله أن نترك خبر هذه الخصلة الشريفة يمر على الاسماع من غير حكاية مفيدة . وشاردة مثبوتة . تنبيء عن فضيلة الوالى والمولى عليه بعد أن يسر الله لنا الكتاب الذى كتبه طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصرفانه كتاب جمع الوصية بجميع ما يحتاج اليه العامل فى عمله بل السلطان فى دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية

---

(١) طوس بلدة باقليم خراسان
(٢) طرسوس بلدة فى آسيا الصغرى

والسياسة الشرعية والملوكية وحثه على مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم بما
لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة . وهذا نص الكتاب

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

« أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لاشريك له وخشيته ومراقبته
عز وجل ومزايلة سخطه واحفظ رعيتك فى الليل والنهار والزم ما ألبسك
الله من العافية بالذكر لمعادك وما انت صائر اليه وموقوف عليه ومسؤل
عنه والعمل فى ذلك كله بما يعصمك الله عز وجل وينجيك يوم القيامة
من عقابه وأليم عذابه

فان الله سبحانه قد أحسن اليك وأوجب الرأفة عليك بمن استرعاك
أمرهم من عباده والزمك العدل فيهم والقيام بحقه وحدوده عليهم والذب
عنهم والدفع عن حريمهم ومنصبهم والحقن لدمائهم والامن لسربهم وادخال
الراحة عليهم ومؤاخذك بما فرض عليك وموقفك عليه وسائلك عنه
ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت ففرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ولا
يشغلك عنه شاغل وانه رأس أمرك وملاك شأنك

وأول مايوفقك الله عليه وليكن اول ماتلزم به نفسك . وتنسب
اليه فعلك : المواظبة على مافرض الله عز وجل عليك من الصلوات الخمس
والجماعة عليها بالناس قبلك وتوابعها على سننها من اسباغ الوضوء لها وافتتاح
ذكر الله عز وجل فيها ورتل في قراءتك وتمكن فى ركوعك وسجودك
وتشهدك ولتصرف فيه رأيك ونيتك واحضض عليه جماعة ممن معك
وتحت يدك وادأب عليها فانها كما قال الله عز وجل تنهى عن الفحشاء والمنكر
ثم أتبع ذلك بالاخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمثابرة على

خلائقة واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده

واذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله عز وجل وتقواه وبلزوم ماأنزل الله عز وجل فى كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه وائتمام ماجاءت به الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قم فيه بالحق لله عز وجل ولاتميلن عن العدل فيما أحببت أوكرهت لقريب من الناس أو لبعيد .

وآثر الفقه وأهله والدين وحملته وكتاب الله عز وجل والعاملين به فان أفضل ما يتزين به المرء الفقه فى الدين والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به الى الله عز وجل فانه الدليل على الخير كله والقائد اليه والآمر به والناهى عن المعاصى والموبقات كلها ومع توفيق الله عز وجل يزداد المرء معرفة واجلالا له ودركا للدرجات العلى فى المعاد مع مافي ظهوره للناس من التوقير لامرك والهيبة لسلطانك والانسة بك والثقة بعدلك

وعليك بالاقتصاد فى الامور كلها فليس شىء ابين نفعا ولا أخص امناً ولا اجمع فضلا منه والقصد داعية الى الرشد والرشد دليل على التوفيق والتوفيق قائد الى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد وكذا في دنياك كلها

ولاتقصر فى طلب الآخرة والاجر والاعمال الصالحة والسنن بالمعروفة ومعالم الرشد والاعانة والاستكثار من البر والسعى له اذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاته ومرافقة أولياء الله فى دار كرامته أما تعلم أن القصد فى شأن الدنيا يورث العز ويمحص من الذنوب وانك لن تحوط نفسك من قائل ولا تنصلح أمورك بأفضل منه فأته واهتد به تتم أمورك وتزيد

مقدرتك ويصلح عامتك وخاصتك وأحسن ظنك بالله عز وجل تستقيم لك رعيتك والتمس الوسيلة اليه فى الامور كلها تستدم به النعمة عليك

ولا تتهمن أحدا من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره فان ايقاع التهم بالبرآء والظنون السيئة بهم آثم ثم . فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم يعينك ذلك على استطاعتهم ورياضتهم ولا تتخذن عدو الله الشيطان في أمرك معمداً فانه انما يكتفي بالقليل من وهنك ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ماينغص لذاذة عيشك واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة وتكتفي به ما أحببت كفايته من أمورك وتدعو به الناس الى محبتك والاستقامة فى الامور كلها ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسئلة والبحث عن أمورك والمباشرة لامور الاولياء وحياطة الرعية والنظر في حوائجهم وحمل مؤوناتهم أيسر عندك مما سوى ذلك فانه أقوم للدين وأحيا للسنة

وأخلص نيتك فى جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسئول عما صنع ومجزى بما أحسن ومؤاخذ بما أساء فان الله عز وجل جعل الدنيا حرزاً وعزاً ورفع من اتبعه وعززه

واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقه الاهدى وأقم حدود الله تعالى فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ولا تعطل ذلك ولا تهاون به ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة فان في تفريطك فى ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك واعتزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتتم لك مروءتك .

واذا عاهدت عهداً فأوف به واذا وعدت الخير فأنجزه واقبل الحسنة وادفع بها واغمض عن عيب كل ذى عيب من رعيتك واشدد لسانك عن قول الكذب والزور وابغض أهل النميمة فان أول فساد أمورك فى عاجلها وآجلها تقريب الكذوب والجرأة على الكذب لان الكذب رأس المآثم والزور والنميمة خاتمتها لان النميمة لا يسلم صاحبها وقائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم له أمر .

واحبب أهل الصلاح والصدق وأعن الاشراف بالحق وأعن الضعفاء وصل الرحم وابتغ بذلك وجه الله تعالى واعزازه أمره والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة

واجتنب سوء الاهواء والجور واصرف عنهما رأيك وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك وانعم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم وبالمعرفة التى تنتهى بك الى سبيل الهدي

واملك نفسك عند الغضب وآثر الحلم والوقار وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله

وإياك أن تقول أنا مسلم أفعل ما أشاء فان ذلك سريع الى نقص الرأي وقلة اليقين لله عز وجل واخلص لله وحده النية فيه واليقين

واعلم ان الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ولن تجد تغير النعمة وحلول النقمة الى أحد أسرع منه الى جهلة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم فى الدولة اذا كفروا نعم الله واحسانه واستطالوا بما أعطاهم الله عز وجل من فضله

ودع عنك شره نفسك ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تدخر وتكنز

البر والتقوي واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد لأمورهم والحفظ لدمائهم والاغاثة لملهوفهم

واعلم أن الاموال اذا ا كتنزت وادخرت فى الخزائن لا تنمو واذا كانت فى صلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف الاذية عنهم نمت وزكت وصلحت به العامة وترتبت به الولاية وطاب به الزمان واعتقد فيه العز والمنفعة فليكن كنز خزائنك تفريق الاموال في عمارة الاسلام وأهله ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم وأوف من ذلك حصصهم وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم فانك اذا فعلت قرت النعمة لك واستوجبت المزيد من الله تعالى وكنت بذلك على جباية أموال رعيتك وخراجك أقدر وكان الجمع لما شملهم من عدلك واحسانك آساس لطاعتك

وطب نفساً بكل ما أردت واجهد نفسك فيما حددت لك في هذا الباب وليعظم حقك فيه وانما يبقى من المال ما أنفق فى سبيل الله وفى سبيل حقه واعرف للشاكرين حقهم وأثبهم عليه وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتتهاون بما يحق عليك فان التهاون يورث التفريط والتفريط يورث البوار

وليكن عملك لله عز وجل وفيه وارج الثواب فان الله سبحانه قد أسبغ عليك فضله .

واعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيراً واحسانا فان الله عز وجل يكتب بقدر شكر الشاكرين واحسان المحسنين . ولا تحقرن ذنباً ولا تمالئن حاسداً ولا ترحمن فاجراً ولا تصلن كفوراً ولا تداهنن عدواً ولا تصدقن نماماً ولا تأمنن عدواً ولا توالين فاسقاً ولا تتبعن غاوياً ولا

تحمدن مرائيا ولا تحقرن انسانا ولا تردن سائلا فقيراً ولا تحسنن باطلا ولا تلاحظن مضحكا ولا تخالفن وعداً ولا تذهبين فخراً ولا تظهرن غضبا ولا تباينن رجاء ولا تمشين مرحا ولا تذكين سفيها ولا تفرطن في طلب الآخرة ولا ترفع للنمام عينا ولا تغمض عن ظالم رهبة منه أو محاباة ولا تطابن ثواب الآخرة في الدنيا

واكثر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ولا تدخلن فى مشورتك أهل الرفه والبخل ولا تسمعن لهم قولا فان ضررهم أكثر من نفعهم

وليس شيء أسرع فسادا لما استقبلت فيه أمر رعيتك من الشح واعلم انك اذا كنت حريصاً كنت كثير الاخذ قليل العطية واذا كنت كذلك لم يستقم أمرك الا قليلا فان رعيتك انما تعتقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عليهم

ووال من صفا لك من أوليائك بالاتصال اليهم وحسن العطية لهم واجتنب الشح واعلم انه أول ما عصى به الانسان ربه وان العاصى بمنزلة الخزى وهو قول الله عز وجل ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون فسهل طريق الجود بالحق

واجعل للمسلمين كلهم فى بيتك حظا ونصيبا وأيقن ان الجود أفضل اعمال العباد فأعده لنفسك خلقاً وارض به عملا ومذهبا وتفقد الجند فى دواوينهم ومكانيهم وادر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم فى معاشهم يذهب الله عز وجل بذلك فاقتهم فيقوى لك أمرهم وتزيد قلوبهم فى طاعتك وأمرك خلوصا وانشراحا

وحسب ذى السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة في عدله وعطيته وانصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته فذلك مكروه أحد البابين باستشعار فضله الباب الآخر ولزوم العمل به تلق ان شاء الله تعالى به نجاحا وصلاحا وفلاحا

واعلم ان القضاء من الله تعالى بالمكان الذي ليس له به شيء من الامور لانه ميزان الله الذى يعدل عليه أحوال الناس فى الارض وباقامة العدل فى القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية وتأمن السبل وينتصف المظلوم وتأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ويؤدى حق الطاعة ويرزق من الله العافية والسلامة ويقيم الدين ويجرى السنن والشرائع فى مجاريها

واشتد فى أمر الله عز وجل وتورع عن النطق وامض لاقامة الحدود واقلل العجلة وابعد عن الضجر والقلق واقنع بالقسم وانتفع بتجربتك وانتبه فى صحتك واسدد في منطقك وانصف الخصم وقف عند الشبهة وابلغ فى الحجة ولا يأخذك فى أحد من رعيتك محاباة ولا مجاملة ولا لومة لائم وتثبت وتأن وراقب وانظر وتفكر وتدبر واعتبر وتواضع لربك وارفق بجميع الرعية وسلط الحق على نفسك ولا تسرعن الى سفك الدماء فان الدما من الله عز وجل بمكان عظيم انتهاكا لها بغير حقها

وانظر هذا الخراج الذى استقامت عليه الرعية وجعله الله للاسلام عزاً ورفعة ولاهله توسعة ومنعة ولعدوه كبتا وغيظاً ولاهل الكفر من معاديهم ذلا وصغارا فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم ولا تدفعن شيأ منه عن شريف لشرفه ولا عن غنى لغناه ولا عن كاتب لك ولا لاحد من خاصتك ولا حاشيتك ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ولا

تكلف أمرا فيه شطط واحمل الناس كلهم على أمر الحق فان ذلك أجمع لالفتهم والزم ارضاء العامة

واعلم انك جعلت بولايتك خازنا وحافظاً وراعياً وانما سمي أهل عملك رعيتك لانك راعيهم وقيمهم تأخذ منهم ماأعطوك من عفوهم ونفقه فى قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم واستعمل عليهم أولى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعفاف ووسع عليهم فى الرزق فان ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند اليك فلا يشغلك عنه شاغل ولا صرفك عنه صارف فانك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الاحدوثة فى عملك واستجررت به المحبة من رعيتك وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات ببلدك وفشت العمارة بناحيتك وظهر الخصب فى كورك وكثر خراجك وتوفرت أموالك وقويت بذلك على ارتباط جندك وارضاء العامة بافاضة العطاء فيهم من نفسك وكنت محمود السياسة مرضى العدل فى ذلك عند عدوك وكنت فى أمورك كلها ذا عدل وآلة وقوة وعدة فتنافس فيها ولا تقدم عليها شيئاً تحمد عاقبة أمرك ان شاء الله تعالى

واجعل فى كل كورة من عملك أميناً يخبرك خبر عمالك ويكتب اليك بسيرهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل فى عمله معايناً لاموره كلها واذا أردت ان تأمرهم بأمر فانظر فى عواقب ما أردت من ذلك فان رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع والصنع فامضه والا فتوقف عنه وراجع أهل البصر والعلم به ثم خذ فيه عدته فانه ربما نظر الرجل فى أمره وقد أتاه على مايهوى فاغواه ذلك وأعجبه فان لم ينظر في عواقبه

أهلكه ونقض عليه أمره فاستعمل الحزم فى كل ماأردت وباشره بعد عون الله عز وجل بالقوة وأكثر من استخارة ربك فى جميع أمورك وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره وأكثر مباشرته بنفسك فان لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت

واعلم ن اليوم اذا مضى ذهب بما فيه فاذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيشغلك ذلك حتى ترضى منه وإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك وتستيقن أمر سلطانك وانظر احرار الناس وذوى الفضل منهم ممن بلوت صفاء طويتهم وشهدت مودتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك فاستخلصهم واحسن اليهم وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة واحتمل مؤنتهم واصلح حالهم حتى لايجدوا لخلتهم مسافراً وافرد نفسك بالنظر فى أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته اليك والمحتقر الذى لا علم له بطلب حقه فسل عنه أخفى مسئلة وكل بأمثاله أهل الصلاح فى رعيتك ومرهم برفع حوائجهم وخلالهم لتنظر فيما يصلح الله به أمرهم وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم واجعل لهم أرزاقا من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين أعزه الله تعالى فى العطف عليهم والصلة لهم ليصلح الله بذلك عيشهم ويرزقك به بركة وزيادة واجر للاضراء من بيت المال وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لاكثره في الجرائد على غيرهم وانصب لمرضى المسلمين دوراً تأويهم وقواما يرفقون بهم وأطباء يعالجون اسقامهم واسعفهم بشهواتهم مالم يؤد ذلك الى سرف فى بيت المال

واعلم ان الناس اذا أعطوا حقوقهم وفضل أمانتهم لم تبرمهم وربما

تبرم المتصفح لامور الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل ذكره وفكره منها ما ينال به مؤونة ومشقة وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الآجل كالذى يستقرى مايقربه الى الله تعالى ويلتمس رحمته . واكثر الاذن للناس عليك وارهم وجهك وسكن حراسك واخفض لهم جناحك واظهر لهم بشرك ولن لهم فى المسئلة والنطق واعطف عليهم بجودك وفضلك واذا اعطيت فاعط بسماحة وطيب نفس والتماس للصنيعة والاجر من غير تكدير ولا امتنان فان العطية على ذلك تجارة مربحة ان شاء الله تعالى

واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى قبلك من أهل السلطان والرياسة فى القرون الخالية والامم البائدة . ثم اعتصم في أحوالك كلها بالله سبحانه وتعالى والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته وباقامة دينه وكتابه واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا الى سخط الله عز وجل واعرف ماتجمع عمالك من الاموال ما ينفقون منها ولاتجمع حراما ولاتنفق اسرافا وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم وليكن هواك اتباع السنن واقامتها وايثار مكارم الاخلاق ومقالتها وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من اذا رأى عيباً لم تمنعه هيبتك من انهاء ذلك اليك فى ستر واعلامك بما فيه من النقص فان أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك لك وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقت لكل رجل منهم فى كل يوم وقتا يدخل فيه بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمالك وأمور الدولة ورعيتك ثم فرغ لما يورد عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك وكرر النظر فيه والتدبير له فما كان موافقا للحق والحزم

فامضه واستخر الله عز وجل فيه وما كان مخالفا لذلك فاصرفه الى المسئلة عنه والتثبت ولا تأمن على رعيتك ولا غيرهم بمعروف تؤتيه اليهم ولا تقبل من أحد الا الوفاء والاستقامة والعون في أمور المسلمين ولا تضمن المعروف الا على ذلك . وتفهم كتابي اليك . وامعن النظر فيه والعمل به واستعن بالله على جميع أمورك واستخره فان الله عز وجل مع الصلاح وأهله وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله عز وجل رضا ولدينه نظاما ولاهله عزاً وتمكينا وللملة والذمة عدلا وصلاحا وأنا أسئل الله عز وجل أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك والسلام »

اذا افتخرت بالابناء الآباء وازدهت المنابر بالخلفاء فالمأمون سيد النجباء ورئيس الحكماء وزين العلم والعلماء ولكن انشقت العائلة الحاكمة على نفسها وتولت هذا الشقاق يد الاعداء فما لبثت هذه الحالة ان استعصى علاجها على الحكماء والامراء والقادة وفتح باب للشر كان مغلقاً وكل هذه الحوادث ضربها الله مثلا للعظة والاعتبار ليأخذ كل قائم منها بنصيب ويضرب فيها بسهم ويتقي الله فى نفسه وفى رعيته ويجعل هذه الحوادث بمنزلة المدارس والواعظ له ليقول الانسان عنها على سبيل التعزية : « ان كانت أساءت قوما فلقد انتفع بها قوم آخرون » فحال الكثير من هذه الحال قريب والعاقل من اعتبر بغيره وقاس يومه على ماضيه . ونظر الى الدنيا وقرأ عظات الدهر فى صفحات أيامه فانها الجريدة الباقية على ممر الازمان التى لا تمحو سطورها يد الحدثان ولا يبليها مر الجديدان

المعتصم بالله

هو أبو اسحق محمد بن الرشيد ولد سنة ثمان وسبعين . كان ذا شجاعة وقوة وهمة وكان يقال له (المثمن) لانه ثامن الخلفاء من بنى العباس . ثامن ولد للعباس . ثامن أولاد الرشيد . وملك سنة ثمان عشرة . واستمر فى ملكه ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام وعاش ثمانياً وأربعين سنة . وفتح ثمانية فتوح . وأسر ثمانية ملوك وخلف ثمانية أولاد وثمانية أناث

كانت قلوب الجنود أشربت الخلاف بما شهدوه من الوقائع بين الامين والمأمون أزمان كانوا يساقون للعصيان لقضاء وطر النفوس الشريرة الخارجة على القائم بالخلافة فتأصلت في النفوس حاجات وفى الطباع خصال لا ينبغى أن تلامس قلب الجنود المطلوب منهم الطاعة والانقياد لاميرهم

بويع للمعتصم فتشعب الجند عليه ونادوا باسم العباس بن المأمون وأخذوا يطرقون الباب الذى دلهم عليه أمراؤهم من قبل فأرسل المعتصم الى العباس وأحضره فبايعه ثم خرج العباس الى الجند وقال لهم قد بايعت عمى فسكتوا وانصرف المعتصم الى بغداد ومعه العباس بن المأمون

قال ابن المقفع : « ان الذى يصول على أعدائه بجيش لا يعلم دواخل صدورهم يكون مثله كمثل راكب الاسد : الناس تراه فتوجل منه وراكب الاسد أشد وجلا » لذلك اضطر المعتصم أن يستخدم نحواً من خمسين ألفا من التركمان مخافة أن توقع به الجنود واتخذ منهم لنفسه حراسا وولاهم محافظة الثغور والحدود فكانوا يزدادون يوما عن يوم حتي كانت القوة بأيديهم في عهد الخلفاء من بعده كما ستقف عليه ان شاء الله

من أجل هذا حكم جماعة من المؤرخين بان الخلافة العباسية انتهت بالمعتصم اذا كان حكم المؤرخين على الدولة العباسية بالانتهاء كان لمجرد استخدامها جنداً غير العرب فبماذا نحكم على أمة من المسلمين رضخت لغيرهم وتمثلت بهم وهم يخالفونها في كل مذهب وزادت بها السماجة حتى أصبحت تعتقد ان التشبه بهم فلاح (ان في ذلك لعبرة لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد)

كان المعتصم طيب الأخلاق سديد الرأى قويا ذا نجدة وهمة . يروى عنه انه بلغه أن نيوفيل ملك الروم خرج وأغار على بلاد الاسلام وان امرأة هاشمية صاحت وهي فى أيدي جنده : « وامعتصماه ! » فأجابها وهو جالس على سرير ملكه « لبيك لبيك !! » وقام من ساعته ناهضاً وجمع من وقته جيشاً لم يماثله فيه أحد عددا وعدداً

وأوقف ما يملكه من الضياع ثلثاً لولده وثلثاً لله تعالى وثلثا لمواليه وقصد مدينة (عموريه) وهي أشرف لدى الروم من القسطنطينية ولم يتعرض لها أحد منذ كان الاسلام فوصلها وجري بين المسلمين والروم عليها قتال شديد

استولى المسلمون على المدينة المذكورة ومنحهم الله النصر العظيم وأراد المعتصم المسير بعد هذا النصر الى القسطنطينية والنزول على خليجها والحيلة فى فتحها براً وبحراً فأتاه ما أزعجه وأزاله عما كان عزم عليه وذلك أن العباس بن المأمون اجتمع عليه بعض أناس وأغروه وبايعوه وانه كاتب طاغية الروم فأعجل المعتصم فى مسيره حتى يدفع عنه هذه الفتنة الداخلية وهكذا أهل السوء تنتهز مثل هذه الاوقات التي يتفرغ فيها القائم لعمل عظيم وتقف أمامه بالفتن والمفاسد وتسد طريق سعادتها الدنيوية والاخروية

فتتخالف في موضع الاتفاق وتتقاتل في ساعة التناصر وتتناهب في أوقات المناصفة. وتدعوها خلال السوء لان تستعد للوثبه عند عدم الحاجة اليها. وهذه الطائفة حائل مانع دون كل الفوائد والرغبات تجنى على نفسها ودينها وملتها جناية لا يغفرها لها رب الدين وخالق العالمين

استكثر من الجند حتى ضاقت بهم بغداد فجدد بناء مدينة (سر من رأى) وتحول اليها وخرجت في زمنه جماعة من الثوار وأصحاب الاقوال والمدعيات فمكنه الله من رقابهم ولم يجتمع لخليفة ما اجتمع للمعتصم من الظفر والنصر

أسر ملك أذربيجان وملك طبارستان. وملك استسيان وملك اشباصح. وملك فرغان. وملك تخارستان. وملك الصفة. وملك كابل. وبلغ ما أراد وزاد عليه بحيث لو كانت هذه الهمة صادفت صفاء من الوقت وحفاظا من النظام وروحا من الطاعة وولعا وعشقا من الامة في تأييد الخلافة ولم تكن الامور معرضة للخطر واستنباط ضروب الخروج على القائم لقضاء حاجة في النفس لكانت هذه المدة من أكبر وسائل السعادة للامة الاسلامية

وقد أسهب جماعة المؤرخين في وصفه وسعة أخلاقه وكريم عشيرته وانه لم يكن أسمح منه بالنفقة في وقت الحرب. وروى عنه أنه تصدق بمائة مليون درهم. ومن مكارم أخلاقه ان انقطعت عنه أصحابه في يوم مطير فبينما هو يسير إذ رأي شيخاً معه حمار عليه حمل شوك وقد زلق الحمار وسقط والشيخ قائم ينتظر من يمر به فيعينه فنزل المعتصم عن دابته وخاص الحمار عن الوحل ورفع عليه حمله وانتظر أصحابه وو كل منهم به من يسير معه

قال اسحق ابن ابراهيم: سألني المعتصم فقال نظرت الى أخي المأمون

وقد اصطنع أربعة فأفلحوا واصطنعت أربعة فلم يفلح أحد منهم فقلت أجيب على أمان من غضبك . قال نعم . قلت له يا أمير المؤمنين نظر أخوك الى الاصول فاستعملها فانجبت واستعمل أمير المؤمنين فروعا فلم تنجب إذ لا أصول لها فقال يا اسحق : لمقاساة مامر بى طول هذه المدة أيسر عليّ من هذا الجواب

(ان عدم التخير فى انتقاء حاشية الخلافة التى تشرف على عموم الامة يتقلب بها الحال فى كل وقت الى أشأم ما يكون لانهم لقربهم من الملك يحلون بجهلهم القطيعة محل التراحم والتخاصم مكان التعاون والحرب موضع السلام ويصبح الاجتماع البشرى بسببهم معرضاً للهلكة لان هذه الطائفة أقرب الناس الى الملك وهي التى تمثل طباعه وأغراضه ولا ينبغي ان يكون فى طباعهم تقصير عن الكمال الواجب لهم)

كان المعتصم يحب العمارة ويقول ان فيها أموراً محمودة . فأولها عمران الارض التى تحيا بها العلم وعليها يزكو الخراج وتكثر الاموال وتعيش الانعام وترخص الاسعار ويكثر الكسب ويتسع المعاش . ولذلك كان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك اذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاء بعد سنة بأحد عشر درهما فلا تؤامرنى فيه . ولذلك كثر فى أيامه العمران واختطت الخطط واقتطعت القطائع والشوارع والدروب وأفرد أهل كل صنعة بسوق وبنى الناس وارتفع البنيان وشيدت الدور والقصور وسائر ما ينتفع به الناس

ثم اختاره الله سبحانه وتعالى للدار الآخرة فقضى في قصره المعروف بالخاقانى يوم الخميس لثمان بقين من شهر ربيع الاول سنة ست وعشرين

ومائتين . وقال عند ما احتضر « ذهبت الحيلة فليس لى حيلة »

وكان للمعتصم كلمات فصيحة وشعر لا بأس به وسيرته هذه اذا لوحظ فيها ماطرأ على مصالح البشر من الفساد وما قذفت به الامة الاسلامية نفسها فى مهاوي الشر من الطيش والنقص تكون خير نذير لما فيها من المنفعة وإشعار القلوب بلزوم الارتباط والاتحاد والتغلب على الشهوات التى تذهب حرمتها وتهدم بناءها وتفقد ما قصد بوضعها

اللهم قنا شر نزغات الاهواء وانزع من نفوسنا حب الغلبة على ما حولنا وصرّف ارادتنا فيما فيه نجاح البلاد والعباد وألهمنا معرفة العارفين وارادة المختارين لتستشعر نفوسنا بالخير الذى هى مسوقة اليه آمين

﴿ المتوكل على الله جعفر ﴾

هو المتوكل على الله جعفر أبو الفضل بن المعتصم بن الرشيد. بويع له فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين

كان المتوكل ذكى الفكرة ذكى الفطرة ظهيراً للسنة يميل لعمل أهلها ونصرتهم والمدافع عنهم فأخذ منذ ملك قياد الامر فى رفع المحنة التى وقعت والبلية التي عظمت وهى محنة القول بخلق القرآن التى استمرت من عهد المأمون الى عهد المتوكل . وانقضت السنين الطويلة والأمة لا تعان على صرف بليتها عنها مع انها على غير طائل وقد أصاب جماعة المسلمين منها ضرر وأى ضرر . وأمر بترك النظر والمباحثة والجدال والترك لما كان عليه الناس أيام المعتصم والواثق وأمر بالتسليم والتقليد

كتب المتوكل الى الآفاق في سنة أربع وثلاثين بترك هذه البدعة واستقدم المحدثين الى سامرا (سر من رأى) للتحديث واظهار السنة والجماعة

وأجزل عطاياهم وأكرمهم وأمرهم بأن يحدثوا بأحاديث الصفات والرؤية وأجلس أبا بكر بن شيبة فى جامع الرصافة فاجتمع اليه نحو من ثلاثين ألف نفس . وأجلس أخاه عثمان في جامع المنصور فاجتمع اليه أيضانحو من ثلاثين ألف نفس وتهلل الناس فرحا وانطلقت الالسنة بالدعاء للمتوكل وبالغوا في الثناء عليه ووافق ذلك اصابة ابن أبى دؤاد (محدث هذه البدعة ومبتدعها)بفالج صيره حجرا ملقى فأزاح الله هذه البلية ورفعهاعن امة نبيه صلى الله عليه وسلم واستراح الناس

أخذت جماعة المؤمنين فى الثناء على المتوكل وتعظيمه حتى قال قائلهم «الخلفاء ثلاثة» (أبو بكر) رضى الله عنه فى قتل أهل الردة (وعمر بن عبد العزيز) فى رد المظالم (والمتوكل)في احياء السنة وإماتة التجهم

اللهم لاسيطرة على خلفاء الاسلام ولكن الانسان يستخذى من نفسه اذا وجد أن عهداً طويلا وزمناً مديداً استوعب خلافة أربعة من الخلفاء ينقضى فى أمر بدعة كان يسع فيها جماعة المسلمين ماوسع النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام والانصراف الى فتح الفتوح والتوجه لما فيه المنفعة استجلابا لحسن السيرة والنظر فى الضوابط السلطانية والامور الحربية بالجمع والتفريق والتبعيد والتقريب والتشتيت والتأليف واستعمال المجربين الذين أمنت خيانتهم وتحققت أمانتهم حتى ينقلوا طبع الامة من الميل الى الاعتدال ويعرفوها صفات الخير والصلاح

ينبغى للامة الاسلامية أن تتعظ بمثل هذه الحوادث فتتجنب كل ما يؤديها للتفرقة ويجرها للتباغض ويجعل سهمها بينها فان شر الافتراق قد جر عليها ما جره من الويل والثبور وأصبحت وقد ضرب بينها بسور

من التخاصم والتباغض ولا حول ولا قوة الا بالله

وفى سنة ثمان وثلاثين حدثت حوادث جوية عظيمة منها خروج رياح بالعراق شديدة السموم أحرقت الزرع ومنعت الناس المعاش . وزلازل فى جهة انطاكية خرت منها الجبال وتقطعت . ووقع من السماء برد فى حجم الحجارة . وغارت عيون الماء بمكة فأرسل المتوكل لاهل البلاد التى دهمتها هذه الحوادث بما تعطف به من الاحسان

وبعث الى بلد الله الحرام بمائة ألف دينار لاجراء الماء من عرفات ليها .

انتهب المتوكل من أيام الخلافة التى كانت ممنوة بالمشاكل أياما اشتغل فيها بالفتوحات ففى خلافته فتح العباس بن الفضل أمير صقلية بها الفتوحات العظيمة واستولى على قصريانة

ولما استولى المسلمون على جزيرة صقلية وافتتح جالية الاندلس اقريطش اغتاظ الروم وجهزوا نحو ثلاثمائة مركب عليها ثلاثة أمراء فاخذت بالجولان فى عرض البحر الابيض المتوسط تنتهز الفرص للايقاع بالمسلمين

من ذلك انهم انتهوا الى مدينة دمياط بمائة مركب وخرجوا على غرة من أهلها وكانت فارغة من الجند فاحرقوا وسبوا وتقدموا حتى وصلوا مصر ثم رجعوا ويقال انه لم يتعرض لهم أحد فى طريقهم

وفى خلافته افتتح (بغا) قائد جنوده مدينة (تفليس) [1] وغزا المسلمون الروم عدة مرات فغنموا وفتحوا وغزا الفضل بن خاقان بالاساطيل فافتتح حصن انطاكية وفى خلافته أغار (البجاة) [2] وامتنعوا من أداء

---

(١) تفليس قاعدة الحكومة المحلية في بلاد القوقاز التابعة لدولة الروسيا الآن

(٢) وهم البشارية الساكنون بالجهة الشرقية من النوبة بين البحر الاحمر والنيل

الخمس على مصر حتى ولى محمد بن عبد الله القمي اسوان وقفط والاقصر واسنا وأرمنت وأمر بحربهم فزحف عليهم فانهزموا واستأمنوا على أداء الخراج كما كان

كانت أيام المتوكل أحسن الايام وأنضرها لحبه فى استقامة الملك وشمول الناس بالامن ورخص السعر وبث العدل وكونه وسطا فى كل شيء : في جوده وإمساكه ومضاحكه وهزله ومجونه وطربه . وكان ولعا بالادب محبا للشعر والشعراء وهو الذى يقول فيه بعضهم

فامسك ندى كفيك عنى ولاتزد فقد خفت أن أطغى وأن أتجبرا

وظهرت في مدته ثياب لباس الملحم وهي فى نهاية الحسن والصبغ وجودة الصنع وعرفت بالثياب المتوكلية . وحدث فى أيامه بناء لم يكن الناس يعرفونه وهو المعروف بالحيري والكمين والاروقة نسبة الى ملوك الحيرة وهو عبارة عن رواق فيه صدر وميمنة وميسرة وخزنة للكسوة وبيت لما يحتاج اليه من شراب وغيره

ولم يعلم بأحد متقدم في صناعته فى جد أو هزل الا وقد حظى في دولته بنصيب وسعد فى أيامه فكانت أيامه مزهرة بكل جميل

كان ولعا بحب أهل الخير والصلاح عاشقا للعلماء حتي انه لما ظهر فى عهده فى مصر (ذو النون) وتكلم فى ترتيب الاحوال ومقامات أهل الولاية وأنكر عليه ذلك عبد الله بن عبد الحكم رئيس مصر وأجل أصحاب ابن أنس رضى الله عنه فى زمانه وقال بأنه أحدث علما لم يتكلم فيه السلف ورماه بالزندقة وبلغ الامر المتوكل أمر باحضاره فاستدناه وسمع كلامه

ويوجد الآن من ذراريهم هناك وفى اسوان ولهم عمل فى حوادث السودان

فولع به وأحبه وادرك منزلته واكرمه وكان يقول : « اذا ذكر الصالحون فحيهلا بذي النون » . وكان متمذهبا بمذهب الشافعي رضى الله عنه . وهو أول خليفة اتخذ مذهبا وكان يقول : « أيها الناس ان محمد بن ادريس المطابي قد صار الى رحمة الله وخلف فيكم عملا حسنا فاتبعوه تهتدوا » اللهم ارحم محمد بن ادريس رحمة واسعة وسهل عليّ حفظ مذهبه وانفعني به »

وكان لا يأنف من الموعظة : من ذلك انه جمع فى داره مجلسا من العلماء وكان فيهم أحمد بن المعدل وغيره فخرج عليهم فقام الناس غير احمد بن المعدل فقال المتوكل لعبيد الله : « ماباله؟ » قال : ان فى بصره سوء . فسمعها أحمد ابن المعدل فقال : ياأمير المؤمنين مافى بصرى سوء ولكن نزهتك من عذاب الله . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من أحب أن تتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار » فسر به المتوكل وجلس الى جانبه ومن كلامه مع يزيد المهلبي : « ان الخلفاء كانت تتصعب على الرعية لتطيعها وأنا ألين لهم ليحبوني ويطيعوني »

كان مدركا خطارة مركز الخلافة والمسؤلية التى تحيط به فكان يذوق منها مرارة العواقب كما يسيغ حلاوة المآرب وكان في أغاب أوقاته مطرقا مفكرا

دخل عليه مرة وزيره الفتح بن خاقان وهو على هذه الحالة فقال له : ما هذا الفكر فوالله ماعلى ظهر الارض أطيب منك عيشاً . قال : « يافتح أطيب مني عيشاً رجل له دار واسعة وزوجة صالحة ومعيشة حاضرة لا يعرفنا فنؤذيه ولا يحتاج الينا فنزدريه »

كان المتوكل يروى الحديث عن أبيه وجده ومات في عهد خلافته

الكثير من خيار الناس والعدد العديد من شرارهم فمن خيار الامة الاعلام ذو النون المصرى وأبو ثور والامام أحمد بن حنبل ودفن بباب حرب فى الجانب الغربى بمدينة السلام . وعبد الملك بن حبيب امام المالكية . وسحنون صاحب التآليف . واسحق بن راهويه . ومن أصحاب الفتن ابن دؤاد صاحب فتنة القول بخلق القرآن وأبو بكر الهذلى العلاف شيخ الاعتزال . وجعفر ابن حرب من كبار المعتزلة فأزال الله بموتهم عن الامة ما كان محيطا بها من الخبال وما اكتنفها من سوء الحال

وأخرج أحمد بن حنبل قال : سهرت في ليلة ثم نمت فرأيت فى نومى كأن رجلا يعرج به الى السماء وقائلا يقول :

مالك يقاد الى مليك عادل　　متفضل بالعفو ليس بجائر

ثم أصبح الصباح فجاء نعى المتوكل من « سر من رأى » الى بغداد وكان له تعلق شديد بالفتح بن خاقان وزيره . ومن أغرب ماوقع ان المتوكل قال للبحترى « قل فى وفى الفتح شعراً فاني أحب أن يحيا معى ولا افقده فيذهب عيشى » . فقال فى هذا المعنى :

كيف أخلفت ياحبيبى وعدى　　وتثاقلت عن وفاء بعهدى
لا أرتني الايام فقدك يا « فتـ　　ـح » ولاعرفتك ما عشت فقدى
أعظم الرزء أن تقدم قبلى　　ومن الرزء أن تؤخر بعدى
حذراً أن تكون إلفاً لغيرى　　إذ تفردت بالهوى فيك وحدى

فقتلا معاً

وأغرب من ذلك ما حدث به البحترى قال : اجتمعنا ذات يوم فى مجلس المتوكل فتذاكرنا السيوف . فقال بعض من حضر : وقع لرجل

من أهل البصرة سيف من الهند ليس له نظير . فامر المتوكل بكتابة كتاب الى عامل البصرة بشرائه مهما بلغ . فنفذت الكتب . قال البحترى وبينما نحن عند المتوكل في ليلة أخرى إذ دخل عليه عبيد الله والسيف معه فسر المتوكل به وانتضاه واستحسنه وجعله تحت ثنى فراشه فلما كان الغداة طلب من الفتح ابن خاقان غلاما يثق بنجدته وشجاعته فجاءه بباغر التركى فدفع اليه السيف وزاد له الرزق ولم تمض الايام حتى قتل المتوكل بذلك السيف من يد باغر المذكور قياماً بغرض المنتصر

كان السبب فى قتل المتوكل ذلك الخطأ الشديد وسوء التصرف فى أمر ولاية العهد ولم يعتبر بما كان من أمر الرشيد في الامين والمأمون فبايع المتوكل بولاية العهد لابنه المنتصر ثم المعتز ثم المؤيد وولى كل واحد منهم قسما من المملكة

ثم بدا له أن يقدم المعتز لمحبته لأمه فسأل المنتصر أن ينزل عن ولاية العهد فأبى فكان يحضره مجالس العام ويحط من منزلته ويتهدده ويشتمه ويتوعده فما زال المنتصر يرتقب الفرص حتى تحقق أن الجيش التركى الذى اتخذه المتوكل انحرف عنه لامور فاتفق معهم على قتل أبيه فدخلوا عليه خمسة وهو في جوف الليل فى مجلس أنسه وقتلوه هو ووزيره الفتح بن خاقان وذلك فى خامس شوال سنة سبع وأربعين ومائتين

وفى ذلك يقول البحترى من قصيدة له

أكان ولى العهد أضمر غدره   فمن عجب أن ولى العهد غادره

فلا ملك الباقى تراث الذى مضى   ولا حملت ذاك الدعاء منابره

ألا انما المطمئن للدنيا مغرور والساكن للدهر جاهل فهى دار لا يدوم

نعيمها ولا يتم سرورها ولا يؤمن محذورها قرنت السراء بالضراء والشدة بالرخاء والنعيم بالبلوي وجعلت خاتمة كل نعيم فيها زواله . عزيزها ذليل وقويها مهين وغنيها محروب وعظيمها مسلوب وليس أتى على صفحات أيامها من عمل مقصود به الخير والبر والاحسان فهى التي تعجز عن أن تأكله بأنياب فنائها ولا يزال يذكر به فاعله وهو على جدة لا يبلى فالله سبحانه وتعالى يوفقنا للعمل النافع الدائم الذى لا تبليه الايام ولا تفنيه الاعوان آمين

﴿ نبذة تاريخية ﴾

قد أتينا فيما سبق من رسائل (حماة الاسلام) بما شاء الله ان نكتب من تراجم خلفاء الدولة العباسية واتصل بنا الكلام لحد ترجمة (الخليفة المتوكل) فخالفنا بذلك أكثر فلاسفة المؤرخين لاعتبارهم تلاشى واضمحلال الدولة العباسية من قبل ذلك أي (بخلافة المعتصم) لانه انحرف عما يوجبه عليه حق الجماعة فجعل كبار قواده وعمال جبايته وحاشية خلافته وجنديته من غير اللب الخالص من صميم العنصر العربى

ولكن لما كان من العدل اظهار الفضل وكان (للمتوكل) رحمه الله حسنات كثيرة من أجلها وقوفه امام فتنة القول بخلق القرآن التى هدت الخلافة العباسية وصرفتها عن كثير من وجوه الخير حتى أبطلها . ثم تصديه لاحياء السنن الشريفة المعطلة واماتة البدع السيئة المنتشرة حتى سمى « أبا بكر الثاني » ختمنا به تراجم تلك الخلافة ليكون خاتمة خيرها ولكى لا تغيب عن الذكر أعماله وفضائله هذه

اضمحلت الخلافة العباسية بالاسباب التى اضمحلت بها الخلافة الاموية من جهة الخروج عن جادة العلم والعدل وزادت عليها عوارض

أخرى أصابتها متتالية فكانت أشد بلاء من تلك الاسباب المتقدمة :منها كثرة المذاهب واضطهاد الائمة والتفرق فى الاعتقاد وظهور أصحاب الدعوات الباطلة كالباطنية والفاطمية والشيعة والمعتزلة والراوندية . وغيرهم ومنها كثرة وجود خلاء الاعاجم الذين فعلوا فى الدولة العباسية مالا يفعله العدو الفاتك بعدوه

ان المستقرىء للحوادث المتتبع لماجريات الاحوال يحكم بأن دخول طائفة الديلم والاعاجم فى خدمة الخلفاء مقصود منه اضمحلال هذه الخلافة بأيديهم

أدخلت هذه الطائفة نفسها في خدمة الخلافة بقصد الانتقام والاخذ بثار الفتوحات الاسلامية التى قامت بها العرب فى بلادها من أول فتح المدائن الى عهد الفتوحات العباسية « والخلفاء غفلت عن ذلك » وهو ما تؤيده الاعمال الوحشية التى وقعت من عامة الجند والاقوال الصريحة التي سمعت من كبار قواده

أظهر هذا وهذا ان في النفوس حزازات قديمة وفى الصدور ضغائن كامنة وان كل أعمالهم أعمال المنتقم لنفسه المضمر التشفى بالعدوان اماتوا المنتصر مسموماً والمستعين بالله مذبوحا . والمعتز بالله معذبا عطشان . والمقتدى بالله مقتولا . والمتقي بالله مسمولا . (١)وهكذا لكل خليفة عندهم قود ودام هذا التجرؤ والعدوان متواصلا منهم على مقام الخلافة وهم يتفننون فى ايصال المكروه اليه وايقاع الاذى به كالخلع والتمثيل والتقتير والتعطيش حتى نمت فيهم القوة وخافتهم الناس اتقاء شرهم وظهر كامن الغيظ من رؤسائهم (والظلم كمين فى النفس القدرة تظهره والضعف يخفيه)

(١) سمل العين فقؤها بحديدة محماة

فسمع من (مرداويج) مقدم الديلم باصفهان الذى مات فى خلافة الراضى سنة عشرين ومائتين يقول « سأرد دولة العجم وأمحق دولة العرب » (رواه السيوطى فى تاريخه المعروف بتاريخ الخلفاء) وقد أعينوا على ذلك بقدر من الله وقضاء سابق فجلوها عن بغداد وفعلوا بآثارها مالا يفعله السوس بالصوف

الدخلاء في كل ملة ودولة موضع تنازع مستمر وظلم من الاحن حالكة وكثيراً ماهدموا قصور السلاطين والامراء من كل أمة . وشر هذه الطبقة لايقف عند حد . وأقرب مذكور منهم من استخدمتهم الدولة العلية « صانها الله » فى خاصة خداماتها من الارمن والبلغاريين وغيرهم من أهل البوسنة والهرسك . ثم ما أحاط بالامة المصرية حتى نزل بها فى هاوية الهلاك

كانت ولا تزال يد الاغراض من كل دولة تدير حركة هؤلاء الاجانب من وراء الحجاب فيتحركون وفق ارادتهم (كاشباح اللاعب) فينشئون سحباً من الاوهام والاباطيل يقذفون بها في عقول الخاصة فضلا عن العامة حتى يتم لهم من الفتنة مايريدون

وصلوا بسوء أفعالهم فى الدولة العباسية الى ان قتل الاخ أخاه ووقعت بين الناس حالة من الوحشة حتى ظنوا بأنفسهم سوأ وخافوا كيد بعضهم بعضا وانها لموعظة تبقى بقاء الدهر تزعج الغافل وترجع بلب الذاهل وتحمل المعتبر بها من أهل السلطان على رعايتها ليستقيم اليه أمر الناس

تخللت الخلافة العباسية شؤون وأمور ذات بال بعضها يذكر للبركة ونيل الاجر باذاعة الفضل وبعضها يذكر حتى يتعظ به المهتدى ولابد لنا من أن نأتى عليها قبل الانتقال الى ذكر (حماة الاسلام) فى الدول الاسلامية

الاخرى لانها لهذه الخلافة تبع: منها تراجم الاربعة الائمة رضوان الله عليهم وماخصهم من الفضل وابتلاهم به من المحن كأبي حنيفة ومالك بن أنس والشافعي وابن حنبل رضى الله عنهم لموافقة أزمانهم لصدر الخلافة العباسية ولانهم زينة تراجم (حماة الاسلام) إذهم بهجة مفاخر الانام ومنها ماحدث فى مصر من التحالف مع سدة الخلافة العباسية فى عهد المعتضد ونزوعها للاستقلال جريا وراء أغراض (أحمد بن طولون) والشقاء الذى نجم عنه فى الدولة العباسية والويل الذى جر هذا العمل على أهل مصر لاتباعهم هواه وسيرهم على وفق خطرات أفكاره بلا ترو ولا تفكر حتى انجلى الامر بصرف وجوه المصريين عن باب الخلافة وأصبحوا العبة دولة الاخشيدية وخلافة الفاطميين التى سنت لهم سننا تعدت ضروب المحال . ومنها دخول القائد جوهر بجيش المعز لدين الله مصر والاسباب التى تقدمت هذا الفتح وسهلته والاحوال التى استكشفها المعز لدين الله فى الامة المصرية قبل أن يدخلها قائده بجيشه فاتحا بما فى ذلك كله من موعظة لمتعظ وعبرة لمعتبر وزجر لمزدجر ثم نأخذ بعد ذلك في سرد تراجم ساداتنا خلفاء الخلافة الاموية فى الاندلس التى ابتدأت بالخليفة عبدالرحمن حفيد هشام الاموى فجمعت أشتات الفضائل ورفعت للعلوم والفنون أعظم منار وكانت زينة الاسلام وفخره وعزه وشرفه والله الموفق

﴿ أبو حنيفة النعمان رضى الله عنه ﴾

هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي . اختلفوا في تاريخ ميلاده اختلافا كثيراً بين سنة احدى وستين وسنة ثمانين

هو أول من حفظ الشريعة بالتلقين وكان على يده انتشار السنة وتمام حاجة العالم الانسانى بها . وهو المفزع لكل ملهوف . والغياث لكل مهموم والمنار الذى به يهتدي المتحير . ويسلك الناس على نوره وضح الطريق

هو أحد أركان العلماء وأحد الائمة الاربعة أصحاب المذاهب المتبعة . أدرك عصر الصحابة ورأى أنس بن مالك وأطبق العلماء على علمه ودينه وورعه وزهده . ووفقه الله تعالى حتى اجتمع ما يقرب من شطر الاسلام على تقريره والاخذ بقوله . عصمه الله عن القول بخلق القرآن والقول بالقدر والقول بالارجاء مع ان هذه الاقوال وغيرها كانت من مقتضى السير الطبيعى للزمن الذى كان فيه وكانت سبب المودة والقربي للخلفاء والامراء ولكن أبى الله ان تسطو على روحانيته نفس انسانية

كان حسن الوجه . ربعة ذا شهامة عظيمة من أحسن الناس منطقاً واحلاهم نغمة وأنبههم حالة . حسن الهيئة . جميل الثياب والبزة . كثير العطر يعرف بطيب الريح قبل أن يقبل . شديد الكرم . حسن المجالس كثير المواساة لاخوانه . وصفه صاحبه أبو يوسف للرشيد إذ سأله عنه فقال : « قال الله تعالى ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » وهو عند لسان كل قائل . كان والله أبو حنيفة شديد الذب عن محارم الله مجانباً أهل الدنيا فى دنياه طويل الصمت دائم الفكر لم يكن مهذاراً ولا ثرثاراً . ان سئل عن مسئلة وكان عنده علم فيها أجاب على ماسمع وبما ثبت عنده ماعلمت

يا أمير المؤمنين رجلا أكثر منه اشتغالا بدينه عن نفسه وعن الناس لا يذكر أحدا الا بخير » فقال هرون : هذه أخلاق الصالحين » وقال الشافعي رضي الله عنه : « ماقامت النساء عن رجل أعقل من أبي حنيفة » وقال جعفر بن الربيع « أقمت عند أبي حنيفة خمس سنين فما رأيت أطول صمتا منه اذا ترك ولا أشد سيلانا منه اذا سئل »

كان لا يفتر لسانه فى خلوته عن تلاوة القرآن وربما أتم فى بياض نهاره ختمة وفي سواد ليلته أخرى وكثيراً ما صلى الفجر والعشاء بوضوء واحد ولم يسمع حالفاً فى عرض حديثه

يروى عنه انه لما أراد طلب العلم جعل يتخير ويسأل عن عواقب العلوم ونتائجها فلم يجد علما يسأل فيه صاحبه ويفتي الناس بما يغنيهم به غير الفقه فلزمه وترك علم الكلام الذى كان مشتغلا به وأتى أبااسماعيل حماد ابن أبي سليمان وهو شيخ وقور حليم لم ير أفقه منه في زمانه وله مناقب كثيرة فلازمه ووجد عنده كلما طلب ومازال حتى كان يجلس فى الحلقة بحذائه واستنابه وأمره أن يجلس مكانه أزمان تغيبه بالبصرة ولم يفارقه حتى مات فكانت صحبتهما ثمان عشرة سنة

أخذ حماد بن سليمان رضى الله عنه العلم عن ابراهيم النخعي وهو أخذه عن علقمة والاسود وهما أخذاه عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم فلما مات ابراهيم النخعى رضى الله عنه وكان مفتى الكوفة جلس أبو حنيفة رضى الله عنه للافتاء بعده باجماع من جماعة المسلمين والتابعين واختلف اليه الناس وكان أكثرهم اختلافا اليه صاحبه أبا يوسف ولم يزل كذلك حتى استحكم أمره واحتاج اليه الامراء

وذكره الخلفاء . جلس للافتاء لينتفع به الناس ويسهل عليهم معرفة حدود الله سبحانه وتعالى ويردهم الى أوامره ويحظر عليهم المحرمات

وذكر فى مسنده مايقرب من مائتى شيخ أخذ عنهم العلم وروي عنهم الحديث وفيهم من التابعين حتي ان بعضهم رتب أسماءهم على حروف الهجاء فلم يخل حرف واحد منها

حدث أبو الحسن بن على الخطيب عن على بن بدر القاضى قال حدثنا هلال بن بدر أبى العلاء عن أبى حنيفة قال لقيت سبعا من الصحابة وسمعت من كل واحد منهم خبراً

كان غاية فى الفراسة والفطنة حتى كاد أن يدرك بها المغيب ونوادره فى ذلك كثيرة جداً

وهو أول من اخترع معرفة عد اللبن والآجر بالتقصيب . فعل ذلك فى عد آجر سور بغداد لما كلفه المنصور بذلك

ومن مكارم أخلاقه انه كان له جار يعمل نهاره أجمع فاذا جن الليل رجع الى منزله وقد حمل لحما فطبخه أو سمكة فشواها ثم لا يزال يشرب ويغرد بصوته

أضاعوني وأى فتى أضاعوا . ليوم كريهة وسداد ثغر

حتى يأخذه النوم وأبو حنيفة يسمع كل يوم جلبته . ثم فقده ليلة وعلم أن العسس أخذه فركب واستأذن على الامير وسأله تخليته فقال له الامير : وكل من أخذ فى تلك الليلة . فلما خرج الفتى قال له أبو حنيفة رضى الله عنه (أأضعناك ؟؟) وناوله مايستعين به على نقصان دخله فى أيام حبسه فكشف الله بهذا الفعل الغمة عن عقل الفتى حتى تاب واختلف الى ابى

حنيفة حتى تفقه

كان مع اشتغاله بالفقه يبعث بالبضائع الى بغداد للتجارة ويجريها مجرى الفضل على اخوانه فيشترى مايحتاجه شيوخه من المحدثين والفقهاء ويعطيه لهم محتسباً ربحه من أثمانها ويقول هذا رزقكم أجراه الله على يدى مثل ذلك ان فقيها احتاج مرة لثوب خز فقال : مالونه ؟ قال كذا . فقال اصبر . ثم استدعاه بعد أيام وقال هذه حاجتك وثمنها درهم . فقال له الفقيه تهزأ بى قال لا والله اشتريت ثوبين بعشرين ديناراً ودرهم بعت احدهما بعشرين ديناراو بقى هذا بدرهم وماكنت لاربح على صديق. فأخذه وشكره

لقد دفع أبو حنيفة رضى الله عنه لمقامات من الحكم تتنافس عليها الناس وتتصنع لها فامتنع عنها طلبا للسلامة فى دينه ومنح العطايا فلم يقبلها ومنعه عفاف النفس وطهارة الذيل

أراد يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراق أن يدخله في (الطراز) أى صدقات بيت المال فأبى . وطلب منه أبو جعفر أن يلى قضاء الكوفة فلم يقبل فضربه بالسياط وسجنه وقيده بأثقل الحديد فلم يقبل وجاءته أمه وقالت له يانعمان ان علما ما أفادك غير الضرب والحبس لحقيق بك أن تنفر عنه . فقال ياأماه لو أردت الدنيا ماضربت ولكن أردت وجه الله وصيانة العلم ولم أعرضه للهلكة

صدق القائل : « الرجال سواء حتى تقع المحن » تحتاج الوقفة التى وقفها أبو حنيفة رضى الله عنه أمام أبى جعفر لعقل كبير يرشده وعزم شديد يؤيده وهداية عظيمة تنبهه حلف عليه أن يلى القضاء فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل . فكرر الخليفة اليمين فثناها ابو حنيفة فقال له الربيع امير المؤمنين

يحاف وأنت تحلف . فقال ان أمير المؤمنين أقدر منى على كفارة ايمانه . فامر بحبسه وما زال فيه حتى مات سنة خمسين ومائة وعمره سبعون سنة وقيل انه توفى في اليوم الذى ولد فيه الشافعى رضى الله عنه . وتولى غسله الحسن ابن عمارة فلما غسله قال رحمك الله يامن لم تفطر ولم تتوسد يمينك بالليل منذ ثلاثين سنة والله لقد أتعبت من بعدك

كثرت الاقوال فى كيفية حبسه وتعذيبه حتي قيل انه كان يخرج فى كل يوم ويضرب فلما تتابع عليه الضرب مرض ومات وقيل انهم ضيقوا عليه الامر حتى فى طعامه وشرابه . ومهما يكن فى هذه الاخبار من المبالغة فان الحبس متفق عليه لتواتر خبره وكفى به عذابا لمثل هذا الامام العظيم « أشدكم بلاء الانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل

هذا الشعور الذى يهىء النفوس لارتقاء درجات الكمال والوصول لاطراف المراتب والغايات فقده كثير من علماء الاسلام فأصبحوا يشترون رضاء الناس بغضب الله تعالى حتى أدى ذلك للسكوت عن النهى وأوجب هذا حدوث البدع والفوضى الدينية وانصرف كل واحد من الناس الى هواه فانحطت رتبة العلم

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظموا

نعم لو حدثوا الناس عن جلاله وشرحوا للعقول ما خفى من شؤونه وبينوا مداخل السعادة الدنيوية والاخروية فيه وجاؤا للناس معبرين بما تحتمله طاقة العقول ولا يبعد عن متناول الافهام لقومت نفوس وكبحت شهوات . ولكن هذا ما أراده الله ولا حول ولا قوة الا به

هذه بعض كلمات من ترجمة هذا الامام وما كان لنا ولا لغيرنا أن

تحصيها وندونها فى مثل هذا القليل ولكن هذه القطرة تدل على مكان ذلك البحر . والغرض التشوف لمثل هذا الكمال ونهوض الهمم لقطع سلاسل التقليد واصلاح النفوس التى غفلت ولهت عن أصول مكارمها التى كان ينبغي أن تفاخر بها الاجيال وتسمو بها فوق كل كمال

﴿ القاضى أبو يوسف رضى الله عنه ﴾

هو يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الانصارى أحد الصحابة رضى الله عنهم . ولد فى سنة ثلاث عشرة ومائة وكان جده ممن أبلى البلاء الحسن فى الوقائع النبوية ومشهد الخندق فرآه النبى صلى الله عليه وسلم يقاتل قتالا شديداً على حداثة سنه فمسح بيده الشريفة على رأسه فبقيت فى الذراري بركتها

مات أبوه وهو صغير فقير لم يكن له ما يطعمه الخبز ويسقيه الماء فاسلمته أمه الى قصار فكان يفر منه ويمر على حلقة درس أبي حنيفة النعمان رضى الله عنه فلما طال ذلك عليها جاءت الى الامام وقالت له ان ولدى هذا صبى يتيم فقير وقد أفسدته على فقال لها « دعيه فسيأكل الفالوذج فى طباق الفيروزج » وناولها مائة درهم وقال اذا فرغت فاعلميني وكان يتعاهدها بعد ذلك كلما تخبر بنفاذ ما عندها ولم يزل أبو يوسف حتي صار رأس الحلقة وانتهت اليه الرئاسة الدينية والدنيوية والامامة فى الفقه والحديث وحفظ التفاسير والسير وأيام العرب

كانت تهمز بأبي يوسف نفسه الى رقى وكمال وسعادة حال وتسمو به

الى مقام رشد بلغه طريق الهدى الالهى الداخل تحت قوله تعالى (انا هديناه السبيل) فقدر بهذا السلوك على تمزيق الحجب وأصبحت روحانيته تتلذذ بالحديث ونفسه البارة تتنقل فى رياض المعرفة كان ذلك من بركة تلك المسحة

نذكره بعد أبى حنيفة رضى الله عنهما لانه فى مقام حسن الختام لبراعة استهلال ترجمة الامام . اذ المذهب الحنفى أخذ عن أبى حنيفة بالتلقين وحفظ عن أبي يوسف بالتدوين . وكما ملأ الامام به الصدور حلى به القاضى السطور فنقله من ضيق النفوس الى سعة الطروس فهو اكليل التاج ومفتاح ذلك الرتاج الذى كمل نمو نبات العلم بتعهده وتكامل علو بنائه الشامخ على يده فهو أول من وضع الكتب فى أصول الفقه وأملى المسائل ودونها وبث علم أبى حنيفة رضى الله عنه فى اقطار الارض ولم يكن في زمنه بين أصحابه ثقة أحفظ لسنة النبى وأوعى لكتاب الله منه

تولى القضاء ببغداد لثلاثة من الخلفاء . المهدي . والهادى . والرشيد على كراهة منه لرقى مقام القضاء وكان يقول ليتنى لم ادخل فى القضية على ان زين دست القضاء كان محبوباً لخلفاء وقته وزمانه . وكان عند الرشيد حظياً مكيناً وهو أول من دعي قاضى القضاة لان الخليفة كان يستنيبه في سائر الاقاليم التى كان يحكم عليها . وهو أول من غير لباس العلماء بهذا الزي وما كان لاحد أن يطمع في رئاسة بلدة فيها أبو يوسف

جمع شروط القضاء وآدابه واحكامه . من صدق اللهجة وعفاف الطعمة وحسن الصمت وكثرة الوقار وعظم الاناة وعزة النفس وكرامة الخلق وقلة الحرج ولطف الطبع ورقة الحجاب وسعة الصدر والصلابة فى الحق

والتواضع لله والثقة في ذاته والايثار فى اقامة الحدود والمساواة بين الخصوم والتثبت في سماع الحجة فلم يتعمد جوراً ولم يحاب خصماوكل احكامه كانت بما يوافق الكتاب والسنة

كان سريع الجواب (ونعم السلاح الناصر الجواب الحاضر) حج مع الرشيد معادلا له فلما دخل مكة صلى «هرون» بالناس الظهر ركعتين فلما سلم قام ابو يوسف وقال يا أهل مكة (أتموا صلاتكم فانا قوم سفر) فقال رجل من فقهاء مكة نحن افقه من أن نعلم فقال له أبو يوسف (لو كنت فقيها ما تكلمت فى صلاتك) فطرب لها «هرون» والحاضرون

ومن اغرب ماسمع عن محفوظه وسعة اطلاعه انه لم يجر على لسانه فى حديثه مع الرشيد أثناء مصاحبته فى سفره هذا شيأ معادا فلم يكرر له خبراً ذكره ولم يعد له حكاية رواها ولا وصل الى مكان الا واخبر الرشيد باسمه ونعته له واستشهد عليه بشيء ان كان ثم ذلك . وناهيك بأمام تخرج على ابى حنيفة رضى الله عنه وسمع من أبى اسحاق الشيبانى . ويحيى بن سعيد الانصارى وتلك الطبقة . وكان أفقه اهل عصره لم يتقدمه فى زمانه أحد يحفظ من المنسوخ عشرين الفاً فما ظنك بالناسخ

«كل ذى نعمة محسود» وما أدراك بنعمة اشتملت على الرئاسة والجلالة والقدرة والسعة فى سطوة الدين والدنيا والارتقاء على دست القضاء ومقام الفتوى الممثل كل منهما للامانة والديانة والفضيلة والداعى للقرب من مقام الخلافة ونفوذ الكلمة وشدة السطوة

أراد الاعداء الحط من هذا المقام العالى فما وجدوا اليه سبيلا فجاؤا ببعض أبواب وصاغوا منها مسائل مجهولة فى الفقه والفتوى خرّجوها على

غير وجهها وتوسعوا فيها بأكثر من حدودها وافتروها عليه وتصنعوا فى روايتها عنه كانهم يستدلون بها على سعة علمه وسمو قوته وقدرته وكانهم من أشد المطرين له المعجبين برأيه فيها وهم فى الحقيقة من ألد اعدائه الذين يسرون له العداوة والبغضاء نشروا ذلك بيد بعض المسلمين الذين تدخل عليهم الحيل ولا تتكشف لهم اوجه المسائل ثم عدوها عليه بعد انتشارها من اشد العيوب وهو برىء منها فما أجدره بقول العربي « زنوه وحدوه »

كانما كان أبو يوسف (استغفر الله) اله لتوجيه الايمان بعد توكيدها فى كل شىء وكانما كانت الخلفاء فى وقته على غير رأى

ذكروا له أشياء كثيرة في مسائل طلاق وزواج وعتق وغيره (تجنبناها) ورووا عنه لطائف تخيرنا منها بعض الشيء : فمن ذلك ما يحكى ان الرشيد خاصم زبيدة فى شىء فأغضبها وأغضبته فحلف عليها بالطلاق ان لا تبيت ليلتها في ولايته ومملكته ثم ندم على ذلك لشدة حبه وفرط غرامه بها فسأل الفقهاء عن وجه الحيلة فعجزوا ثم استدعى القاضى أبا يوسف وسأله هل من حيلة قال نعم قال وما هى قال قل لها يا أمير المؤمنين تبيت فى المسجد لانه لا ولاية لك عليه فان الله تعالى يقول (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) فسر الرشيد بذلك كثيرا

ومما يذكر فى معرض لطائفه أيضا ان الرشيد رأى فى ليلة من الليالى خنفساء تدب على بساطه فأمر بتعذيب الخادم فقال له أبو يوسف ياأمير المؤمنين ان الحيوان بجملته يألف الاضواء والخادم قد تعهد البساط ونحاها عنه ولكنها كلما نحيت تعود فأمر الرشيد ان تحمل وتنحى بعيدا ففعل فعادت ثم أمر ان تحمل وتبعد أكثر من الاول ففعل فعادت فعفا

الرشيد عن الخادم بفضل القاضى

ومن لطائفه أنه كان يحادث من يختلفون اليه في حلقة درسه فجلس اليه مرة رجل وأطال الصمت فقال له ألا تتكلم ؟ فقال له : متى يفطر الصائم ؟ فقال اذا غابت الشمس قال فان لم تغب الى نصف الليل ؟ فضحك أبو يوسف وقال قد أصبت فى صمتك وأخطأنا فى استدعاء نطقك

فى الصمت ستر للغبي وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلما

توفي فى سنة اثنين وثمانين ومائة (فعزى الاسلام بعضه بمضاعوته). ومشى الرشيد في جنازته وصلى عليه ودفنه فى مقبرة أهله فى مقابر قريش بكرخ بغداد بقرب زبيدة ومحمد الامين

وقد أوصى قبل موته بكثير من ماله لاهل العلم بمكة . والمدينة . والكوفة وبغداد واستمرت موارد خيراته ومآثره جارية ما شاء الله أعواما وقرونا

ومما يحسن ايراده زيادة فى شرف الامام أبي حنيفة النعمان رضى الله عنه أن الرشيد دعا أبا يوسف ليلة من الليالى ليسأله فى شىء دق على فهمه دركه فأجابه فيه أحسن جواب واشدة سرور الرشيد بذلك ناوله قطعة من الفالوذج كانت فى صحن من الفيروزج من خاصة متاع الخلفاء فبكى أبو يوسف وانتحب فلما أفاق سأله الرشيد . فأخبر الخبر الذي قدمناه حكاية عن أبى حنيفة رضى الله عنه لام أبي يوسف حين كانت تنهاه عن الحضور فى حلقته وقوله لها (سيأكل الفالوذج فى طباق الفيروزج) فبكى الرشيد

يصح أن يقال عن أبي يوسف انه أول من حفظ علم الفقه عن أبى حنيفة

رضى الله عنهما ورواه فأدى الامانة حقها والسعادة كل السعادة فى اختيار العلم المؤدى للخير الابدى والحياة الطيبة المرضية وهو علم الدين المرتبط به كل علم ينبغي أن تكون سيرته هذه مثالا يحتذيه أهل العلم يتلقونه من أساتذتهم بالكرامة ويؤدونه عنهم بالامانة ويؤثرون لذة المحمدة به والثناء عليهم بسببه عن كل لذة فهنالك تجتمع لهم الهداية مع العلم وتصح النية فتقام الفرائض وتحيا السنة وينصرف الناس من الشك الى اليقين ومن الرياء الى الاخلاص ومن الغش الى النصيحة ومن الرغبة الى الزهد ومن الكبر الى التواضع

مثل هذه الاخلاق الشريفة لا يضيع صاحبها ولا يفتقر كاسبها ولا يخيب طالبها ولا تنحط مراتبها ويصبح المتحلى بها بمنزلة العلم المنصوب على الطريق المسلوك يهدى الناس الى سواء السبيل

أني لنا باصحاب هذه الاخلاق حتى يذهب عنا ببركتها هذا الطيش والاهمال والاغفال واللجاج فى مالا فائدة فيه والعناد فى كل شيء

أى حرية ومدنية تلتمس بأجل وأعظم من الحرية والمدنية الحقة التى تضمنها أدب الدين الذى دعا الناس لعرفان أنفسهم وأنهم مميزون بالعقل والفكر ومشرفون بحرية الارادة فى مايرشدان اليه

حجبت العقول بغرور النظر الى هذا الظاهر فاللهم خلصنا من كل تقليد استعبدنا واقتراب قيدنا وافتح لنا أبواب فضلك التى لم تغلق دون طالب ولا ضاقت أبوابها على راغب واكشف عن عقولنا غمة الوهم وأنعم على أفكارنا بنعمة الفهم وعرفنا مقادير النعمة التى نحن فيها حتى نتعلق بها ونقوم بالشكر عليها

سيدنا مالك بن أنس رضى الله عنه

هو الامام مالك بن أنس رضى الله عنه امام دار الهجرة فى زمانه وفقيهها وأحد الائمة الاربعة الاعلام . اختلفوا فى مولده بين سنى ثلاث وأربع وخمس وتسعين من الهجرة وهو من الطبقة السادسة من أهل المدينة

كان أشقر شديد البياض . ربعة من الرجال كبير الرأس أصلع . وكان لا يخضب شيبه لما صح عنده من ان عليا كان لا يخضب . حسن الهيئة والبزة يكره الثياب الخلقة ويعد ذلك مثلة . وكان نقش خاتمه « حسبنا الله ونعم الوكيل » فسئل في ذلك فقال سمعت الله تعالى يقول عقيب هذه الآية « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل » . وكان مجلسه مجلس وقار وحلم يحوط فيه المستفهم عن الشىء هيبة شديدة

كان لا يحدث الا وهو متوضىء ولا يركب فى المدينة مع ضعفه وكبر سنه احتراما لبلد فيها جثة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان لا ينقطع عن المسجد وتشييع الجنائز وعيادة المرضى وقضاء الحقوق . فلما كبر انقطع عن ذلك كله واحتمل له الناس ذلك

كان كامل النفس لا يزداد مع الخلفاء عن الادب الذى يوجبه عليه الدين

قدم المهدى المدينة فبعث اليه بألفى دينار فقبلها ثم وجه اليه الربيع يطلب منه ملازمته الى مدينة السلام فقال له قل لامير المؤمنين المال عندي على حاله . وكان يدخل على أبى جعفر . وكانت وجوه بنى هاشم تقبل يده ورزقه الله العافية من ذلك

وكان شديد الحرص أمينا على العلم . قال جريران أبا جعفر المنصور عزم على ان يحمل الناس على « موطئه » فقال له لا تفعل يا أمير المؤمنين

فان الناس قد سبقت اليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات وأخذ كل قوم بما سبق لهم وعملوا به ودانوا وقد أصبح ردهم عما اعتقدوه شديدا. فدع الناس وما هم عليه

(لو أن فقيها من فقهاء هذه الازمنة أقبل عليه أحد أعوان أولى الامر وأشار عليه بحمل الناس على ماقاله لعدّ ذلك فخراً وعزا وسطا على عموم الناس بهذا القول. وذلك لانه يرى مصلحة نفسه لا مصلحة الدين ويقدم منفعته على جميع أنواع المنافع)

روى عن غير واحد من التابعين وأخذ القراءة عرضاً عن نافع وهو أثبت أصحابه. وروى عنه وحدث خلق كثير من الائمة منهم سفيان الثوري. وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك. والاوزاعي. وابن مهدى. وابن جرير. والليث بن سعد والشافعى والزهرى. ويحيي ابن سعيد الانصارى وغيرهم. وكان يقول: «العلم دين فانظروا عن من تأخذون دينكم» وكان يقول لا يؤخذ العلم عن أربعة: سفيه يتجاوز الحد وصاحب هوي يدعو الى بدعته. وكذاب يهون عليه تبديل حديث الناس وشيخ لا يعرف ما يحمل وكان يقول: ما أفتيت حتى شهد لى سبعون ولو نهونى لانتهيت. ومن قوله: ليس العلم بكثرة الرواية ولكن نور يضعه الله تعالى فى القلب

قال يحيي بن معين: كان مالك من حجج الله تعالى على خلقه اماما لا يبلغ الحديث الا صحيحاً ولا يحدث الا عن ثقاة الناس. وعن الشافعى رضى الله عنه «اذا جاءك الحديث عن مالك فشد به يديك» ولا غرابة في ذلك فقد قال عبد الله بن وهب «لولا انى أدركت مالكا والليث بن سعد

لضللت » وهو أحد الائمة الاربعة فى الامصار الاربعة : سفيان الثورى بالكوفة . ومالك بالحجاز . والاوزاعى بالشام وحماد بن زيد بالبصرة

ومن فضائله ما رواه الترمذى من حديث سفيان بن عيينة عن جرير عن أبى الزبير عن أبى صالح عن ابى هريرة رضى الله عنهم : « يوشك أن تضرب الناس ا كباد الابل فلا يجدون احدا اعلم من عالم المدينة »

كان شديد الكراهة للغيبة . ومن قوله فيها : « كان عندنا بالمدينة قوم لاعيوب لهم فتكلموا في عيوب الناس فصارت لهم عيوب وكان عندنا قوم لهم عيوب فسكتوا عن عيوب الناس فنسيت عيوبهم »

جاء مستقبل الزمان مصدقا للخبر الصحيح النبوى الذى لا ينطق عن الهوى فكان سيدنا الامام مالك رضى الله عنه امام زمانه

ارتقت امانة العلم عنده لدرجة لاتقوى عليها نفوس الكافة فنزل منزلا لم يخرج عنه حتى خرج من الدنيا . جاءه رجل ليستفتيه فى مسئلة فقال له « لاأحسنها » فقال له « قد ضربت اليك من كذا وكذا لاسألك عن هذا وتقول لى لا أحسنها . ماذا أقول لاهلى قال له قل لهم « سألت مالكا فقال لى لاأحسنها »

امتحنه الله سبحانه وتعالى على مقدار مبلغ استطاعته ومكانته وأمانته فاستدعاه الخليفة واستفتاه فى أمر فافتاه بما لم يوافق هواه وغرضه فأمر بضربه فضرب ومدت يده حتي خلع كتفه

ما زال الله سبحانه وتعالى يعلى من قدر مالك رضى الله عنه بعد ذلك الضرب حتى أصبح فى رفعة لا يسمو عليها مقام وتجلى عليه مولاه بمظهر العزة حتى كأن تلك السياط حليا تحلى بها وأفضلية سما قدره بها

توفى رضي الله عنه فى المدينة في شهر ربيع سنة تسع وسبعين ومائة ودفن بالبقيع وكان واليها من قبل الرشيد عبد الله بن زينب

ان الناظر فى أمر الدين الاسلامى بعين الحقيقة يجد انه كلما اتسع صاحبه فى وسائله وتفرغ لحكمه وسبر حقائقه اتسع فى حرية الفكر وأصبح متدرعا بدرع الصدق والوفاء والامانة وقبض على زمام الملكات الفاضلة وأصبح وليس له هم الا احترام الحقوق على اختلاف أنواعها ولا يستطيع أن يبيح منها الا ما يحل تناوله فقط ولو أن جميع أهل العلم حاسنوا بعضهم بهذه الخصال ونافسوا معاصريهم بهذه الكمالات وجذبوا الناس الى مذاهبهم وعرفوهم شرف اندراجهم فى هذا النوع وكشفوا لهم عن وجوه الحقائق وطالبوهم باصلاح سرهم كما طالبوهم برعاية اجسادهم وعرفوهم طهارة الباطن كما فرضوا عليهم نظافة الظاهر لقامت كلمة الدين خير قيام وأعتقوا عبيد الغايات والعادات وخلصوا أسراء التقاليد وأصبح الناس على نور من ربهم عظيم

لم يخالف الامام في فتواه مقام الخلافة الا وهو متحقق ان هذا العمل فى رضاء الله سبحانه وتعالى (وان لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) فلو ان كل مسئول امتنع ولم يوافق السائل على هواه لرجع جميع المقترفين لهذا العمل عن عملهم هذا . ولكن عظمة السلطان وصولته انست الناس امر دينهم فاصبحوا يخالفون الشرائع ليؤلفوا قلوبهم ويدخلوا السرور عليهم بتحسين فعلهم فجر هذا الامر الى امور فظيعة سيئة حتى اصبح الدين ملعبة عند بعض الملوك واهانوا الشرائع المرعية والفضائل المحمية وهذا امر قد علم الكثير من المسلمين حاله وقدروا ضرره فكم جلبت الفتاوى من البلايا والرزايا

سواء كان في المسائل السياسة اوالمدنية مما لا حاجة لذكر تفصيله حتي ان احد سلاطين آل عثمان اوصى بدفن الفتاوى التي اصدرتها له علماء وقته تخلصاً من عواقب ما فيها يوم القيامة يوم لا تغنى نفس عن نفس شيئاً والامر يومئذ لله

﴿ محمد بن ادريس الشافعى ﴾

هو محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن هشام بن المطلب بن عبد مناف بن قصى

ولد بالشام سنة خمسين ومائة ثم وصل الى مكة فسكنها وأخذ يتردد بين الحجاز والعراق ثم استوطن مصر واتخذها دار إقامة حتى توفى بها عند بنى الحكم

روى عن الامام مالك بن انس ومسلم بن خالد الزنجي وابن عيينة وابراهيم بن سعد وفضيل بن عياض وعن عمه محمد بن شافع وجماعة غيرهم وروى عنه ابن حنبل والحميدى وابو الطاهر بن البويطي والمزنى ومحمد بن عبد الحكم وجماعة غيرهم

كان حافظاً حفظ الموطأ فى ليال وأخذ العربية من صميم العرب ولزم هذيلا وبقى فيهم مدة يرحل برحلتهم وينزل بنزولهم ثم رجع الى مكة وجعل ينشد الاشعار ويذكر الآداب ويروى الاخبار وأيام العرب فمر به رجل من الزبيديين فقال له «يا أبا عبد الله عزيز علي ان لا يكون مع هذه الفصاحة والذكاء فقه لتسود اهل زمانك به». فقال ومن بقى حى بقصد فقال له. مالك سيد المسلمين. فوقع فى قلبه ذلك وعمد الى الموطأ فحفظه ورحل الى مالك فأخذ عنه الفقه

كان مالك يثنى على فهمه وحفظه ووصله بهدية لما رحل عنه وكان الشافعى يقول : «مالك معلمي واستاذى منه تعلمنا وما أحد أمنّ علىّ من مالك وقد جعلت مالكا حجة بينى وبين الله سبحانه وتعالى»

ظهر مذهبه رضى الله عنه فى مصر وكثر مقلدوه فيها . ثم انتشر بالعراق وخراسان والداغستان وما وراء النهر والبلاد القاصية لا يعرفون حجة بينهم وبين الله سبحانه وتعالى غير الشافعى. قاسموا الحنفية فى الفتوى والتدريس فى جميع الامصار وعظمت مجالس المناظرات بهم ثم أدى ذلك لظهور كتب الخلافيات ووصل الامر الى رجال من أصحاب المظاهر فى المذهبين فكان ماكان من الحرب العوان التى قامت بين أهل المذهبين وعقلاء الامة الاسلامية تتلافى للآن أمرها ولا نعان عليه ولا حول ولا قوة الا بالله

نزل الامام على بني عبد الحكم بمصر فأخذ عنه جماعة من بنى عبد الحكم وابن القاسم وابن المواز وغيرهم ثم انقرض فقه أهل السنة من مصر بظهور دولة الرافضة (الفاطميين) وتداول بها فقه أهل البيت وتلاشى من سواهم الى أن ذهبت دولة العبيديين من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب فرجع اليهم فقه الشافعى وأصحابه من أهل العراق والشام وعاد الى أحسن ما كان ونفق سوقه واشتهر منهم محي الدين النووى وابن الرفعة وتقى الدين بن دقيق العيد وتقى الدين بن السبكى والسراج البلقينى أكبر علماء عصره وغيرهم من أجلة العلماء وأكابر الفضلاء

﴿ ذكر ثناء العلماء عليه بسبقه فى العلم والفضل ﴾

قال محمد بن عبد الحكم لزمت الشافعى فما رأيت أبصر منه بأصول العلم والفقه . كان صاحب سنة وأثر وفضل مع لسان فصيح وعقل رصين صحيح

قال ابن عيينة انه كان أفضل فتيان زمانه وكان اذا جاء ابن عيينة أمر من التفسير والفتيا قال سلوا عنه هذا أى الشافعى . وكان يقول له مسلم بن خالد الزنجي شيخه وهو شاب في مقتبل عمره قد آن لك أن تفتى ياأبا عبد الله . وقال يحيى بن سعيد القطان انى لادعو فى صلاتي للشافعى لما أظهر من القول بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال أحمد ابن حنبل ماأحد يحمل محبرة من أصحاب الحديث الا وللشافعي عليه منة . وقال ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالسته وكان أفقه الناس فى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان الشافعى كالشمس للدنيا والعافية للناس وليس منه عوض .

وقال ابن معين لصالح بن أحمد بن حنبل . مايستحى أبوك يمشي وقد أخذ بركاب الشافعي قال صالح : فقلت ذلك لابى فقال : قل له ان أردت ان تتفقه فخذ بركابه الآخر

كان حجة فى اللغة وآية فى الانساب والاخبار : قال ابن هشام ذاكرته مرة وهو بمصر فى انساب الرجال فقال له الشافعى بعد ساعة : دع هذا فانه لايذهب حفظه عنا ولا عنك ولكن خذ فى انساب النساء فلما أخذ فى ذلك بقى ابن هشام ساكتا . وكان يقول ماظننت ان الله عز وجل خلق خلقاً مثل هذا الانسان

وقال النسائي كان مفرداً فى ثقته وأمانته وقد ألف الخطيب أبو بكر ابن ثابت البغدادى كتاب الحجة بالشافعى واثبته في الصحيح وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : اللهم اهد قريشاً فان عالمها يملأ طباق الارض علما اللهم كما أذقتهم عذابا فاذقهم نوالا فكان وجوده رضى الله عنه مصداق قوله صلى الله عليه وسلم

واتصل به أيام محنته القول بخلق القرآن ومن كلامه «كلام الله ليس بمخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر»

﴿ ذكر بعض حكمه رحمه الله تعالى ﴾

من ولى القضاء ولم يفتقر فهو سارق . من حفظ القرآن نبل قدره ومن تفقه عظمت قيمته ومن حفظ الحديث قويت حجته ومن حفظ العربية والشعر رق طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه العلم . قيل للشافعى كيف أصبحت فقال كيف أصبح من يطلبه ثمان : الله تعالى بالقرآن والنبى صلى الله عليه وسلم بالسنة والحفظة بما ينطق والشيطان بالمعاصى والدهر بصروفه والنفس بشهواتها والعيال بالقوت وملك الموت بقبض روحه

توفى الشافعى فى خلافة المأمون رضى الله عنهما بمصر عند عبدالله بن عبدالحكم واليه أوصى . وذلك ليلة الخميس منسلخ رجب سنة أربع ومائتين ودفنه بنو عبد الحكم في قبورهم وصلى عليه السرى أمير مصر

كان رحمه الله خفيف العارضين أسمر اللون وقد ألف كتاب «الام» وهو من أجل الكتب فى أصول الفقه جمع بين صحة المأخذ وبين متانة العبارة فهو الام الولود حقيقة لكل حقيقة فى علم الفقه ومعرفة الاحكام قال الربيع كنا جلوساً فى حلقة الشافعى بعد موته بيسير فوقف علينا

اعرابى فسلم ثم قال أين قمر هذه الحلقة وشمسها ؛ قلنا توفى . قال رحمه الله وبكى بكاء شديدا ثم قال رحمه الله وغفر له ما كان والله يفتح ببيانه منغلق الحجة . ويسد من خصمه واضح المحجة ويغسل من العار وجوها مسودة . ويوسع بالرأى أبوابا منسدة . ثم انصرف

وهو ثالث الاربعة الائمة الذين تفتخر بهم جماعة المسلمين بممارستهم للكتاب الكريم وتمكن الاستنباط وكمال الفقه وحسن الصناعة وتمام العلم المتفردين بمعرفة أحكام الله سبحانه وتعالى فى المكلفين هداهم الله لخدمة العلم وبهم يهدى الله من يشاء الى الصراط المستقيم

﴿ الامام احمد بن حنبل بن هلال الشيبانى رضى الله عنه ﴾

هو الامام أبوعبد الله أحمد بن محمد بن حنبل المروزى الاصل . خرجت أمه من مرو حاملا فولدته رحمه الله تعالى سنة أربع وستين ومائة في ربيع الاول ببغداد ولم يربه أبوه لانه تركه طفلا نشأ ببغداد فى طلب العلم وخدمته وسافر فى طلب الحديث من شيوخه ورحل الى البلاد وروى عن كثير من كبار العلماء والمحدثين فدخل مكة والمدينة والشام واليمن والكوفة والبصرة والجزيرة وسمع من سفيان بن عيينة وابراهيم بن سعد ويحيى القطان وغيرهم . نشأ عفا مستقيما يخاف الله ويخشاه فلا يتعدى محارمه أبداً روى أبو عبد الله قال : كان أحمد بن حنبل معنا فى الكتاب وكان الخليفة بالرقة ومعه خاصته فيكتبون الكتب الى منازلهم فتبعث النساء الى المعلم ان ابعث لنا بابن حنبل ليكتب جواب كتبهم فكان اذا دخل البيوت لا

يرفع طرفه أبداً حتى كان الناس تعجب من حسن طريقته وأدبه عند ذكره

بدأ فى طلب الحديث وهو ابن ست عشرة سنة ورحل فكتب عن علماء كل بلد وأول من كتب عنه الامام أبو يوسف وكان يقول « أنا أطلب العلم الى أن أدخل القبر » واجتهد كثيراً فى نقل الاحاديث الصحيحة وبلغ مانقله منها مقداراً عظيما جداً فاق حد التصور وأعجب به معاصروه

كان متأدبا غاية الادب متواضعاً غاية التواضع يرى ذلك عليه من غير تصنع ولا محاباة فكان من فرط اجلاله لمشايخه لا يتكلم فى مجالسهم بشىء ويجيب من يسأله فى ذلك بأن الانسان له لسان واحد وأذنان ليسمع أكثر مما يتكلم

كان وحيداً فى عصره فى الاشتغال بالعلم والحفظ . كان يصلى العصر ثم يستند قائما الى أصل منارة مسجده فتحتاط به الناس يسألونه الحديث وهو يجيبهم ويحدثهم عن ظهر قلبه والكل قيام على أرجلهم الى أن تجب صلاة المغرب لا يفرغ ولا ينتهون

لم يتزوج الا بعد الاربعين حتى لا يتشاغل عن العلم بكسب ولا نكاح فبلغ من العلم ما أراد وكان يقول كتبنا الحديث من ست وجوه وسبع وجوه ولم نضبطه . كيف يضبطه من كتبه من وجه واحد

كأن علم الدنيا كان بين عينيه جمع له علم الاولين والآخرين من كل صنف يقول ماشاء ويمسك ماشاء

ومن لطائفه انه سئل عن رجل حلف بالطلاق انه لابد أن يطأ امرأته الليلة فذهب اليها فوجدها حائضاً فقال تطلق امرأته ولا يطؤها لان الله قد أباح الطلاق وحرم وطء الحائض

وكان لا يرى وضع الكتب لمسائله وكلامه • ولو رأى ذلك لكانت له تصانيف كثيرة ولدونت في أسفار ومع ذلك فله المسند صنفه سنة ١٨٠ وهو مائة وعشرون ألف حديث تكلم فيه على الناسخ والمنسوخ والتاريخ والمقدم والمؤخر وفسر جوابات القرآن والمناسك الكبير والصغير حتى قل أن تقع مسئلة الاوله فيها نص فى الفروع والاصول وربما عدمت فى تلك المسئلة نصوص الفقهاء الذين صنفوا وجمعوا

روى عنه جماعة كثيرة منهم البغوى ومسلم والبخارى وابن ابى الدنيا واحمد بن أبي الحوارى وغيرهم . وقد ذكر المؤلفون له مناقب كثيرة جدا تدخل في باب السعى فى طلب العلم والزهد فى المال وذكر محنته وشمائله

كان امام المحدثين فى عصره وكان من أصحاب الامام الشافعي ولم يزل مصاحبا له الى أن ارتحل الشافعي الى مصر : وقال الشافعى خرجت من بغداد وما خلفت بها اتقى ولا أفقه من ابن حنبل

دعى رحمه الله الى القول بخلق القرآن (تلك الفتنة التي أيقظها أحمد بن أبى دؤاد فعمت خيرة الخلق وأصابتهم ببلاياها) فلم يجب عنها بشيء فضرب ضربا مبرحا ثم حبس وعذب بانواع العذاب وهو مصر على الامتناع وكان ذلك فى شهر رمضان سنة عشرين ومائتين

كان حسن الوجه ربعة ولم يكن في آخر عصره مثله فى العلم والورع

توفي ببغداد سنة احدى وأربعين ومائتين ودفن فى مقبرة باب حرب وحضر جنازته من الخلق مالا يحصى واليه ينسب أحد المذاهب الاربعة الاسلامية وتعرف أتباعه بالحنابلة

ومقلدوه قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد واصالته في معاضدة الرواية

والاخبار بعضها لبعض وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث الشريف

وكان كثيراً ما يتمثل بقول الصديق رضي الله عنه اذا مدحه مادح : «اللهم أنت أعلم منى بنفسى وأنا أعلم بنفسى منهم اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون واغفرلى مالا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون »

﴿ نبذة تاريخية ﴾

(ماذا كانت مصر فى هذه الايام أزمان انتقال الدولة من الامويين للعباسيين وأزمان اضمحال الدولة العباسية)

كانت على غير انتظام فى حالها ولا ثبات فى أمرها لانها كانت تقوم وتقعد تبعاً لاهواء الولاة والعمال لعدم وجود التربية القومية فيها وضعف الرأى العام بين بنيها . وكونها فى الوجود في منزلة غريبة من السذاجة التى تلقتها عن الاسلاف . منزلة تبعد عن منازع البداوة بعدها عن مقاصد الديانة . فهى لاأمة تحمي ذمارها بالسيف ولا حضرية تعيش تحت ظل الشريعة أو القانون . وانما العامل الوحيد فيها مقاصد الحكام وهي عندها أعظم من كل ارادة لانها كانت لاتطيق مقاومتها أبداً

كان المصطنعون يتفانون فى تنفيذ ارادة الحكام مهما كانت حتى تذبذبت الامة وانطمس منها مكان نور التفكر والتدبير وأصبحت مسخرة ترضى بالخضوع للمتغلبين عليها من الولاة الذين لايزرعون فيها الاما تنزع اليه طبائعهم . ولا يوصلون اليها من جاه الخلافة وعزها وأدبها وارتقائها

الا بمقدار رقة مستشفيهم . ولذلك لم يصبها من الخيرات فى عهد الدولة الاموية ولا من المنافع العمومية في أزمان الدولة العباسية بمقدار ما كان ينتظر ويظن من خلافة كخلافة الوليد بن عبد الملك المروانى الذى وضع يسراه على الغرب ويمناه على الشرق أو خلافة كخلافة أبي عبد الله المأمون العباسى الذى أحيى معالم العلوم

كانما هى فى جو آخر مخالفة للناس فى العوائد والاحوال مع ماطبعت عليه من السكون والدعة قانعة بما فيها من الثمرات مؤثرة الراحة على المتاعب لاتتعدي مبلغ قوتها وعوائد من قبلها

دخلت عليها سنة ٢٥٦ وفيها أحمد بن طولون عاملا للخلافة العباسية فوسوس له شيطانه حتى نادى بالاستقلال وسطا على الخلافة بسيفها وحارب الخلافة بجيوشه التى جمعها من أهالى مصر وغيرها واستماتوا فى هذه الحرب حتى عجز المعتضد عنه ووقع الصلح بينهما

وقد تسامع الناس بالذي جرى من بعض أهل مصر ومن عاملها فكانت هذه الحادثة من أشأم الحوادث وأقبحها أثراً وموقعاً فى أمر الدين وجماعة المسلمين مزقت الخلافة العباسية كل ممزق وفتحت عليها باب التجزى والتبديد وحذا حذوه العمال فاستقلت جهات بخارى وصارت تدعى (المملكة الشرقية) وجهات افغانستان وهم نحو من ستة ملايين أو ثمانية من سكان الجبال والبوادى جلاد شداد وصارت (المملكة الغزنوية) ثم صارت (الدولة السلجوقية) وتبعهم (سيف الدولة بن حمدان) بالموصل هذا في أسيا واستقل فى أفريقيا بنو الاغاب وهم الذين كان ملكهم من حدود مصر الى حدود الغرب الاقصى واتبعوا مسالك ابن طولون حذوك القذة

بالقذة(١) فأصبحت الخلافة العباسية مشذبة الاطراف مقطوعة الاوصال مفتوح عليها باب لا يسد وكان هذا من اهم انحطاطها واكبر الدواعي التي اطمعت اخصامها فيها

تنزع في بعض الاحايين نفوس بعض الولاة او العمال الشريرة لمثل هذا العمل (الاستقلال) دون أن تكون الامة والبلاد مستعدة لما عساه أن يطرقها من الشدائد من بعده ولا قائمة بما ينبغي لها ان تقوم به من العوائد التي تحفظ كيانها بعد هذا التفرد

الاستقلال هو عبارة عن قيام دولة فان وقع على غير طبيعة الملك تهدم وهلك صاحبه لان المستقل يلزمه أن يكون ظاهرا حتى على ذات الشوكة التي يريد أن يفصم عنها وينادي باستقلاله دونها لذلك تحاماه الكثير من أرباب الامر وأصحاب الملك والسلطان مخافة أن ينقلب الامر فتقع البلاد والعباد في شر غير منتظر . نذكر منهم الامير عبد الرحمن الداخل . والسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب دخل الاول بلاد الاندلس وتناول الملك بقوة شكيمة ومضاء عزم وبعد أن انقاد له الامر سمى نفسه بالامير ولم يدع (بأمير المؤمنين) لا هو ولا أحد من بنيه لحد الثامن تأدبا مع الخلافة بمقر الاسلام ومنتدى العرب

وملك الثاني مصر فاتحاً وخلع العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ثم جدد الدعوة والخطب للعباسيين مع انقطاعها من مصر قروناً وأعواما

كان ذلك الاستقلال لحكومة مصر على غير طبيعة الملك فلم يكسبها الرقي والفلاح والنجاح الذي أصاب غيرها منه. كان الامة لم تستعد له بعد

---

(١) القذة بالضم ريش السهم جمعه قذذ

ولم تختمر فيها مادة المعاونة مع صاحب الملك بالرأى والمفاوضة فيه ومعرفة مهمات القطر العامة والخاصة فتركت البلاد لمباشرة السلطان بغير مشاركة له في أى صنف من أحوال ملكه شأن الكثير من الممالك الاسلامية فلما انصرفت ولاية أحمد بن طولون عنهم تكشفت نفوسهم غير متهيئة لعمل فاستسلموا لمن بعد وهكذا كان أمرهم مع كل طارق ورضخوا لكل حاكم ولو لم يكن بينه وبين الحكومة معنى مطلقاً كالدولة الاخشيدية وكدولة المماليك وأشباه ذلك ثم صاروا ملعبة في يد الفاطميين الذين سنوا لهم سننا تعددت ضروب المحال كما هو معلوم

(يضحك الرجل المجرب اذا كان بعد هذا يرى في بعض الأندية أفواها تتلمظ وأنوفا تشمخ بما يقرب من هذا المثال يغترون بالمرائى والظواهر التى بهرجت بها الاعداء ليقطعوا ألوصلة بالاعيب السياسة وأساليب المكر والدهاء (ومن نكث فانما ينكث على نفسه) . على أن فى التاريخ شواهد محفوظة وأمثال مضروبة تكفى الناظر لو نظر وعلم ماهو فيه من نعمة الارتباط لو قام بتنميته وسعادة الوحدة والائتلاف لو انه يرعاها وانها لو تمت لكانت من أجل النعم واسبغها)

سرى سوء الرأى فى تلك الايام في الامة المصرية حتى عجزت في ذلك الوقت عن اقامة نظامها فى خاصة نفسها ونظام عائلاتها فى ضرورة معاشها ومهنها . فما الظن بها فى سياسة النوع الانسانى وأنى لها بامضاء الاحكام واصلاح السابلة وحمل الناس على مصالحهم وما تعمهم به الفائدة فى المعاش والمعاملات . نزلت مصر فى الاخلاق منزلة يظن الباحث فيها انها محجوبة عن الحق لانها وهنت وسهل ابتلاعها لضعفها عن النظر والتخلق بأدب

الدين وأصبحت مركزاً للقلاقل وتعكير الفكر وتمكنت اغلال الاستعباد فى أعناق أهلها حتى قبلوا المذاهب العديدة التى قامت بها أصحابها فيما بينهم وكانت من أكبر أسباب التفريق

انظر لما حكم به عليها ذلك الفاطمى (المعز لدين الله) على الغيب وهو فى أقصى المغرب من الضعف بسبب الفجور الذى كانت فيه باستطلاع لطيف وهو مفارقة أدب الدين الذى تتفجر منه ينابيع النخوة وتنشأ عنه القوة العاملة

قال المقريزى رحمه الله فى خططه (عند ذكر الخلفاء الفاطميين) ان أم الامراء (والمراد بها أم الخلفاء الفاطميين يعنى والدة المعز) وجهت من المغرب صبية لتباع بمصر مع وكيلها) وكأن ذلك كان على سبيل التحسس لمعرفة أخلاق البلاد والعباد) فعرضها بألف دينار فحضرت اليه فى بعض الايام شابة على حمار وساومته الصبية بستمائة دينار (فاذا هى ابنة الاخشيد سلطان مصر) بلغها خبر هذه الصبية فلما رأتها شغفتها حباً فاشترتها لتستمتع بها فعاد الوكيل الى المعز وأخبره بما وقع فأحضر الشيوخ وأمر الوكيل فقص عليهم خبر ابنة الاخشيد مع الصبية الى آخره فقال المعز انهضوا الى مصر فلن يحول بينكم وبينها شىء فان القوم قد بلغ بهم الترف الى أن صارت امرأة من بنات الملوك تخرج بنفسها وتشترى جارية تتمتع بها وما هذا الا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم . فقالوا السمع والطاعة ونهضوا وكان الفتح . ثم توالت عليها الخلفاء الفاطميون حتى كانت مدة الحاكم فوقع منه مالم يكن لاحد فى حساب

انظر لهذه الحادثة وسلط عليها قوة الفكر وتناولها بسطوة العقل

واستعمل فيها حذق أصحاب الاستنباط والاختبار تعلم وتتحقق انه لا سبب لهذا الاختلال الذى نفث علينا سموم الدسائس وأثار فينا الفتن والوهن ومكن الاراجيف من العقول وفتح مجال الشر وأقام معترك المطامع وجعل البلاد مهبط البلاء إلا مفارقة أدب الدين والذهاب فى أثر التمدن الوضعى المبنى على القواعد الجديدة التى لا رابطة لها ولا وصلة بينها وبين عفة الاديان . وفى هذا ذهاب الغيرة وضعف النهضة الشريفة الانسانية فاذا قيس حاضر على ماض فليعلم ان تمكن الاعداء من البلاد وضعف النفوس عن مقاومتهم لم يكن له سبب الا هذا لان الانسان لايذود غيره عن حوضه بسلاحه الا وهو عالم بشرف مافي ذلك الحوض من مال ونفس وعرض والخالى من الفضيلة والفضل معذور بالهجوم على مالا يعلم والفرار من قرار الكمال حتي يحتجب عن الحق لانه لا يدرى كيف يكون في رقى وصلاح حال ولا الى أي طريق يذهب فاللهم اهدنا سواء السبيل

ألمعنا فى النبذة السياسة التى مضت الى ما كان من حال مصر وما جرى من دخول جوهر القائد بعسكر المعز لدين الله فيها بسبب الاختلال والفجور الذى ألم بأهلها وما كان من تأسيس الخلافة الفاطمية فى هذا القطر

ومهما يكن أمر هذه الخلافة فى نظر كثير من المؤرخين وما تكلموا به من اثبات نسبهم أو نفيه عن أهل البيت كما سيأتى فقد كان لخلفائها من الدولة والسلطان ما قاسموا به بنى العباس في ممالك الاسلام بل كادوا يلحون عليهم مواطنهم ويزايلون من أمرهم واستمرت دولتهم نحواً من مائتين وسبعين سنة فتحوا فيها البلاد واستخدموا العباد واختطوا مثل مدينة القاهرة المدينة الفخيمة التى هي من وضع أول خلفائهم الخليفة (المعز لدين

الله) ولذلك فنحن ذا كروه من بين خلفاء هذه الخلافة الفاطمية لهذه الطلقة ولما اتصف به أيضا من الخلال والخصال الغريبة والحزم والعزم

﴿ المعز لدين الله ﴾

هو المعز لدين الله أبو تميم معد بن المنصور بالله اسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن المهدى أبي محمد عبيد الله العلوى الحسينى ولد بالمهدية من أفريقيا حادى عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلاثمائة

تولى المعز لدين الله الخلافة بالمغرب وكان ممن يهتف باسم مصر والاستيلاء عليها وله رسل تستطلع له خبرها كما قلنا وقد وافق ذلك موت كافور الاخشيدى (صاحب مصر) فاختلفت فيها القلوب ووقع الغلاء وتتابعت الشدائد وحصل الادبار وعجز رجال الدولة عن إدارة الامور واختل حال الاقاليم المصرية وبلغ له تفصيل هذه الاحوال السيئة وهو بأفريقيا من تلك العيون التى كان أذكاها فى طلب خفياتها فسير المعز القائد «جوهر» غلام والده المنصور فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة في جيش كثيف للاستيلاء عليها فلما بلغ من فيها من عسكر الاخشيد أمره واتصل خبر مسيره بهم هربوا عنها جميعهم قبل وصوله فدخلها واستوطن رحابها آمنا مطمئنا واختط القاهرة بقصرها واستقدم العزيز بالله من الغرب فقدمها فى شعبان وأقيمت له الدعوة فى الجامع العتيق في جمادي الاولى سنة تسع وخمسين وأذن فيه (بحى على خير العمل) [1] وجهر فى الصلاة (بيسم الله الرحمن الرحيم) [1]

---

(١) هما من رسوم الشيعة وشعائر مذهبهم

وهو أول ما أذن كذلك بمصر

ابتدأت هذه الدولة (العلوية) بأفريقيا بدعوة أبى محمد عبيد الله أول من ولى منهم نحواً من سنة سبع وتسعين ومائتين ودخلت جيوشها (مصر) سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة . وانقرضت فيها سنة سبع وستين وخمسمائة على يد (صلاح الدين يوسف بن أيوب) فمدة ملكهم مصر مائتا سنة وتسع سنين وقد اتسعت أكناف مملكة هذه الخلافة وأقيمت الدعوة لصاحبها بالمغرب . ومصر والشام . وبعض أعمال العراق وطالت وتطاولت حتى اتصلت بالمواطن المطهرة فملكوا مقام ابراهيم عليه السلام ومصلاه وموطن الرسول صلى الله عليه وسلم ومدفنه وموقف الحجيج ومهبط الملائكة

كان المعز عالما فاضلا جوادا حسن السيرة منصفا للرعية منصتا لطلباتها فلما قدم مصر ساس الامور ودبر الاحوال ولم يأل جهداً في الاصلاح فصلح حال مصر عما كانت عليه وزهت بالقاهرة وازينت بقصره فيها وتجملت بما ترتب فيها من الدواوين والمصالح ومواضع السكني اللائقة بالخلافة وعظمتها

اتسع نطاق العمارة فى ايامه فالقاهرة مقره برجاله وعسكره وعليها سياج من جلال . والفسطاط بعظمته محل تصدير وشحن الارزاق والبضائع الصادرة والواردة ومحل سكني الاعيان وأرباب الثروة ورجال العلوم والصنائع وكلما يلزم ويليق بحال هذه الحضارة والعمران

دخل بلاد مصر سائح عظيم من الفرس يعرف بالناصرى خسرو والف فى سفره رحلة سماها (سفر نامه) يقول فيها انه لوصف ما فى مصر من آثار السعادة والثروة لكذبه الفرس وكيف يصف مدينة قل أن يوجد لما فى عهدها شبيه لها خمسة أبواب كل باب آية فى ضخامته وفخامته وهندامه

يعجز الحاسب في تقويم نظامه . وأغلب البيوت والمنازل شاهقة متقنة الصنعة تشبه القلاع يتوهم الناظر اليها من حسن نظامها انها مبنية بأحجار ثمينة والمساجد والوكائل والحمامات والدكاكين مما يعد بالالوف المؤلفة اه

والذى يرى بعينه الآثار الباقية يصدق تلك الاخبار الماضية والواقف على تنظيم قصر المعز وماكان فيه من الخزائن للجواهر والسلاح والكتب يعلم مقدار ثروة الدولة وقوة هذه الخلافة ونفوذ بصر المعز وشدة ادراكه

كان هذا القصر كعبة فضل يحج اليها القصاد والمعز فيه يأمر وينهى بين مظاهر قوة السيف برجاله وأمرائه ومعالم الفضل بشيوخه وعلمائه

يطول بنا الكلام لو أردنا استقصاء رسوم الملك وأبهة الخلافة ولوازم القصر وملحقاته من الحلى والزينة والامتعة والفرش والثياب والذخائر واحتياجات العسكر البرية والبحرية من سلاح وبنود وخيام وما يتجمل به الخليفة وخواصه وسائر رجاله واتباعه وما ينعم به من النفائس الجليلة والمهمات العظيمة البالغة فى العظم والكثرة حداً لا تبلغه العبارة وخزانة الكتب التى اشتملت بحكايات كثير من المؤرخين (تحاكى قوة الاجماع) على ألف ألف وستمائة ألف كتاب وفيها من غرائب الدهر وعجائب الزمان مالا يحصى. قال المقريزى: دخل هذه المكتبة أحد السواح فرأى فيها مقطعاً من الحرير الازرق غريب الصنعة فيه صورة أقاليم الارض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومساكنها (أشبه بجغرافيا) وجميع المواطن المقدسة مبينة للناظر مكتوبة أسماء طرائقها ومدنها وجبالها وبلادها وأنهارها وبحارها بالذهب وغيرها بالفضة والحرير فقال يكفيني من عجائبك هذا ومن جنس هذه الاعجوبة الخيمة التى فاقت جميع المضارب والخيام المسماة (بالمدورة)

كانت تضرب فى المحافل والرسميات تقام على فرد عمود ودائرتها خمسمائة ذراع وخرقها وحبالها وعدتها تحمل على مائة جمل وقد صور في رفرفها صورة كل حيوان فى الارض . فالقاريء يجرى الغائب من هذه النفائس على ما عرف و يقيسها على ماشهد فيتعرف ما كان عليه القوم من الرفاه

كان هؤلاء الخلفاء ولعين بعمارة المساجد وحسبك الازهر الازهر والمقام الانور والمصلى الاطهر الذى جعله الله مجتلى العلم والتعليم . وخصه بلطفه وكرمه أن يكون موضع الارشاد لسنة نبيه الكريم ودينه القويم هذا المسجد أول مسجد أسس بالقاهرة (لو كان ما اشتمل عليه من المنافع والمرافق حصل لنا بالسماع وهو غير واقع تحت نظر كل واحد منا بالفعل لعددناه أعجوبة الزمان) مأوى العلم والعلماء وموطن الفقه والفقهاء وكل واحد من المشتغلين فيه له ما يكفيه من الرزق الناض على قدره ومقداره والتعليم فيه مباح بأنواعه والاروقة تأوى اليها طلبة العلم الغرباء فلا يلحظه النظر الا وهو معمور بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم كالفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ فالداخل فيه يجد من الانس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجده فى غيره ثم لا تزال عماريته تزداد وشهرته تتعاظم حتى قصدته الناس من الآفاق فترى فيه خلقاً من جميع بلاد الاسلام تقصده لتعلم العلوم الشرعية والعقلية والنقلية من دروسه الدائمة المتصدر لقراءتها جهابذة العلماء والمحدثين ما بين مؤلف ومدرس وفيه الالوف المؤلفة من المجاورين من الطوائف المختلفة كاهل الحجاز واليمن والهند والسند والسودان والجاوه وبغداد والمغرب والشام والاتراك والاكراد وغيرهم من أهل مصر من جنوبها وشمالها فهو أشهر

بقعة بعد المساجد الثلاثة ويالة من مدرسة كبرى وبقعة نافعة يزول بها الجهل ويخلد فيها العلم وتتأدب بواسطتها النفوس وتتسع القرائح وتتنبه الفطن وتروق الافكار وتتعين الآداب وتظهر الاسرار ويكتسب الشرف ويعظم القدر لو كانت تلك الشموس والاقمار التي تشرق في أفقه غير محجوبة بسحب التقليد القديم خارجة عن مداراتها الاولى متأملة الى درجة احياء المعارف والعلوم ورونقها في غير هذه البلاد غير ناظرة اليها نظر المستنكف آخذة من هذا الجديد بما حسن ولطف مما لا يمس عقيدة ولا يخالف ديناً . اذاً لاصبحت رحابه قبلة لكل طالب وكعبة لكل قاصد بل يكاد الانسان يحلف غير حانث ان الازهر وحده كاف لحاجة البلاد بجميع أوجهها فهو مرضعة العلوم وأقرب مورد يمكن أن يستقى بمعارفه القطر ويظهر لكل انسان براعة أهل هذه البلاد ولكن

ما يشا ربك يفعل قادر	جل عن كل مقال واعتراض
قد تجمعنا على غير هدى	وتفرقنا على غير تراض
وتقارضنا شهادات التقى	ثم صرنا لزوال وانقراض
واستعارت صحة أجسامنا	واستعانت بعودات مراض

(عود) كان للمساجد في أيامهم رسوم وأحباس ولها ديوان مفرد وقضاة وعلماء تتفقد حالتها وهم أول من أقام الدرس بعلوم . ثم فى مدة العزيز عمل الوزير بن كلس مجلساً في داره يحضره الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل وكان يقرأ فيه فقه على مذهب الفاطمية

كان لهم التفات غريب لملاحظة أمر المواسم والاعياد على طول السنه ولهم فيها من البر والخير والصدقات والاحسان فى الايام التى يعينونها

والليالى التى يبينونها ثم تطرق الخلل الى سياستهم وكانما كان ذلك لتعمقهم فى الرافضية أو لالحاد بعضهم (كالحاكم) فدفع ذلك فى دعوتهم وجاء الطعن فى منتسبهم متمما لذلك فتغيرت تلك الاحوال بالحوادث التى توالت فى أيامهم الاخيرة تارة بالصلاح وتارة بالفساد الى أن ألحت الحوادث وتوالت المحن فتغيرت تلك الوجوه الحسان وأزالت معالم الحسن والاحسان وبدلت رونقها من الجمال واعتاضت عنها بالاطلال والتلال . ومن يتأمل مدة كل خليفة منهم وأعماله يرى ان همة أغلبهم كانت متجهة الى اتساع دائرة العمارة واليسار وبسبب ذلك يصح للمؤرخ ان يعتبر القاهرة فى مدتهم مترقية جداً في التجارة والصنائع والمعارف والعلوم التى لم تكن لها من قبل ولا حصلت لها من بعد والمبانى الضخمة المشاهدة التي لا تقوم الا بالاموال الجمة والتقدم في صناعتى البناء والتصوير كما تراه فيما بقى من ذلك من الابواب كزويله . والفتوح والنصر ومن المساجد كالحاكم . والانور يدل على علو قدرهم ورفعة هممهم وسعتهم فى دائرة السخاء والكرم وكذلك كانوا فى مراكبهم ومواكبهم و احتفالاتهم فى مواسمهم مما لو أراد الانسان معرفته يجده فى مظانه من كتب التاريخ

ثم زالت دولتهم على يد آخر خلفائها العاضد بالحوادث التى وقعت وأدت لقدوم السلطان صلاح الدين بن أيوب الى هذه البلاد لاطفاء الفتن التى دهمتها فأطفأها وما عاد الى البلاد الشامية حتي هاجمتها العساكر الصليبية فاضطر لقدومه لمحاربتها وكان ذلك ثم وجد فى حال البلاد اختلالا لا يسكن الا اذا سهر عليه الانسان بالتدبير المقرون بالاصابة وحسن الرأى المعروف بالاجابة وكأن البلاد سئمت ماهي فيه من

المصائب المتوالية فلم يلق فى نزع يد العاضد من الخلافة واعادة الدعوة للعباسيين أقل معارض ومما نعة ففعل وتولى حكم البلاد بنفسه

وقد انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

تغيرت بتغير الدولة كل الاحوال حتى فى المآكل والمشرب وسبحان من يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

هذه الخلافة طعن فيها أغلب المؤرخين وتكلم الكثير [1] فى نسب القائمين بها وابتعادهم عن آل البيت رضى الله تعالى عنهم وادعوا أنهم معروفين باليهودية (نعوذ بالله من هذه المقالة) حتى عمل في أيام الامام القادر العباسى محضراً يتضمن القدح فى هذا النسب وشهد فيه من شهد من اعيان العلويين خوفاً وتقية وغيرهم مجاراة وتزلفاً وزعم الامير عبدالعزيز صاحب تاريخ افريقية ان اصحاب هذه الدعوى من بقايا اليهود الذين أسلموا فى صدر الاسلام نفاقا وما زالوا يتربصون الشر لجماعة المسلمين قصاصاً لما وقع لاسلافهم من تسفيه أحلامهم فقامت جماعة منهم فى آخر خلافة الامام علىّ رضى الله عنه وأخذوا في وضع الاحاديث الكاذبة وتشكيك ضعفة العقول فى الدين وآخرون أرادوا استئصال الامر بالقوة ومنهم هؤلاء

والذى عليه أهل التحقيق أن نفى نسبهم عن نسب آل البيت مجعول باحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباس تزلفاً اليهم (كما هى العادة من القدح فيمن ناصبهم تفننا فى الشمات بعدوهم) بواسطة علماء السوء لما توفرت شيعتهم وانتشروا فى القاصية بدعوتهم وما زالوا كذلك والخلفاء

---

(١) مثل شيخ النظار أبى بكر الباقلانى

قانعون بهذا السبب حتى قاسموهم الملك وشاطروهم السلطان وهـذا مرض غريب وداء عجيب يصيب الـكثير من الناس ويقع فى الافراد كما يقع فى الدول فتراهم يقنعون بتصغير عدوهم وامتهانه وهم في عماء عما يدبره لهم من المكايد ثم يزيد الحال ويتسع فتراهم يحسنون على الشاتم ويغدقون على الطاعن ويكادون يسجلون هذا البهرج الزائف الذى تريد أرباب الاغراض وسماسرة البغى والباطل ترويجه لهم وكله فرية وزعم وتبلغ بهم السذاجة الى انهم يشتشفون بهذا الباطل ويسكتون عما يقع فى ملكهم من النقص وفى سطوتهم من الاهتزاز

باد الـكثير من دول الاسلام وانتقصت أطراف ممالك كثيرة بهذا السبب وهو تصغير الاعداء في نظر أولياء الامور والاستهانة بهم والتهويل الشديد باستعظام شوكة صاحب الدولة والتعظيم له حتى يظن بعض السذج منهم أن وجود عدوه فى دار الحياة انما هو استبقاء منه عليه وكرامة وتحنن والا لحياته فى قبضة يده ثم لا تمر عليهما الليالى وتتداول الايام حتى يصبح والامر ذو بال وعدوه قد أفسد عليه حاله ويتحقق انه كان غارقا في بحار الخديعة وانه أصبح بين أمرين إما خوض المنايا لهذا العدو العنيد أو التجاوز له عن الارض التي ظهر بعصيانه عليها وليته يقنع

بهذا ذهب ماذهب من فتوحات الامويين وأملاك العباسيين وبلاد وأراضى الدولة العلية العثمانية من الروملى والاناضول وغيرهما وبهذا السبب أيضا ذهب السودان المصرى وتجسمت في هذا القطر فتنته الاخيرة

سمعت ممن أثق به ان كل تلغراف كان يرد لاولياء الامر من حكام السودان حال الفتنة مبدوءا فى أوله بقوله (بنفوس ولى النعم لا يكن.

هناك مايكدر الخاطر وانما .... الخ) وما زال الحال كذلك حتى جاء تلغراف حصار الخرطوم مبدوءا بهذه المقالة أيضا فليت الناس يصرفون بعض الهمم على أمثال هذه الغوغاء في أوائل ظهورها ويتركون الغش فتكفيهم مؤنة القتال والجدال فى أخرياتها خصوصاً فى هذا الوقت الذي ينبغي أن يكون للانسان فيه أربع عيون لكثرة الدسائس وازدياد الاعداء الطاعنين على ملة الاسلام الناقمين عليها وعلى القائمين بأمورها وليس ببعيد ذلك النقد على من يكون ذا بصيرة ثاقبة لان أحوال أولئك المنافقين تتبدى ظاهرة للعيون الصادقة .

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم اه

(تنبيه) الى هنا انتهى الكلام على الخلافة فى المشرق مابين الشام وبغداد ومصر وسنبدأ بالكلام على الخلافة فى المغرب مبتدئين بخلافة عبد الرحمن الداخل



عرف القراء مما كتبناه انه لما نزل ببنى أمية ما نزل بالمشرق وغلبهم الدهر على أمرهم مثل غيرهم من ساسة الدول وسلاطين الزمان وقتل آخر خلفائهم مروان بن محمد بن الحكم طلب بنو أمية بطن الارض بعد ظهرها والدهر حسود لمن يسود ولكل هبوب ركود وكان ممن أفلت عبد الرحمن ابن معاوية . خرج من الشام سنة ثنتين وثلاثين ومائة وظل سائراً في افريقيا ينتقل من مكان الى مكان حتى وصل الاندلس بعد ست سنوات ودخلها سنة تسع وثلاثين ومائة وشيد فيها دولة أموية بجده واجتهاده الملازم لهما التوفيق والسعود وأصبح رأس الدولة بعد ما كان فيه من قنوط

الهارب ويأس المطلوب من عدوه القادر وارتقى في المغرب لمقام جدد فيه ماطمسه الزمان لبنى مروان فى المشرق من الملك العظيم والسلطان العزيز وأحيا ما اندرس من معالم الخلافة وجدد مانسى من اسمها

لذلك جعلنا اسمه الكريم مفتتح الخلافة الاموية بالاندلس بعد أن فرغنا من ذكر من يسر الله ذكر أسمائهم من خلفاء الدولة الاسلامية ببغداد

﴿ عبد الرحمن بن معاوية ﴾

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (المعروف بالداخل لقب بذلك لانه أول داخل من ملوك بنى مروان الى الاندلس وهو رأس الدولة الاموية الاندلسية كان شجاعا هماما كريما حليما ذا حزم وعزم أصهب خفيف العارض بوجهه خال طويل القامة نحيف الجسم

كانت عزمات هذا الخليفة تجعل قومه يتحينون فيه ملكا ويرون فيه علاماته : آية من آيات الله تعالى أن يقطع هذا الخليفة البر والبحر ويقيم ملكا أدبر ويركب من الاخطار مايركب ويقصد الاندلس من أنأى ديار المشرق من غير عصابة ولا انصار فيغلب أهلها على أمرهم ويتناول الملك من أيديهم بقوة شكيمة ومضاء عزم وينقاد له الامر ويجرى على اختياره ثم يورثه عقبه. آية من آيات الله انه مع هذا الملك الضخم الذى أتيح له والدولة المتسعة التى كان فيها لا يسمي نفسه بأمير المؤمنين تأدبا مع الخلافة بمقر الاسلام ومنتدى العرب وتبقى هذه التسمية الى الخليفة الثامن من بنى أمية بالاندلس حتى حدث من ضعف خلفاء بنى العباس ماحدث ووقعت غلبة الاعاجم . انظر لهذا الجد والاجتهاد وتأمل لهذا الميل بارتباط كلمة

الدين والرغبة في عدم قطع دعوة آل العباس مما أصبحت فيه جماعة المسلمين من الانقطاع

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

أفلت هذا الخليفة وخلص الى المغرب واجتمع بموالى المروانيين وأشياعهم وبثوا له دعوة ونشروا له ذكرا ووافق قدومه انكشاف يوسف ابن عبد الرحمن الفهرى من عسكره (بسبب ما كان من الاحن بين اليمنية والمضرية) ولم يبق معه من الجيوش ما يلقى به الامير عبد الرحمن فانهزم فى ظاهر قرطبة ثم لجأ الى غرناطة فتبعه الامير وناجزه الحرب ورغب فى الصلح فعقد له على أن يسكن قرطبة وكان ذلك . ثم أدرك الامير عبد الرحمن بالاندلس (عبد الملك بن عمر المروانى) وكان بمصر فلما دخلت المسودة أرضها خرج يؤم الاندلس فى عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة فلما وصلها عقد له الامير عبد الرحمن على اشبيلية

ثم نقض يوسف بن عبد الرحمن عهده الذى عاهد به ونكث وخرج فسير الامير للقائه (عبد الملك بن عمر المروانى) المذكور فلما تناجزا كانت الدائرة على يوسف ثم اغتاله أحد أصحابه وتقدم بقتله الى الامير واستقام الامر واستقر بقرطبة وثبت قدم الامير عبد الرحمن فى الملك

أسس هذا الامير بمفرده الدولة التى بقيت زاهية الى ما بعد المائة الرابعة . شاد فيها من معالم الدين والدنيا مالا يدرك لغيره شاد فيها جامع قرطبة الذى أنفق فيه ثمانين ألف دينار ومات قبل تمامه وبنى مساجد أخرى وصير لبنى أمية ملكا ضخما له من العز السامى العماد ما بلغ غاية الآباد بالجد والاجتهاد وأقام لهم دولة متسعة كانت أنبل دول الاسلام وأنكاها

فى العدو وبلغت من العز والنصر مالا مزيد عليه

حارب (الازفونش) والبورتغال وخاطب قارلو ملك الافرنج وكان صعب المراس فمازال به حتى أوجبه الى المداراة والموادعة بالسلم وجعل فى هذا الثغر القاصى (ثغر الاندلس) من حلية الملك ما أرهف به سيف عزه بسلطانه وحنك أهله بالسيرة الملوكية وأخذهم بالآداب السلطانية فاكسبهم المروءة وأقامهم على الطريقة المثلى ثم دون الدواوين وجند الاجناد وفرض الاعطية وعقد الالوية وأقام للملك آلة وللسلطان عدة اعترف بعظمتها أكابر الملوك حتى حذروا جانبه وتحاموا حوزته وما زال يمازج في معاملة الملوك التى تجاوره بالعنف مرة وباللطف أخرى حتي دانت له البلاد واستقل له الامر فيها وظهر له ظاهرها وخافيها وأدركت أعداؤه ما هو عليه من عظيم القوة مآلا وحالا وعلمت ان لله رجالا

رفعت الامير عبد الرحمن (قوة الفضيلة . وصدق الحس . وبعد الغور وسعة الاحاطة) حتى ان منـاظره الامام أبا جعفر المنصور كان يسميـه (صقر قريش) وقد عرف له حقه وعدله بل استرجحه عن نفسه وليس لواصف ان يصفه فينصفه بعد قول هذا الامام فيه . قال لجلسائه : « لاتعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه فالشأن في أمر فتى قريش الأحوذى الفذ فى جميع شؤونه وعدمه لاهله ونشبه وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ومضاء عزيمتـه حتى قذف نفسه فى لجج المهالك لابتناء مجده فاقتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع عصبية الجند ضرب بين جندها بخصوصية وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلتـه واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته حتى انقاد له عصيهم وذل له أبيهم فاستولى

فيها على أريكته ملكا على قطيعته قاهراً لاعدائه حامياً لذماره مانعاً لحوزته خالطاً الرغبة اليه بالرهبة منه ان ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه »

هذا هو السر فى قوة الفضائل التى تحلى الانسان بالرجولية والصرامة والاجتراء فتجعله ممدوحاً على كل لسان حتى على لسان أعدائه (والفضل ماشهدت به الاعداء)

أصبحت الخلافة الاسلامية بسببه خلافتين خلافة أموية فى الاندلس وعباسية ببغداد وكانت سيرة خلفاء الاندلس أحسن من سيرة غيرهم فى الجملة . سار سيرة حسنة لم يلامسها روح الشقاق ولم تنزع فيها النفوس للخروج على السلطان . كان رحمه الله قسطاساً للعدل يقعد للعامة يسمع منهم وينظر بنفسه فيما بينهم فيصل بالضعيف الى رفع ظلامته دون مشقة ويردع الظالم عن بغيه وعتوه وكانت مدة ملكه ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة أشهر قصرت عن بلوغ أمانيه التى كان يتمناها . نعم انه غزا فيها بلاد الافرنج (والبشكنس) ومن وراءهم ورجع بالظفر ولكن أين هذا مما كان يريده من اعادة دولة مروان بالمشرق كما كانت فى أبهتها وسطوتها قبل الخلافة العباسية

استقر بقرطبة وهو الذى أدار عليها السور وأقام بها المبانى الضخمة فأصبحت موضع العجب بآياتها الباهرة فى الصناعة والاعمال العجيبة تحج اليها السواح من كل جانب لا يرفعون نظرهم لشىء من عجائبها الا ويردإليهم طرفهم مبتئسا يعييهم أثرها عن حذو تمثالها بتمثال ويعجزهم عن ان يتحدوه بمثال

ألا فلتعجب جماعة المسلمين بمثل هذا الامير وتفتخر به فخرها بعمل من لا يساويه من أهل تلك الملل الاخرى فان فى أفعاله جميع الضروب

والاشكال التي تقصد في المنافع كسعادة الامم وتربيتها وإقامة الدول وحفظها من الانحلال . ولو ان رجلا اتصل بدار وهو من غير أهلها وقدر على أن يملكها منهم وأن يستخدمهم لذاته ثم ينظر فى وجوه سعادتهم فيدنيهم منها ويسهل لهم أبواب الخير حتى يعيش معهم ويعيشون معه فى أرغد عيش لعد ذلك عملا عظيما ودهاء كبيرا فكيف بمن يفعل ذلك بأقليم حشوه قوم جلاد شداد وقد أحاطت به دول فى غاية مايكون من القوة والقدرة . اللهم ان هذا من أعجب العجب

يدهش الانسان سمو هذه الغايات الشريفة التي مهما طوتها الايام وأخذت من زينتها لا تزال محلا للمناظرة وموضعا للمباهاة تبدى زينتها وتباهي بنفسها حتى يذعن لها العدو المعاند والمنكر الجاحد . ثم يندهش الانسان من تلك الحوادث التى طرأت على هذه المدنيـة العظيمـة حتى أحالتها الى همجية بل أبادتها من يد أهلها

كل هذا انما نشأ من عدم رعاية خلفاء الاسلام لحفظ آثار بعضهم وانهم لا ينظرون لها باعتبار أنها من عملهم بل يفرحون بزوالهـا وحلول الخراب فيها لتنسى الناس بذلك أسماء المشيدين لها كانما أولئك كانوا من أشد أعدائهم أما بغير هذا فمحال أن تذهب آثار الاسلام من على وجـه الارض وعلى الخصوص ما كان منها فى هذه الاقطار ممـا تحدث الالسنة على أبهته وضخامته وجلالته

الحـاكم أبو الامة والكل عياله والعلم سلم الترقى الذى يعرف به الولد حق أبيه ويدفع الوالد لاداء حق ولده وهو طاهر اليد من نعمته التى أنعم الله بها عليه فتتقوى أركان المملكة ويعظم جسمهـا وتتناهى فى العمران

بعظم ثروتها وتوفر أعدادها واتساع بلادها فتسعد بالصلاح والاصلاح ويغمد بسر العدل والانصاف ذلك السيف الفتاح . فاللهم هيء لنا الخير وافتح لنا أبوابه وأسبل علينا من فضلك وعنايتك ما ييسر لنا صعاب أمورنا واهدنا وأرشدنا الى خير العمل حتى ندرك المنى الذى به تتم الصالحات آمين

﴿ الحكم بن هشام ﴾

هو الحكم بن هشام بن عبد الرحمن ثالث من ملك الاندلس من الامويين . تولى بعهد من أبيه هشام بن عبد الرحمن الداخل

كان هشام والده يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فكما انه كان يبعث بقوم من ثقاته الى الكور فيسألون عن سير عماله وأعمالهم ويخبرونه بحقائقها فاذا انتهى اليه حيف أحدهم أوقع به وأسقطه وقاصه كان متفقداً أيضا لحال أبنائه ومن يظن انتهاء أمر المسلمين اليهم من بعده . وهذه خلة من خلال عبد الرحمن الداخل ورثها أبناءه وعلمهم ترشيحهم وتثقيفهم على الامر وبين لهم مزية السؤال عنهم وعدم اهمال تربيتهم وتثقيفهم وتدريبهم

لذلك نشأ « الحكم » منشأ حسناً فكان فى معاليه صاعداً وفى مراقيه سامياً واستولى على شرف التأدب . فكم من مطالب لذواهب المجد والفخر أدركها ومغانم من عوائد الحمد والشكر تخولها

تولى بعد موت أبيه هشام سنة ثمانين ومائة فاستكثر من المماليك ومن رباط الخيل وأعد ما استطاع من القوة فاستفحل ملكه وسد مكانه

واجتمع من بحضرته من أهل بيته وقواده ومواليه وغلمانه وجنده على متابعته ومشايعته فباشر معهم الامور ثم حدثت فتنة بينه وبين عميه اغتنمها العدو واعتدها فرصة وقصد برشلونه فامتلكها وتأخرت عساكر المسلمين الى مادونها بسبب فتنة الاقارب (وكذلك يفعلون)

ثم بعث الجند الى بلاد الجلالقة واثخن فيها فخالفهم عدوهم الى المضايق فرجع على التعبية وظفر بهم وخرج الى بلاد الاسلام ظافرا

يقال عن هذا الامير انه كان فى صدر ولايته منهمكا فى لذاته فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثى صاحب مالك وأحد رواة الموطأ وطالوت الفقية وغيرهما وما زالوا به حتى اقتتلوا معه فى طاعة الله : العلماء فى ناحية والامير فى ناحية . ثم انتهى الامر بعد قتل وقتال وتغريب وتشريد

هذه الحادثة شذت عن القياس فى محاربة الامير لعين أعيان دولته وخيرة أنصاردعوته . ولكن انظر لحال العلماء ومعاملتهم لامرائهم وتقويم اعوجاجهم بالسيوف تجد أن تلك موعظة يجب النظر اليها بعين الاعتبار وأمثولة تستحق أن تحفظ. اعتدل بعدها حال الامير وازداد تخلقه بالاخلاق الحميدة واستمر على الطرائق الرشيدة واوضح له الله السداد وأنار منهاجه وعرفه يمنه وبركته

دخلت عليه سنة اثنتين وتسعين ومائة فجمع (لذريق بن فارلو) ملك الفرنجة جموعه وأغاربها على بلاد المسلمين وسار الى حصار طرسونه فبعث الحكم بن عبد الرحمن بعسكره فهزمه باذن الله وفتح الله على المسلمين وعاد ظافرا . ثم كثر عيث الافرنج وعبثهم فى ثغور وحصون الاندلس

و« الحكم من طرف ورجاله من طرف آخر يثخنون فى القتل والقتال حتى عاد الى قرطبة ظافراً »

ثم فى سنة ٢٠٠ بعث العساكر مع ابن مغيث الى بلاد الافرنج فأخذ عدة حصون وأقبل عليه (اليط) ملك الجلالقة فى جموع عظيمة وتنازلوا على نهر واقتتلوا أياما ونال المسلمون منهم أعظم النيل وقفل المسلمون ظافرين ظاهرين

هو أول من جند الاجناد واتخذ العدة وكان فحل بنى أمية بالاندلس وأشدهم إقداما ونجدة . قال بعض المؤرخين انه كان يشبه أباجعفر المنصور من خلفاء بنى العباس في شدة الملك وتوطيده وتمكين الدولة وتشييدها وقمع الاعداء وكان يحب الخير ويعين عليه ويراعى صنعه وينمى غرسه ويسبغ نعمته اذا أولاها ويتم عارفته اذا اسداها من ذلك فعله فى المجاعة الشديدة التى وقعت سنة سبع وتسعين ومائة التى أكثر فيها من مواسات أهل الحاجات والفقراء حتي سارت بخبر خيراته الناس ودونتها الرواة

استمرت مدة ملكه ستا وعشرين سنة . قال غير واحد انه أول من جعل للملك بأرض الانداس أبهة وشأنا وهو أول من جمع الاسلحة والعدد واستكثر من الخدم والحواشى والحشم وأعد رباط الخيل على بابه وكانت الجياد التى على شاطىء النهر قبلى قصره الفى فرس وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس وكان يباشر الامور بنفسه ويقرب الفقهاء والعلماء والصالحين وهو الذى وطأ الملك لعقبه بالاندلس

ومن أعجب ما يروى عنه أن العباس الشاعر توجه الى الاندلس فلما نزل وادي الحجارة سمع امرأة تقول : « واغوثاه بك ياحكم لقد أهملتنا حتى

كلب العدو علينا فايمنا وأيتمنا » فسألها عن شأنها فقالت : « كنت مقبلة من البادية فى رفقة فخرجت علينا خيل عدو فقتلت وأسرت » فصنع في قصيدته التى أراد أن يلقاه بها أبياتا منها

تململت فى وادى الحجارة مسئداً أراعى نجوماً ما يرون تغيرا
اليك أبا العاصى نضيت مطيى أسير اليكم ساريا ومهجرا
تدارك نساء العالمين بنصرة فانك أحرى أن تغيث وتنصرا

فلما دخل عليه أنشده القصيدة ووصف له خوف الثغر واستصراخ المرأة باسمه فأنف ونادى فى الحين بالجهاد والاستعداد فخرج بعد ثلاثة الى وادي الحجارة ومعه الشاعر وسأل عن الخيل التى أغارت من أى أرض للعدو كانت ؟ فأعلم بذلك فغزا تلك الناحية وفتح حصونها وخربها وأحضر المرأة وجميع من أسر له أحد في تلك البلاد وقال للعباس سلها هل أغاثها (الحكم) ؟ فقالت: والله وشفى الصدور وانكى العدو وأغاث الملهوف فأغاثه الله وأعز نفره . فارتاح لقولها هذا

مثل هذه النجدة الآن تعجز أوروبا بأجمعها عنها ولقد أعجزتها فعلا فى مسئلة البوير فلم تنبس ببنت شفة وابح صوت الشيخ الرئيس كروجر فرط النداء والاستصراخ (وما أنت بمسمع من فى القبور) قبور الشهوات والملاذ التي أنست الناس الفضيلة ومكارم الاخلاق وصبحتهم لا يعرفون شيئاً غير صيانة هياكلهم في حصون الجبن حتى أصبح الصدق تقريعاً والنصح والاخلاص تضييعاً وكأنك لو نظرت لتاريخ أوروبا والمشرق لا تجد غير ذلك : اندفاع الى المنفعة والمغانم بغير نظر الى شرف أو فضيلة

انا لو شئنا سرد الشواهد على أن مدنية أوروبا (بالقول لا بالفعل)

لاحتجنا الى تاليف جديد ولكن الظن بالقراء انهم يكتفون ببعض هذه الشواهد الظاهرة والاغراض السياسية الكاذبة مما لا يوجد فى بلاد المسلمين أبداً لانهم يجهلون التلفيق والتمويه فى الحقائق وابرازها فى أثواب الزور المدبجة بألوان التمدن العصرى

﴿عبد الرحمن بن الحكم﴾

هو عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل بن معاوية ابن هشام الاموى . هو أبو المطرف عبدالرحمن الثانى ملك الاندلس يقال له عبد الرحمن الاوسط لتوسطه بين عبدالرحمن الاول والثالث

ولد بطليطلة سنة ١٧٦ وتولى الخلافة سنة (٢٠٩) على أثر وفاة والده وعمره ثلاث وثلاثون سنة وولى الحكم ثلاثين سنة وتوفى سنة تسع وثلاثين ومائتين

كان عبد الرحمن أسمر طويلا أقنى الانف عظيم اللحية حازماً قوياً شجاعاً جمع الله فيه مابين لطف الأدباء والشعراء وفضل العلماء وشجاعة القواد ومهابة الحكماء فكان نادرة زمانه

هذبه أبوه الحكم وعوده على الجلوس على مراتب الملك والسلطان لانه استعان به فى مهمات أموره من الوظائف السلطانية التى تندرج تحت الخلافة ويشتمل عليه منصبها من أحوال الدنيا والدين فانفذه فى عظام المهام وولاه قيادة الجند فى محاربة الافرنج وتذليل البلاد الثائرة فأصبح له من النظر بأمور الجند والسلاح والحروب والبصر بسائر أمور الحماية والمطالبة بالحقوق ما يكفى لمثل هذا المقام وحسبك أنه هو الذى أخمد فتنة

طليطلة باليوم المعروف بيوم الحفرة المبسوط خبره فى مواضعه من كتب التاريخ

تولى الملك بعزيمة الصلاح ومساعى النجاح وأولاه الله العز والنصر وخص أعداءه بالذل والقهر . فقد خرج عليه عم أبيه (عبد الله البلنسي) ينازعه الملك فلم يلبث أن مات وخلصت الحكومة له فصرف همه لاخماد الفتن داخل بلاده وردغزوات الافرنج عنها ورفع معالم العلم فيها وكان له الفوز فى أكثر حروبه واستولى على برشلونه وغيرها من البلدان وطرد الفرنساويين من قطالونيا

وقف حائلا بين النوائب وبين مملكته دافعاً عنها احداث الزمان آسياً لكلومها جابراً لثلومها ففى عام توليته أخمد فتنة البيره وأوقع بأهلها الوقعة المعروفة بوقعة بالس . وفى السنة التالية سير جيشاً الى بلاد (البة) مع عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث فحاصرها وأحرق عدة حصون بها وغنم الغنائم وعاد بعد ان صالح أهلها على مال كثير

وقعت هيبته فى قلوب ملوك الافرنج ففاز فوزاً عظيما وغزا بلادهم مرات . ووفق لاخماد الفتنة اليمانية والمضرية ببلاد مرسية ودانت له وافتتح برشلونه مرة ثانية بعد ما انتقضت عليه وهدم سورها . ثم فتح مدينة باجه واستولى على مدينة طليطلة ثم كانت له وقائع كثيرة مع الاسبان فى أطراف بلاده والفرنسويين وكان الفوز له فى معظمها مع الغنائم الكثيرة

كانت فى أيامه غزوات النورمنديين (١) المعروفة فى تواريخ العرب (بغزوات المجوس أوظهور المجوس) واختلف القوم في تواريخ حدوثها وفى تعداد غزواتها ومنهم من جعلها غزوتين والاظهر انها غزوات متتابعة لم تكن

---

(١) أهالى نورمنديا فى جنوب فرانسا وأصلهم من السويد

ذات شأن فى أول الامر . ثم أقبل النورمنديون فى أوائل عام ٨٤٥ مسيحية بجيش جرار في سفنهم وعاثوا فى سواحل الاندلس ونهبوا (قادس) وظفروا بالمسلمين . ثم ساروا الى اشبيلية فى السنة التالية فخرج اليهم أهلها وقاتلوهم فقتل الكثير من المسلمين وانهزموا واكثر النورمنديون من النهب والسلب وعاثوا فى البلاد وعادوا الى مراكبهم ثم خرجوا منها وحشد عبد الرحمن جيوشه من كل البلاد وكانت بين الفريقين حرب شديدة فاضطر النورمنديون الى الرحيل عن اشبيلية ولكنهم ظلوا ينتقلون فى السواحل ويعيثون سلباً ونهباً الى أن تمكن عبد الرحمن بعد الجهد الجهيد والعناء الشديد من طردهم عن بلاده

وصلت جيوشه الى مدينة ليون ورموها بالمجانيق فهرب أهلها عنها وتركوها فغنم منها المسلمون غنائم كثيرة

كانت الخلافة بالاندلس لاتشبه غيرها من خلافات المشرق لما يلزمها من شدة الحذر وطول السهر وقلة الراحة ودوام اليقظة لان غارة جيرانها من الامم المباينة لها لا تنقطع ولان المسلمين فيما بينهم (جسم غريب) وكل فرد من هذه الشعوب ليس له هوى غير الانتقام منهم والتمكن من اعادة أرضهم وملكهم اليهم والحوطة عليه وشغلهم ان يبقوا متكالبين على الطلب ومنتهى آمالهم ان يعيدوها كما كانت لا يغفلون عن ذلك أبداً وليسوا بصامتين فيحتاجون الى من ينطقهم ولا لاهين فيضطرون الى من ينبههم بل متعرضين لذلك تعرض المستميت بعزم الواجد لا المتكلف ولا يزال حكماؤهم ينصحون به الناس على طول الايام والناس فاعلون

هذا حال العدو المحارب وأشد منه حال الصديق المخادع . والرصيف

المنافق . وهم الذين يرصدون مراصد الكيد للدولة من العمال فقد انتقض عليه بعض عماله يدعون للخلفاء العباسيين ببغداد (ولو كانوا ببغداد لدعوا فيها للأمويين بالاندلس) فكان هؤلاء من طرف وحروب الاسبان من جهة أخرى حتى استقلت ولايتا (اراغوان) و (نواره) عنه . ومع هذا فقد ترك ملكا قويا خلفه عليه ابنه (محمد)

بلغ مرتبة تقطعت دونها انفاس المنافسين وتضرمت احشاء الحاسدين من النأى الذى رأبه والشعث الذى لمه والعدو الذي أرغمه فبعث اليه (نوفلس) ملك القسطنطينية بهدية وطلب مواصلته ورغبه فى ملك سلفه بالمشرق[1] (تأمل لهذا الحذق في بذر بذور الشقاق وانظر سهام المكايد النافذة) وذكر له المأمون والمعتصم في كتابه وعبر عنهما (بأسماء امهاتهما) امتهانا فلاقت هذه الحالة من الامير عبد الرحمن رجلا خبيراً حكيما فدفعها بدهائه وكافأه على هديته وبعث اليه (يحيي الغزال) من كبار أهل الدولة وكان مشهوراً فى الشعر والحكمة فاحكم بينهما وصلة الحب وارتفع لعبد الرحمن عنده ذكر وأى ذكر

كان واسع الرزق فى كل شىء حتى فى ذراريه فقد مات عن ٤٥ ولداً ذكوراً . وكان أديباً شاعراً عالماً بالشريعة وغيرها من علوم الكلام بعيد الهمة . وهو أول من شاد القصور الجميلة والمتنزهات ومهد الطرق وأتى بالماء العذب الى قرطبة من الجبال وبنى المدارس وأسس ديار العلم وشاد الجوامع الكثيرة وبنيت فى أيامه الجوامع بكور الاندلس وزاد فى جامع قرطبة ومات قبل أن يتمه فأتمه ابنه (محمد)

(١) يعنى الخلافة الاموية بالشام التى ابتذتها منهم العباسيون

هو رابع ملوك الامويين بالاندلس ولكنه أول من أقام أبهة الملك. وكان محباً للعلماء . والادباء جمع اليه ذوى الشهرة من شعراء العرب وذوى الفضل منهم ويعترف الاوروباويون انه لم يكن فى زمانه دار ملك كدار ملكه أبهة ومجداً

لعل عبد الرحمن هذا هو الذى نقل هيئة الحكومة الى مارمز اليه العلامة ابن خلدون فى مقدمته من غير أن ينسبه لاحد (قال فى كلامه على العمران البدوى: وأما دولة بني أمية بالاندلس فالفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أصنافا وأفردوا لكل صنف وزيرا فجعلوا لحسبان المال وزيراً . وللترسيل وزيراً . وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيرا . وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً وجعل لهم بيت يجلون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان كل فيما جعل له الخ) وهذا شىء أشبه بنظار الحكومات الآن (ولعله مبتدعه)

دخلت فى مدته صناعة الغناء من المشرق الى الاندلس بوفود زرياب المغنى مولى المهدي من العراق اليها وهو تلميذ ابراهيم الموصلى فركب بنفسه اليه وتلقاه وأكرمه وأقام عنده بخير حال وأورث صناعته أهل المغرب وخلف أولاداً وخلفه فى صناعته وخطوته كبيرهم عبد الرحمن ثم انقطع هذا الى أزمان الطوائف

وغير خاف ان هذه الصناعة هى آخر ما يحصل فى العمران من الصنائع لانها كمالية فى غير وظيفة من الوظائف الا وظيفة الفراغ والفرح وهي أيضا أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه أو تبدله (كما هو واقع بعصر الآن) ولا مشاحة فى ان هذا الفن من أجل الفنون لانه ينفع المرضى كما ينفع

الاصحاء وقد كشفت العلوم الجديدة والتمدن الحديث لزومه لكيان الوجود والحياة لزوم الماء والشعب وان عليه مدار صحة الامم لان الفراغ واللذة بعد الكد والعمل لابد منهما والا فالمنبت هالك لامحالة

وهو أول من احدث النقش فى الخاتم بمزيد عن الاسم فكان نقش خاتمه (عبد الرحمن لقضاء الله راض) وكانت أيامه أيام رغد وهناء على مافيها من الحروب بل الفتن الداخلية وذلك لانه كان يتلقاها بفكر ورأي وثبات جاش وحزم فلا تلبث الفتنة أن تزول ولذلك بلغ في ملكه اتساعاً عظيما وجبى مالا كثيراً وكان طروباً فخوراً بجده وأعماله اللائقة فمن شعره في ذلك

تداركـ بى الله دين الهـدى   فأحييتـه وأمت الصليبا

ألاقى بوجهى سموم الهجير   اذا كاد منه الحصى أن يذوبا

فكم قد تخطيت من سبسب   ولاقيت بعد دروب دروبا

وكان مولعاً بالسماع محباً له وهو أول لذاته شغله عن كثير من المنكرات التى تعظم عليه بتبعتها والحمد لله

لا شك أن القارئ ينسب كل ما لهذا الخليفة من الاعمال الخيرية لقوة الدين وشدة العزيمة والبحث عن عواقب الامور وفرط الروية والتبصر وأساس ذلك كله العلم والعمل اللذان فتح له بابهما أبوه

باشر فى عهد أبيه الملك فدربه فيه تدريب الحكيم فمذ وليه لم يتعثر في ذيله الطويل ولم يتحمل أبوه مسؤولية الخلافة حياً وميتاً بل أبرزه للورى هبرزيا لا يفرى أحد فريه

صرف بصره الى وطنه وعرف ما يجب له عليه . فحدق النظر . واستطلع الخفايا . واستجلى الدقائق . فتجلت له دعامة وجوده وروح

حياته فرأى أنه بالفضائل يحيا وبالرذائل يموت ويفنى وباختيار الامناء الا كفاء من الرجال يعز ويغنى وبالدخلاء يذل ويشقى

تجلى له هذا المظهر فشعر بأن له شأنا عظيما فى الوجود وأحس بقواه المقدسة التى أودعها فيه مدبر الكون فاندفع الى طلب الفضيلة الحقيقية والكمال الصحيح الذى هو له أهل فأصبح من أحسن الناس سيرة

وانما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وعى

﴿عبد الرحمن الناصر﴾

هو عبد الرحمن الناصر لدين الله ثامن ملوك الاندلس من الامويين ويعرف بعبد الرحمن الثالث . ولد فى سنة ٢٧٧ وتولى الحكومة سنة ٣٠٠ وتوفى سنة ٣٥٠.

وجد الاندلس مضطربة بالمخالفين مضطرمة بنيران المتغلبين بسبب ان من تولى الاندلس بعد عبد الرحمن الاوسط (كمحمد) و (المنذر) و(عبد الله) لم تصافيهم جيرانهم ولم تهملهم أيامهم فلم تطل مدتهم في الملك ولم تطل ايديهم على أعدائهم بالدمار والهلاك فاشتغل فى اطفاء تلك النيران واستنزال اهل العصيان مدة استوعبت نيفاً وعشرين سنة من أيامه حتى استقامت له الاندلس فى سائر جهاتها بعد استيطان البلاء وفقد الرخاء واشتعال نار النفاق وضيق الآفاق فاذا به بسط العدل المشهور بالسيف المنصور وحقن الدماء المسفوكة وأمن السبل المخوفة وأحرز الأموال المنتهبة وحصن البلاد الخربة وجمع بامامته الكلمة بعد افتراقها فهو الذى رفض الدعة وهي محبوبة وترك الرأفة وهي

مطلوبة لتلين له الاحوال بعد الشدة وتكسر من شوكتها بعد الحدة والحمد لله على آلائه

ومن الغريب انه كان في عهد توليته شابا وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون فتصدى اليها واجتازها دونهم كأن الله هيأه وأعده لما أراده من الخير على يديه لهذه البلاد

هو أول من تلقب بالقاب الخلافة وتسمي (بامير المؤمنين) وكانوا من قبله يخاطبون ويخطب لهم بالامير كما تقدم الكلا وذلك عندما تحقق ان أمر الخلافة بالمشرق قد ضعف واستبدت على الخلفاء مواليهم والتاث أمرهم على جماعة المسلمين وتطاولت أيدى الديلم لقتل الخلفاء (كما وقع للمقتدر من خادمه مؤنس) فظهر بمظهرها فى مجالس الحشد والحفلة ومواطن الانس والعظمة مستكملا شعارها من الاكبار والاعظام والاجلال والاكرام

مدت اليه أمم النصرانية المجاورة لمملكته من وراء الدروب المستحكمة يد الطاعة والاذعان خوفا على أنفسهم وممالكهم من مطوي أفكاره ومخبوء تدابيره السديدة وآرائه المفيدة فصفالهم إذ صافوه وأمنهم اذ سالموه تحرزاً من الوقوع فى اشراكه وأوفدوا عليه من رسلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية فى سبيل المهادنة والتزلف والسلم والاعتمال فيما يعين فى مرضاته ووصل الى سدته الملوك المتاخمون لبلاد المسلمين بجهات (قشتاله) و (بنبلون) وما ينسب اليها من الثغور الجوفية . فكانوا يقبلون يده ويلتمسون رضاه ويحتقبون جوائزه ويمتطون مراكبه وكل وفد من الوفود يحتفل فى لقياه بالعسكر والقواد وأصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة كالموالى والحشم بما يناسب هول المقام وأبهة الخلافة ثم تقام لذلك

الاحتفالات الشائقة وتتلى فيها الخطب الرائقة بما يدل على فخامة جاه الدولة وبيان ما يخطبه الغير من مودتها ثم يغدق على أولئك الوفود بالعطايا فيخرجون من الحضرة ويرحلون عن البلاد وقد اشتد عجبهم وطال تحدثهم بما رأوه من قدرة السلطان وعظمة الملك مما هو مبين فى مواضعه

سما الى ملك العدو فتناول «سبتة» ونقل «الفرضة» من أيدى أهلها وأطاعه بنو ادريس أمراء العدوة وملوك زناتة والبربر وفتح طليطلة. وقرمونة. واشبيلية. وكثيراً من البلاد العاصية والنواحى المستقلة

كانت أيامه أيام جهد وعناء بما اتى من عنت الخوارج وتمرد العصاة وطمع ملوك الاطراف من المسلمين وقتال أمراء النصارى فى أستوريا ونواره. وملكي لاون اوردينو الثانى. ورامير الثانى. ومحاربة الفاطميين فى افريقيا بعد ظفرهم بالملوك الادارسة وايغال جنوده فى السودان المصرى ومع ذلك فقد خرج ظافراً من معظم تلك الحروب ودوخ البلاد واخمد الفتن وظفر بالمنتقضين عليه

انظر لما شيده من الآثار وأقامه من علائم المجد مع هذه البلايا والمصائب الداخلية والمحن والفتن الخارجية الملتفة حول كرسى خلافته لا يكاد يلتفت الى واحدة منها إلا وتستصرخه اخرى

يده بيضاء على العلم والصناعة والتجارة فازدادت بذلك شهرته ومكانته فهو الذي أنشأ المبانى العظيمة وشيد المساجد والجوامع والمدارس الفخيمة ومن أشهر هذه الاعمال الخطيرة (مدرسة الطب) وهىَ أول مدرسة نشئت فى أوربا بأجماع المؤرخين (والمكتبة الشهيرة) بغرناطة وهى أجل مكتبة كانت فى عهدها على ظهر الارض أودعها ستمائة الف مجلد و(الاسطول)

البحرى الذى غزا به افريقيا

شيد مدينة (الزهراء) وكأنما أحاطها بشعار التعظيم وألبسها رداء التكريم وناهيك ببلدة استدعى لاقامتها وبناء قصره (دار الروضة) فيها عرفاء البنائين والمهندسين من كل جهة فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية وأقيمت على ٤٣٠٠ عامود من المرمر الخالص وصرف فى بنائها ٧٥٠٠٠٠٠ دينار (١) واستغرق العمل فيها خمس سنين

جلبوا اليها الماء من مستقره فى الجبال لسقاية المدينة ولوازم قصره وقصور رسائفه وأنخموا له تلك المبانى وأعظموها فى نظر كل انسان ففاتت لعلو درجتها ماتقدمها من الآثار. جمعت عجائب البناء وغرائب الاشياء لحدائق القصور التى شيدها كلها ميدان اعتبار واختبار كانت منتزها للانسان ومرتعا للحيوان ومسارح للطيور فهي للمصلحة والحاجة والفطانة والنزاهة ثم أقام دار الصناعة (٢) وجمع فيها من آلات السلاح للحرب مالا يوصف وأحيا بواسطتها ميت الاعمال الصناعية ثم جلب اليها ماقدر عليه من الخارج أيضا كصناعة العاج والابنوس والصفر ومواد التلبيس والترصيع والتطعيم بالفضة والذهب التي لاتزال آثارها باقية للآن في تعاريج أبواب القصر والمدينة مجلبة للحسرات على مواضى هذه الايام

هم الملوك اذا أرادوا ذكرها   من بعدهم فبألسن البنيان

ان البناء اذا تعاظم قدره   أضحى يدل على عظيم الشان

ذكرت جماعة المؤرخين سبباً لطيفاً لبناء هذه المدينة (الزهراء) قالوا

---

(١) قيمة الدينار تساوى نصف ليره انجليزية تقريبا

(١) حرفت هذه اللفظة حتى صارت (ترسخانة) وهي المعروفة

ان الناصر ماتت له سرية وتركت مالا كثيراً فأمر أن يفك بذلك المال أسرى المسلمين وطلب فى بلاد الافرنج أسيراً فلم يجد فشكر الله على ذلك وبنى هذه المدينة (فلله من هذا الفكر السامى الذى صير ماله بين أن يجلب به على الامة الشرف العظيم أو يقيم لها به الاثر الفخيم)

ما كان أحوج هذا الملك العظيم الى السلامة التامة من جميع وجوهها ليكون متساوى الفخار بين سره وجهره وعالنه وباطنه ولكن أين تذهب خيانة الخونة الذين ليس لهم شغل إلا طمس المعالم ودروس المآثر للاغراض الذاتية فيهتكون مايحق ان يصان من حرمة الملك ويخرقون مايجب ان يحفظ من هيبة السلطان . فهم الساهرون اذا رقد الناس المستيقظون اذا ناموا ليشنوا أنكر الغارات على الحاكم ويقيموا أقبح العثرات فى وجه الخليفة ليقعدوه عما هو فيه من نصرة الدين والمسلمين

كان الخليفـة عبد الرحمن كثير الجهاد والغزو بنفسه فيسير الى دار الحرب ليثخن فى العدو حتى يدعوه للطاعة . لاشغل له الا فتح الحصون وامتلاك البلاد والنواحى واقامة ميزان عدله فيها

كبر على الخونة والمردة ان يوطىء عساكر المسلمين من بلاد الافرنج مالم تطأ قبل من ايام أسلافه . وحدث انه كان للخليفة عبد الرحمن وزيراً اسمه (احمد) نقم عليه أمراً واتهمه بخيانة فقتله . وكان لهذا الوزير أخ يدعي أمين بن اسحق من بنى اسحاق أمراء الاندلس المروانيين (عمال الاندلس فى عهد بنى أمية وبنى مروان) فحقد ابن اسحق على الخليفة وعصى فى مدينة (شنترين) سنة ٣٢٥ وأحدث بها ثورة عظيمة . ثم التجأ الى (راد مير) ملك الجلالقة ودله على عورات المسلمين وكانت بينهم الواقعة المشهورة بواقعة (الخندق) ذهب فيها

من عسكر المسلمين خمسون ألفاً أويزيدون بخيانة هذا المارق والاعجب من ذلك أنه استأمن الى الخليفة عبد الرحمن بعد أن تخلص من (رادمير) ووسعه حلمه وكرمه وقبله أحسن قبول

بعد هذا الحادث قعد الخليفة عبد الرحمن عن الغزو بنفسه وصار يردد الصوائف (١) فى كل سنة ثم جهز عسكراً مع عدة من قواده الى الجلالقة وكان له عدة حروب هلك فيها من الجلالقة خلق كثير

أنظر (لولا هذه العثرة) كيف يكون ملك الاندلس مع خليفة مثل هذا جمع أشتات الفضائل حيث أعطى القوتين العلمية والحربية ورفع منار العلوم والفنون وأدخل فى الاندلس مفاخر كل جهة وزينة كل بلد وانقاد له المغرب الاقصى وحث الناس على الادب الدينى فانغمسوا فيه فترقت نفوسهم وسمت الى مراقى الفلاح ونشرت التربية القومية بتعميم العلم والتهذيب بغير تقصير من العلماء الذين هم روح الامم وحياتها فبعث الامة فى خلق جديد

لطيفة له — (أقصها عليك تعلم منها قدر احترامه للعلماء وقدر إعظام العلماء أنفسهم فى أيامه لماذاقوه من لذة العلم وأحسوا به من شرفه) — اشتاق مرة للفقيه الامام أبى ابراهيم فطلبه وكان بالمسجد المنسوب لابى عثمان يسمع طلبته الحديث الشريف فبعث اليه الخليفة خادما يدعوه اليه فلما جاءه وبلغه رسالة مولاه قال له السمع والطاعة ولا عجلة ارجع الى أمير المؤمنين واذكر له عنى انك وجدتنى فى بيت من بيوت الله مع طلاب العلم أسمعهم حديث ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيدونه عنى وليس

(١) الصوائف جمع صائفة وهى غزوة الروم صيفاً لقلة الثلج والبرد

يمكنني ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم في رضاء الله وطاعته فاذا انقضى مشيت اليه ان شاء الله . فمضى الخادم ولم يك الا ريثما أدى جوابه وعاد يقول أنهيت الى أمير المؤمنين رسالتك فقال جزاك الله خيراً عن الدين وعن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين واذا أنت أوعيت فامض اليه وكان ذلك

فحبذا الحاكم والعالم هؤلاء الرؤساء الصادقون المفلحون الذين زينوا وجه الدين وانصرفوا عن الفخفخة الباطلة الى الصراط المستقيم وعلى فعلهم هذا بنى القائل قوله

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما

فمتى علماؤنا لهذا السر يفقهون وبهذا القليل يتعظون

تهذبت فى أيامه الامة فجمع ما يؤثر عن أهل الاندلس من نوادرهم وحكاياتهم فى العدل . والوفاء وحسن الاعتذار . والقيام بحق الاخاء وعلو الهمة فى العلم والدنيا . والذكاء . واستنباط العلوم واستخراجها . وحب العلم واللطف . ورقة الاخلاق . والقوة والشجاعة . والملح وأجوبة الملوك والظرف والبلاغة وعدم احتمال الضيم والذل والانفة . والجود والفضل وسرعة البديهية والعفو وغير ذلك من الخصال الحميدة التى تدخل تحت عنوان مكارم الاخلاق جميعها . نما ذلك فى مدته فهو اما باذره أوغارسه أو منميه أو مستثمره رحمه الله

مضت أيام هذا الخليفة على الاندلس وكانما هى خيال حالم أوحديث نائم تولاها ولم يكن فى بيت المال ما يسد شيئاً من نفقات الجند وغيرها ثم توفى فترك من الاموال المدخرة شيئاً عظيما فضلا عن السلطان الكبير

والمجد الباذخ حتى لقبه الافرنج بالكبير والعظيم

عمر مملكته بالعدل والاحسان فنمت البركة فيها وانفسحت نفوس الرعايا للسعي والاكتساب وابتعد عن الظلامات المفسدة للعمران من تكليفهم بالاعمال وتسخيرهم بغير حق أو أخذ ما بأيديهم بأبخس الاثمان فقامت الدولة وعظم عمرانها لامان الناس على أموالهم ، وحرمهم. ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم

كانت الاندلس في زمانه زاهية بالمعارف والعلوم زاهرة بالثروة والغنى يعجب الذى يقابلها بحالها اليوم . فأين كثرة الصناعة والتجارة والمعامل الحريرية والمصانع الغريبة وورش التطريز والوشي والنسج . ومع هذا الكمال الذي لا يفضله الا الكمال الالهي فقد وجدت بعد وفاته ورقة مكتوبة بخط يده يعدد بها أيام السرور التى صفت له مدة حياته فاذا بها أربعة عشر يوما

نقب الكثير من طلاب الاخبار على هذا الاثر فما عثروا عليه وجال في فهم الكثير منهم تأويل ذلك أو استنتاجه فذهبوا أيضا مذاهب شتى والذى يدل على الخبر ان صح ان تلك الايام التى عدها هي أوقات فراغه من أشغال الملك لان الملك بنى على المشاغل وهى لا تنتهى فاذا تم للملك ما يريد وأمكنه ان يرصد لنفسه وقتا يرى نفسه فيه خاليا عن حاجات المنصب الذي أقامه الله فيه فتلك سعادة مافوقها سعادة وقد قال قوم غير ذلك وكثر القول حتى ألف بعض الاجانب رسالة فى تلك الايام ذهب فيها مذهب القصص و « الرومان » فأضعف هذا التخمين ذلك اليقين والله أعلم

وخير ما فى المسئلة ان ينظر العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وبخلها بكمال الاحوال لاوليائها . هذا الخليفة الناصر حلف السعود المضروب به

المثل فى الارتقاء فى الدنيا والصعود ملكها خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثه أيام ولم تصف له إلا أربعة عشر يوما فسبحان ذى العزة القائمة والمملكة الدائمة لا إله الا هو . ثم يستكثر فى أعماله من كل خير وبر فما الحياة الدنيا الا متاع الغرور

لا تغبط الاقوام يوماً على ما أكلوا خضما وما سربلوا
يذبل غصن العيش حقا ولو أضحى ومن أوراقه يذبل

﴿ الحكم المستنصر بالله ﴾

هو الحكم المستنصر بالله ابن الخليفة عبد الرحمن الناصر وولى عهده من بعده . اعتلى سرير الملك يوم وفاة أبيه يوم الخميس وقام بأعبائه أتم قيام وأنفذ الكتب الى الآفاق بتمام الامر له ودعا الناس الى بيعته واستقبل من يومه النظر فى تمهيد سلطانه وتثقيف مملكته . وضبط قصوره وترتيب أجناده وأول ما أخذ البيعة على أهل القصر ثم على اخوته وكانوا يومئذ ثمانية فوافى جميعهم وجلس وجلست الناس للبيعة طبقة طبقة كما هو مفصل فى مواضعه فلما تمت أذن للناس بالانفضاض ثم أخذ هو وأخوته فى تشييع جنازة الناصر لقصر قرطبة للدفن هناك فى تربة الخلفاء

وفدت عليه الوفود للبيعة والتماس المطالب وقدمت من أقاصى البلاد فجرى على رسم أبيه الخليفة عبد الرحمن الناصر رضى الله عنه فى سلوك سبيل القصد واتباع طريق الرشد واحتذاء حسن الاثر حتى قالوا ان الاندلس لم تفقد الا شخصه وصح عليه قول أبى الحسين فى ممدوحه أبى العشائر

يا ابن من كلما بدوت بدالى غائب الشخص حاضر الاخلاق

لو تنكرت فى المكر عليهم   حلفوا انك ابنه بالطلاق

استخلف على عمله أهل الفهم والمعرفة وذوى الدين والورع والدعة والفقهاء المشهورين بالغناء والكفاية والعلماء الجامعين للرواية والدراية حتى ظهر فى عيون الاعداء والاصدقاء بمظهر الكرامة والاحترام

أهدى للحكم فى أوائل ولايته هدية جمعت أفخر الآثار العظيمة والنعم الزائدة فمن مماليك كأنها الاغصان ناشية على ظهور خيول صافنة كاملو الشكة والاسلحة يشجى بهم حلق العدو المناوى والخصم المنازل والسيوف والرماح والتراس والقلانس الهندية والدروع والخوذ المختلفة الاجناس فكان لذلك مفتخر جليل ومحتفل جميل تضاعف به اغتباط قوة حرمة الملك واستطال به عماده على جميع المملكة

غزا بنفسه لاول وفاة الخليفة الناصر جيوش الجلالقة الذين طمعوا في الثغور واقتحم بلد (فردلند) وفتح (اشتبتين) عنوة فبادروا الى عقد السلم معه واتقبضوا عما كانوا فيه ثم أغزى غالباً مولاه بلاد (جليقيه) وسار الى مدينة سالم لدخول دار الحرب فجمع له الجلالقة ولقيهم فهزمهم وأوطأ العساكر بلد (فردلند) وغزا (شانجه بن رادمير) ملك البشكنس وقد ساعده ملك (الجلالقة) فهزمهما وقصد بلاد برشلونه . وبلاد القومس وعظمت فتوحاته وظهرت همة قواده ومرابطى ثغوره فى كل ناحية وكان من أعظمها فتح (قلمريه) و (قطوبيه)

ثم دخلت سنة ٣٥٤ فابتنى حصن (عرماج) وظهرت في هذه السنة مراكب المجوس (فى الاطلانطيق) وأفسدوا (اشبونه)[1] فناشبهم

---

(١) ليسبون قاعدة مملكة البورتوغال الآن

أهلها القتال فرجعوا الى مراكبهم وأمر الحاكم القواد فخرجوا لحفظ السواحل وأمر قائد البحر بتعجيل حركة الاسطول ونال منهم من كل جهة من السواحل

تم له ما أراد مع ملوك البشكنس وغيرهم وعاهد (لذريق) ووفدت عليه أمه بهدايا ملوكية عظيمة ووصلته ووصلها وحملها أحسن محمل وأجزل عطاءها

أوطأ عساكره أرض العدوة من المغرب الاقصى والاوسط وتلقى دعوته ملوك زناتة من مفراوه ومكناسه فبثوها فى أعمالهم وخطبوا بها على منابرهم وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم ووفد عليه من بنى الخرز وبنى العافية فأجزل صلاتهم وأكرم وفادتهم وأحسن منصرفهم واستنزل بنى ادريس من ملكهم بالعدوة فى ناحية الريف وجلاهم الى الاسكندرية

أما خلاله الشخصية فقد كان آية في الفضيلة . سمع من أجلاء وقته وأجاز له ثابت بن قاسم وكتب عن خلق كثير وكان محبا للعلوم مكرما لاهلها جمّاعا للآثار الشريفة والاسفار الكريمة والكتب القيمة على اختلاف أنواعها فسبق من تقدمه وجمع مالم يجمعه أحد من الملوك قبله فأقام للعلم سوقاً وجدد للعلماء شوقاً وظهر بهذا المظهر فجلبت اليه بضائع الفضل من كل قطر وحسبك بخزانة جمعت من الاسفار ما اقتضى لاستيفاء فهرستها (أربعة وأربعين جزءا) . جمع مقداراً ضاقت خزائنه عنه وكان ذا غرام بها وقد آثر ذلك على كل لذائذ الملك واغراض الملوك فاستوسع علمه ودق نظره وجمعت استفادته وكان فى المعرفة بالرجال والاخبار والانساب ثقة فيما ينقله . ومن أشد مايتعجب منه وقد اتفقت على

روايته الرواة انه فلما يوجد كتاب في خزانته الا وله فيه قراءة في أى فن كان وعليه تخاريج بغرائب لاتكاد توجد الا عنده

أتحفه أبوه (الخليفة الناصر) بأحسن مايتحف به والد ولده فقربه من العلماء وقرب العلماء منه ومكن بينه وبين كل وافد على الاندلس من المشرق من العلماء فكانت نفسه روحانية صرفاً . وفد أبو على القالى صاحب كتاب الامالى على الاندلس من بغداد فأكرم الناصر مثواه وأحسن منزلته وأعلى قدره واختصه بالحكم فأورث أبو على لاندلس علمه وأفاد الحكم بأحسن ماعنده

قويت عند الحكم رحمه الله مادة حب العلم حتى كان يبعث بالتجار الى الاقطار ومعهم الاموال لشراء الكتب واستجلاب المصنفات من الاقاليم والنواحى باذلا فيها ماأمكن من الاموال مما لا ينفقه غيره حتى جلب للاندلس مالم يعهده علماؤها . هذا كتاب الاغاني بعث فيه لابى الفرج الاصفهانى مصنفه بألف دينار من الذهب العين فبعث اليه بنسخته قبل أن يخرجه الى العراق وكذلك فعل مع القاضى أبي بكر الابهرى فى شرحه لمختصر بن عبد الحكيم

جمع بداره الحذاق فى صناعة النسخ والمهرة فى الضبط والاجادة فى التجليد فأوعى من ذلك كله واجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم تكن لاحد من قبله ولا من بعده ولم تزل بقصر قرطبة حتى أصابتها مصيبة البربر عند دخولهم اليها عنوة ولا حول ولا قوة الا بالله

يطيش الانسان عندما يجد خليفة مثل هذا استشعر الناس فى زمن خلافته بالمسرة والعزة والقوة فى الدين وجماعة المسلمين وعلا به كعب أمرائهم وسمت

نفوسهم بواسطة آدابه الى كل عمل شريف وأفاضوا بالتحدث فيه وكانت للخطباء والشعراء ميادين ومقامات يطول القول فى اختيارها . وسيرته مجهولة عند كثير من الناس وعند ناشئة الشرق بأجمعهم فان سئلوا عن ملك عالم مثلا فأقرب مايحدثونك به سيرة (كارلوس الاعظم) أو (لويس الرابع عشر) نعم انهما كانا في تعضيد العلم وتشييد أركانه آيتين ولكنهما ليسا بمفخر المسلم ان أراد الافتخار وأولى به ان يلم بخبر نفسه ودينه وملته وتاريخ مجده وحياة خلفاء الاسلام ففى ذلك من الخير الكثير مايربو على ماعلم ويزيد على ماحفظ فلا يكون مصداقا لقول الشاعر

(كتاركة بيضها بالعراء ... وملحفة بيض أخرى جناحا)

يصح ان تكون هذه الخلافة خاتمة خلفاء الاندلس ذات الدولة العظيمة والثروة الوافرة والمجد الباذخ لانه لما توفي الحكم رحمه الله فأول ماحدث ان قتل المغيرة أخوه وهو المرشح للحكم وولى بعده ابن الحكم هشام وكان صغيراً سنه تسع سنين ليتم لابن أبى عامر فى الدولة مايريد كما سيجيء تفصيله ان شاء الله . ثم ولى المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر وهو أول خلفاء الفتنة ثم انتهى الامر بسقوط الدعوة للخلافة الاموية واستبدت ملوك الطوائف كما سيأتى

كانت الدولة الاموية من أعظم الدول مكانا وأشرفها موقعا ظهرت فيها منافع كثيرة للحضارة والمدنية عامة وللامة العربية خاصة يكاد السامع بها لايصدق بزوالها كأنما عليها مسحة من بقاء ودوام زراعة متقنة وصناعة رائجة والمدارس تخرج حكماء وعلماء وقواداً وأبطالا أشداداً . وفلاسفة مرشدين وكتبة وحسبة من أحسن الكتاب المقربين وشعراء مصنفين وصناعا مهرة

مبرزين فى فنون البناء والتصوير والنقش والتزيين لا تزال آثارهم تدل عليهم وتشهد بفضلهم وشهادة العدو المناوى أعدل شاهد

حجت اليه ملوك الارض قاطبة يستشرفون معاليه بأجلال

يصد مطمع من ناواه مبتئسا يعييه عن حذو تمثال بتمثال

ولكن ما الحيلة فى احتدام حروب النفوس الشريرة ونزول بلاء سوء الاخلاق وانقراض الدول وانحطاطها بيد أهلها. يحق للسائل أن يسأل أين ذهبت هذه العظمة وكيف وهى هذا الركن العظيم وما هو ذلك الشئ الجسيم الذى أدى لهذا الاختلال السريع فى الخلافة الاسلامية في المغرب والظاهر ان السبب فى ظهور روح الشقاق والخروج على السلطان من الامة والطمع فى الخلافة من كل من له وشيجة رحم بالخلفاء خروج الخلفاء أنفسهم عن المنهج الشرعى والانتهاج لغيره ولذلك نسب كثير من المحققين اختلال هذه الخلافة لعدول عبد الرحمن الاول (الداخل) عن البيعة وميله (لولاية العهد) فقد عهد بالخلافة لمن بعده من ولده وخص بها (هشاما) الاول فكبر ذلك على أخويه الكبيرين سليمان وعبد الله وخرجا عليه وحاولا سلب الخلافة منه فتغلب عليهما وعفى عنهما ثم خرجا بعده على ولده الحاكم وطلبا قسمة البلاد معه. ويقولون ان نار هذه الفتنة كانت مضطرمة ولكن قوة الحاكم القائم بالملك أوقفت الناس عند حدها زمنا وردتهم على أعقابهم عهداً. ثم لما انصرم هذا العصر حدث ما حدث وانه لو جرى المسلمون كعادتهم فى الاختيار والانتخاب لسلموا من هذا البلاء فان هذا الحادث أوجب فى نفوس العمال طمعاً كبيراً وحدث كل نفسه فى خلوته بما حدث فكانوا يخفون أمرهم في إبان القوة خوفا على مناصبهم ويظهرون بكمال الطاعة والانقياد في ظاهر الامر ويستعدون لنوال مقاصدهم سراً

ويتربصون بالخلفاء الدوائر حتى أضرم القتال فى شمال البلاد ولاة سرا قسطه. وطليطلة. وجوسقة. ثم توالت الثورات حتى زلزلت المملكة بزلازلها وأورثتها خبالا بوبالها وقويت الامراض حتى أضعفت خراج الدولة (وكذلك الظلم كمين فى النفس القوة تظهره والضعف يخفيه) وفي الحقيقة ان منهاج الخلافة الشرعى ـ وهو جعل الحل والعقد والنكث والفتل وسائر الشؤون العامة مقيدة بالشورى المتبعة يحبب للامة معالى الامور وهذه أيام الخلفاء الاربعة وعصرهم من أعدل الشواهد على ذلك والعدول عن سير هؤلاء الخلفاء يدفع بالامة الى السفاسف ويحط من مهابة صاحب السلطان ويخفض من شوكته ويستفحل فى عصره أمر الثوار والخارجين عليه لانهم يلحظون من ذلك انه انغمس فى النعيم المضعف للنفوس عن الحرب والجهاد وأهمل أمر الصانع والزارع وان الامة أصبحت فى مدته أتباعا لكل ناعق وان التربية القومية مفقودة بالمرة ويتبع هذا عدم تعميم التعليم والتهذيب اللذين هما من أهم ماجاء به الدين الحنيف الاسلامى فاذا وقع ذلك فايرتقب كل عناء وبلاء

﴿ ملوك الطوائف ﴾

هذا العنوان يصح ان يطلق على الملوك من أصحاب الاطراف الذين يملكون كل فى بلاده على أثر انقراض دولة قوية وهو حال يعرض لكل دولة متى أحطت حكامها وأمراؤها من شأنها وأضعفت من صولتها حتى علم العدو بمكانها من الضعف وأصبح أمر انحطاطها ظاهراً والقائم عليها لا يقدر على جمع النفوس المفترقة وتأليف الاهواء المختلفة وكف الاكف العادية ورد جماح العزائم الفاسدة . يعرض لها بعد أن يفارقها حسن الرأى وجيد القريحة وسديد النظر وصحة اختبار الاحوال وحسن اختيار الرجال وغير ذلك من المعانى التى تتشعب من هذه الاصول الشريفة وتتعلق بهذه الفصول الرفيعة فاذا أصبح القائم غير ناهض بما حمل ولا مستقل بما قلد ولا نافذ الامر فيما هو له أهل من الامر والنهى ولا مؤد ما استودعه الله من أمانة الحكم على عباده فهناك الانقسام وهناك ملوك الطوائف

ظهرت ملوك الطوائف على أثر انقراض (الدولة الرومانية) وقامت كذلك على انقاض (الدولة الكيانية) فى بلاد الفرس بعد ان قتل «دارا» آخر ملوكها واستولى «الاسكندر» على مملكته . ونهض بها فى المغرب أيضا أهل السوء الذين لا يميزون طالب الحق من منكره وجاحد الصدق من منتظره (حال اختلال الدولة الاموية) كانت ملوك الطوائف بالاندلس عقب انتثار عقد الخلافة الاموية وما انتاب هذه الخلافة من الضعف لآخر عهدها وما كان من خلع الجند لهشام اخر خلفائها واستبداد الامراء والرؤساء والوزراء وكبار العرب والبربر بالاطراف واقتسامهم خططها وتغلب بعضهم على بعض

واستقلال قوم على قوم واشتداد الفرقة بينهم وبلوغهم في الجهل درجة أدت بهم الى التزلف لاعدائهم ملوك أسبانيا فيدفعون الجزية لهم (عن يدوهم صاغرون) صونا لملكهم (ساء مايتوهمون) ويأنفون من ارتباطهم مع بعضهم وهم من عنصر واحد ودين واحد وملة واحدة

هدمت الدولة الاموية (بعد ان كانت أرفع الدول عماداً وأعظمها شأنا وأضخمها سلطانا وأكثرها جنوداً وأمدها سلطنة وأعلاها ذكراً وأبعدها اسما) بسبب سوء الخلال وفساد الطباع وخصال السوء ودناءة الاخلاق وخبث السرائر والطباع التى خالطت القلوب بتغرير الدخلاء وفساد المفسدين من أعدائهم . مازالوا بهم حتي أنسوهم خاصة وعامة مكارم الاخلاق فلا وفاء بعهد ولا امانة فانقلبوا على بعضهم وجعلوا بأسهم بينهم وفشت كراهة الاموى للقرشى وتحول الامر من المضرى الى اليمانى

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

تفرق ملوك الطوائف واقتسموا الاندلس فتجزأت بعد ان كانت مجتمعة وأصبح بأشبيلية وأعمالها (محمد بن عباد) وببطليوس وأعمالها (محمد بن عبد الله المعروف بالافطس) وبطليطلة وأعمالها (ابن يعيش) وبسراقسطه وأعمالها (سليمان بن هود الجذامى) وبطرطوسه وأعمالها (لبيب العامرى وبلنسيه وأعمالها (المنصور المغافرى) وبالسهلة وأعمالها (عبود بن رزين البربري) وبوانيه وأعمالها (الموفق العامرى) وبمرسيه وأعمالها (بنو طاهر) وبالمرية وأعمالها (خيران العامرى) وبمالقه وأعمالها (بنو حمود) وبغرناطة وأعمالها (حبوس الصنهاجى)

بهذه الصفة تفرقت دولة بنى أمية وتباهت ملوك الطوائف فى أحوال الملك

(كأنها أحسنت صنعا) فاصبحوا طرفا فى الترف ونهاية في الحضارة حتى قلدوا الخلفاء فى الالقاب والنعوت وجعلوا لهم حجابا يتكلمون عنهم وهم وراء الستر وصح عليهم قول (شارل مارتيل) حينما فزع اليه سكان فرنسا ليستشيروه فى ما يفعلونه مع العرب فى عهد هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥ ، امهلوا العرب حتى تمتلىء ايديهم من الغنائم ويتخذوا من المساكن ويتنافسوا في الرئاسة ويستعين بعضهم على بعض وتفارقهم هذه الصفات التي تغنى عن كثرة العدد والقلوب التى دونها حصانة الدروع ثم خذوهم بعضهم)

أخذ ملك الاسلام فى الاندلس فى التضعضع وملوكه في التفرق وحدث منهم ما أوجب علماء الامة وأمناء الملة ان تفتى بجواز الحرب معهم لانحرافهم عن الاستقامة ومساعدة بعضهم للاسبانيول وظهر فى اثناء ذلك أمر يوسف بن تاشفين فكتب اليه المعتمد بن عباد أمير أشبيلية يعلمه بحال الاندلس ويسأله النصر والاعانة ثم طال به العهد لاشتغال يوسف ابن تاشفين بالفتح فذهب اليه والتقى به وكان ما كان من دخوله الاندلس وحربه مع الفونس السادس ملك قشتالة فى واقعة من اكبر واشهر وقائع المسلمين بالاندلس ووفقه لامتلاك بعض البلاد ونفوذ الكلمة فى المغرب ضابطاً لمصالح مملكته مؤثراً لاهل العلم والدين كثير المشورة لهم حتى ان الامام الغزالى رضى الله عنه لما سمع بسيرته عزم على لقائه ولكن الموت حال بينهما

انتقل الملك بعد وفاته لأولاده ولم يكن فيهم من أهل الحوطة والصون مايكفى لتنكيل أعداء الله والدولة طائحة فى هوة الهلاك فانقرضوا

فى سنة ٥٤٢ وقامت دولة بنى الاحمر وهي آخر الدول الاسلامية في بلاد الاندلس ومنها استرجع الاسبانيول ما كان بأيدى المسلمين وبهم انقرضت الدولة الاسلامية من اسبانيا لا بأس بأن نلم ببعض الالمام بشىء من الاسباب الظاهرة التى كانت سببا لهذا التفرق والانقسام آل الحكم الى هشام بن الحكم وهو صبي صغير لا يتجاوز عمره تسع سنين مضعف عاجز عن القيام بالملك فقام به كافله من وزراء أبيه (أبو عامر) فحجب الصبي عن الناس واستبد بالملك واستحكمت له صبغة الرئاسة وتحول الملك اليه وآثر به عشيرته وأبناءه وسما به أمل التغلب فمكر بأهل الدولة وضرب بين رجالها وقطع بعضهم ببعض وصار كاعظم ما يكون ملكا وسلطانا

هلك والخلفاء من بعده ملعبة لاعب لانه جدد فى الاذهان طريقة الوثوب على مقاماتهم العالية وحمل الخلفاء على القناعة بالابهة واللذات وانساهم عهد الرجولية فقامت الناس من بعده فخلعوا هشاماً وقتلوا ابنه ثم ولوا الحكومة عبدالرحمن المرتضى ثم قتلوه وهكذا المستظهر والمستكفى ثم خلعوا هشاما وأمية بن عبد الرحمن الذى انتهت به الخلفاء فى الاندلس وعدتهم ستة عشر خليفة في مائتين وأربع وثمانين سنة

تدمع عين القارىء من شؤم ما جرى فى هذه البلاد وسوء ما وقع بها أكثر مما ضحكت سنه وانشرح صدره سروراً بدخول طارق بن زياد أولا وموسى بن نصير ثانيا وما شيدا فيها من دعائم المجد واعلام الهدي

ان حزنا فى ساعة الفرقة اضعاف سرور فى ساعة الميلاد

الله الجهل والشقاق ؛ أباد هذه المملكة بعد أن كانت مجتمع أعلام

الانام ومقر سرير الخلافة ومركز الكرماء ومعدن العلماء فليقس من كان شأنه القياس من الناس حالا بحال وفتحا بفتح لينكشف له ما حدث وليتحقق ماجرى

قامت دولة بنى الأحمر المنسوبين الى سيدنا سعد بن عبادة سيد الخزرج ونيران الدسائس مشتعلة بيد الاعداء وقد كثر أمر الثوار ومازال الفشل مستمراً بين العدو مرة وبين المسلمين وبعضهم أخرى والقائمون بالامر بعضهم يقتل وبعضهم يخلع والمدن والقرى في فتن وخطوب يطول شرحها والبلاد تنقض من أطرافها بسبب الخذلان الذى أدى اليه الشقاق حتي لم يبق لبنى الاحمر الا غرناطة وأعمالها فأقبل العدو بجيشه المركب من جيوش قشتاله واراغون تمده (أوروبا) فلم يكن منهم الا انهم أفسدوا الزرع وقطعوا الاشجار وهدموا القرى وشددوا الحصار على المسلمين الى أن تمكن فصل الشتاء ونزل الثلج وانسد باب المرافق وانقطع الجالب وقل المطعوم والطاعم واشتد الغلاء وعظم البلاء فلم يكن من أهل العلم والوجاهة الا ملاقاة السلطان أبى عبد الله فاجتمع الناس اليه ورأوا ان ارتكاب أخف الضررين بالصلح أولى واتفقوا على شروط عقدت ثم قرئت ووافقوا عليها وكتبت بها البيعة ونزل السلطان من غرناطه عن كرسيه ولا حول ولا قوة الا بالله

اشتملت هذه الشروط على سبعة وستين شرطا منها: تأمين الصغير والكبير فى النفس والاهل والمال . وإقامة الشريعة على ما كانت عليه فلا يحكم على أحد إلا بشريعته ولا يولى على المسلمين نصرانى ولا يهودي وأن لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ولا يجبر أحد على ترك دينه ولا يمنع مؤذن ولا

صائم ولا مصل عما هو قائم به الى آخر ماهو مدون بها من بقية الشروط التى وضعت باتفاق الطرفين)

وافق كلهم على هذه الشروط حتى صاحب رومه ووضع خط يده عليها ولكن الاسبانيول لم يراعوها الا ريثما تقدموا فى الامر وتمكنت قدمهم وعلموا أن لا ناصر للمسلمين من ظلمهم فعدلوا عن مراعاة تلك الشروط معهم وأذاقوهم أنواع العذاب والاضطهادات خصوصاً لما تشكلت المحكمة المعروفة بمحكمة (التحرى القسيسى)(انكيز سيون)فكان لها من القسوة ما يخجل كل من كان في قلبه ذرة من المروءة والانسانية

أنشئت هذه المحاكم بأمر البابا وات(مصدر الرحمة والاحسان) خدمة للدين في ظاهر الامر ولكنها سياسية باطناً فأتى الاسبانيول أعمالا بربرية وحشية فأحرقوا الزرع وهدموا الدور وغيروا وبدلوا بالمعالم الثابتة والآثار الجميلة ظلما وعدوانا فاذا آثار المسلمين بتلك الاطراف بائدة لم يبق منها الا ما صح عليه قول القائل

كاد الليالى وكادته مجالدة وانكف عاديها من بعد تقتال

ثم انثنت وبها من صبره حرق وان كسته لكيد ثوب أسمال

كانت يد الاعداء عن ابادته كما ضعفت يد الدهر عن فنائه ففيه للآن بقية يندهش منها الانسان تدل على المعارف والفنون التى كانت في تلك البلاد تنشد بلسان الآثار والعمائر والمبانى والمدن والدساكر وعجائب الرسوم ودقة النقوش واحكام البناء ان أهلها بلغوا النهاية من الارتقاء والغاية من مدارج العلاء وتنذر الناس بأن الجهل معول يقتلع الرواسى الشامخة ويحط الى حضيض الثرى اذا كان العلم يرفعها للثريا

لا يستطيع انسان ان يجحد حسن حال اسبانيا في عصر الدول الاسلامية لان مؤرخي الغرب اتفقوا مع مؤرخي العرب على ان الاندلس كانت في مدة الدول الاسلامية في رواج عظيم وأنها اشتهرت في خلافة عبد الرحمن الثالث اشتهارا لم يكن لها من قبل ولا أتى لها من بعد لاعتنائه بالمعارف وانشائه المدارس وتنشيطه الصنائع وتوسيعه دائرة الصناعة حتى ذاع صيتها وتقاطرت اليها الطلاب من كل البلاد وسادت على العالم . وقد اعتمدنا في نقل هذه العبارة الصغيرة التي يؤخذ منها ماكانت عليه وماصارت اليه من دائرة المعارف في الكلام على نقطة أسبانيا صحيفة ٢٣١ جزء ٣ لاننا متحققين بأنها تستقي وتستمد في نقولها على الغالب من مؤلفات أجنبية قال المؤلف (ان الصناعة في أسبانيا كانت ذات رواج عظيم في القرون الماضية واشتهرت بها في القرون المتوسطة منسوجات الصوف والحرير المصنوعة في اشبيلية وغرناطه وبياسه والاجواخ المصنوعة في مرسيلية والاسلحة المصنوعة في طليطلة (غير أن جلاء اليهود والعرب من أسبانيا وحصر حقوق البيع والشراء بمصنوعات معامل الحكومة والرسومات العظيمة التي جعلتها الحكومة على مصنوعات المعامل الخصوصية التي كانت تتضاعف بطمع مأموري الرسومات سببت سقوط الصناعة في أسبانيا)

كان في اشبيلية في القديم ١٦ ألف محل لصناعة الحرير فعلتها ١٣٠ ألف شخص ولحد سنة ١٦٧٣ لم يبق منها سوى ٤٠٥ محلات . وكان في شقوبيه معامل يخرج منها سنويا ٢٥ ألف شقه من الحرير وفي سنة ١٧٨٨ لم يخرج منها الا ٤٠٠ شقه فقط اه

وعلى هذا القدر يقاس . والواقف على تواريخ أسبانيا يعلم ما كان لليهود

فيها من سمو المقام والتقدم فى الآداب أزمان العرب والاسلام وان الكثيرين منهم كانوا يتقنون العلوم العبرانية أى اتقان . ولم يقل أحد بأن العرب اذاقوهم مرارة الجلاء عن بلادهم كما وقع ذلك لهم فى عهد الحكومة الاسبانيولية بل وقع الامر على العكس فان المؤرخين على اجماع بأن أعظم الاسباب التى سهلت لليهود والنصارى سبل الانضمام والارتباط فى هذه البلاد ضد العرب هى ان الدول الاسلامية حفظت لهم استقلالهم فلم يعسر عليهم ان يكونوا مملكة بعد . ومن هذا أيضا مافعلته الدولة العلية العثمانية مع تبعتها من غير المسلمين فى الروملى وغيره . حفظت لهم كيانهم فضلا عن استقلالهم فلما وثبوا للخروج عليها باغراء الدول لم يجدوا ما يعوقهم عن العمل لغرضهم لانهم مجتمعون متحدون

تم طبع الجزء الثانى من كتاب حماة الاسلام
وذلك فى العشر الاخير من شهر الحجة سنة ١٣٤١ هـ



فهرست

الجزء الثانى من كتاب حماة الاسلام

صحيفة